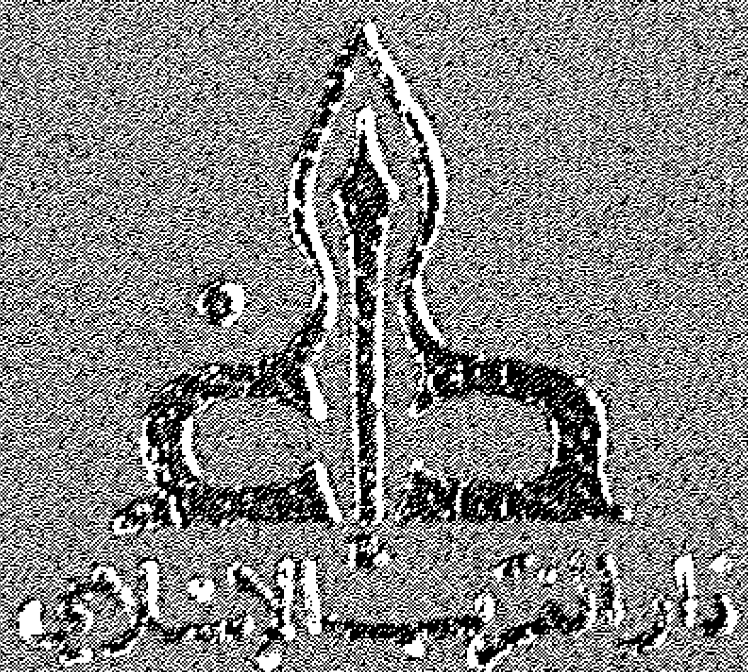
دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط

تأليف
الدكتور راضي دغفوس
أستاذ التاريخ الإسلامي
جامعة تونس



دراسات في التاريخ
العربي الإسلامي الوسيط

دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط

تأليف

الدكتور راضي دغفوس
أستاذ التاريخ الإسلامي
بجامعة تونس



الطبعة الأولى

1425 هـ ـ 2005 م

دار الغرب الإسلامي

ص: ب. 5787 ـ 113 بيروت

الإهــــداء

إلى روح والدي

إلى زوجتي نادية

إلى ابني غيلان

إلى بناتي نوال ـ رحيق وإيناس

فهرس المواضيع



توطئـــة

من خلال جمعنا لعدة بحوث ـ باللغتين العربية والفرنسية ـ قاسمها المشترك التركيز على **التاريخ العربي الإسلامي** في ما يسمى بـ **العصر الوسيط** أردنا أن نفسح المجال للقارىء العربي والأجنبي للتعرف على بعض الدراسات التي كنا نشرنا جزءاً كبيراً منها في مجلات علمية مختلفة دون عناء ومشقة. وحرصنا أن نبقي عليها كما وقع نشرها دون تغيير ما جاء فيها من معلومات تاريخية نأمل أن تكون مفيدة ووفق منهجية علمية سعينا أن تظل مطابقة للبحث التاريخي الدقيق. كما أضفنا مجموعة أخرى من البحوث الجديدة التي شاركنا بها في عدة تظاهرات دولية في تونس وخارجها. من ناحية أخرى قمنا بترتيب هذه النصوص وعرضها على القارىء حسب تواريخ نشرها أو إنجازها.

إن هذه المجموعة التي تطرح مواضيع متنوعة وتبحث في حقبات زمنية متقاربة وتشمل مجالات جغرافية شاسعة لكنها تندرج كلها في العالم العربي الإسلامي الوسيط، نأمل بكل صدق أن تجد صدىً طيباً لدى القارىء المهتم بتاريخ اليمن والمغرب وكذلك بتاريخ القبائل والمدن وعديد القضايا التاريخية الأخرى. وهدفنا يبقى في نهاية المطاف الإسهام ـ بشكل متواضع ـ في دراسة تاريخ الأمة العربية والعالم الإسلامي في العهد الكلاسيكي.

المؤلــــف

المؤرخ العربي

مجلة تصدرها

الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب

بغداد ـ العراق

العدد العاشر

مصادر تاريخ جنوب الجزيرة العربية
ملاحظات حول بعض المخطوطات التاريخية المخزونة في المكتبة القومية بباريس

تحتوي المكتبة القومية بباريس في فرنسا على بعض المخطوطات التي تهـم تاريخ جنـوب الجزيرة العربيـة وخاصة منه تاريخ اليمن في الفترة الإسلامية.

وتعد هاته المخطوطات التاريخية جزءاً لا يتجزأ من جملة المؤلفات العديدة التي تتعلق بتاريخ العرب وحضارتهم في جنوب الجزيرة العربية والتي نجدها منتشرة في مكتبات متنوعة عبر أنحاء العالم سواء في البلدان العربية بالذات كاليمن وعمان وحضرموت أو في البلدان الأوروبية وغيرها.

وقد رأينا من الصالح أن نعطي ولو فكرة عامة عن مختلف هاته المخطوطات المخزونة بباريس وأن نقدمها مع الإشارة إلى طبيعتها ومحتواها وما إلى ما يمكن استغلاله منها لدراسة فترات معينة من تاريخ جنوب الجزيرة العربية في العهد الإسلامي خاصة:

1 ـ فما هي إذن أنواع أو طبيعة هاته المخطوطات؟

2 ـ وما هو شكلها وأسلوب المؤرخين في تدوينها؟

3 ـ ما هي النواحي التي تتناولها بالبحث وكيف يمكن لنا استغلال محتواها؟

4 ـ من هم مؤلفوها وما هي شخصياتهم؟

1 ـ نوعية المخطوطات:

لا شك أن المخطوطات التاريخية المشار إليها تمثل الشيء القليل من جملة المخطوطات المتعلقة بتاريخ كامل الجزيرة العربية وهذا لسببين:

أولاً: من ناحية الكم فلا يبلغ عددها أكثر من 40 و 50 مخطوطة بينما نجد المئات بل الآلاف من مثل هاته المخطوطات موزعة في أماكن مختلفة من العالم (كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل).

ثانياً: من ناحية المحتوى فأغلب هاته المؤلفات تهم تاريخ اليمن، خاصة في الفترة الأخيرة من القرون الوسطى.

ومهما يكن من أمر فيمكن لنا حصر هاته المصادر عن تاريخ جنوب الجزيرة في 5 أنواع:

أ) المؤلفات العامة التي تهم التاريخ اليمني العام أو بالأحرى تاريخ الدول اليمانية التي تداولت الحكم منذ القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) ونذكر من جملتها حسب الترتيب الزمني:

ـ «بهجة الزمن في تاريخ اليمن» لابن عبد المجيد (5977) وقد حققه بالقاهرة سنة 1965 السيد مصطفى حجازي.

ـ «الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملوك الإسلام» لأبي حسن الخزرجي (58321) وما زال مخطوطاً. ونحن بصدد تحقيق قسم من هذا الكتاب.

ـ «قرة العيون في أخبار اليمن الميمون» لابن الديبع (5821 ـ 6058) ويقوم بتحقيقه ونشره القاضي محمد بن علي الأكوع وقد طبع أخيراً بالقاهرة سنة 1977.

ب) المؤلفات التي تهتم بتاريخ معين لبعض الدول اليمانية نذكر منها ما يلي:

- «تاريخ بني رسول» لمؤلف مجهول (4609)، وقد حققه وطبعه بطوكيو سنة 1976 المؤرخ الياباني Hikoichi - Yajima.

- «مطالع النيران في تاريخ اليمن» وهو تاريخ للعثمانيين في اليمن في القرن العاشر الهجري (1651) لمؤلف يسمى أحمد بن يوسف بن محمد فيروز ولا نعرف تاريخ وفاته.

ج) مؤلفات أكثر دقة لأنها خاصة بمدن معينة مثلاً:

- «تاريخ صنعاء اليمن» للرازي (5824 ـ 1643) وقد وقع تحقيقه ونشره بدمشق سنة 1974م من طرف السيدين عبد الجبار زكار وحسين عبد الله العمري.

- «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد» لابن الديبع (5897 ـ 6069) وقد نشر قسم منه المستشرق Johansen ولكنه يحتاج إلى نشرة أخرى أكثر دقة.

- «تاريخ ثغر عدن» لأبي مخرمة (5963 ـ 6062) وقد حققه ونشره سنة 1936 المستشرق O. Lofgren بليدن.

ونضيف إلى هذا النوع من المؤلفات أرجوزة عن زبيد عنوانها «أحسن السلوك في نظم من ولي زبيد من الملوك» لابن الديبع (5832) وسنقوم بنشرها في «حوليات كلية الآداب بتونس».

د) كتب الطبقات أو بالأحرى كتب التراجم ولنا منها:

- «كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك» للجندي (2127) ونضيف إليه كتاباً للأشرف الرسولي عنوانه: «كتاب طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب» (6060) وقد حققه Zetterstein ونشره بدمشق سنة 1949.

هـ) هناك مجموعة أخرى من المؤلفات العامة وجدنا فيها بعض الفصول الخاصة بتاريخ جنوب الجزيرة وشرقيها مثل:

- «مرآة الجنان» لليافعي (1592).

ـ «غربال الزمان» للعامري (1593).

ـ «أخبار الدول» للقرماني (5980).

ـ «تاريخ ينسب إلى مسلم اللحجي» (59820).

(وقد أثبت المستشرق Madelung أنه يكون الجزء الرابع من كتاب «روضة الأخبار» للحاجوري) (7 ـ 13).

وقد وجدنا كذلك مخطوطة فيها مجموعة كتب تهم تاريخ اليمن وهي من تأليف عز الدين محمد بن يحيى بن الحسين بن عبد الله الحسيني (6128) وفيها:

ـ مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار.

ـ اللواحق النادية للحدائق الوردية.

ثم قصيدة «البسمات الصغرى» من تأليف بدر الدين محمد بن علي بن يوسف بن علي بن الرهيف الفريد. وهي قصيدة مهداة للإمام الزيدي عز الدين بن الحسن (1494 ـ 1474/ 900 ـ 879) وفيها عرضاً ملخصاً لتاريخ اليمن حتى سنة (1508/914).

ـ «ملحق للبسمة» لسرم الدين داود بن الهادي بن أحمد بن المهدي بن عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد بن جبرائيل.

كما توجد نسخة مخطوطة لكتاب ابن المجاور: «تاريخ المستبصر» (6021) الذي حققه Lofgren ونشره في ليدن سنة 54 ـ 1951.

ومخطوطة عنوانها «فتوح اليمن» لأبي الحسن علي بن أحمد بن عبد الله البكري (1816) وهي عبارة عن أسطورة تاريخية لفتح اليمن من طرف علي بن أبي طالب.

وأخيراً لا بد لنا أن نشير إلى نوع أخير من المؤلفات يقع ضمن «مجموعة رسائل» متبادلة بين السلاطين في مصر وفي نواحي أخرى من العالم الإسلامي خاصة في جنوب الجزيرة العربية (4440) ويقوم الدكتور أحمد دراج بنشر كل

هاته المجموعة التي تشتمل على ما يقارب المائة رسالة ـ وطبعاً هناك مخطوطات أخرى تهم مثلاً تاريخ عمان: تاريخ عمان (5126) ـ الفتح المبين (4853).

2 ـ طريقة تدوين هاته المؤلفات:

ما هو الأسلوب الذي اتبعه المؤلفون في وضع كتبهم التي كنا بصدد ذكرها وتقديمها؟.

إذا ألقينا نظرة ملية على كل هاته المؤلفات التاريخية التي طبع البعض منها وما زالت البقية مخطوطة ـ (ونتمنى أن تحقق وتنشر في أقرب الآجال لكي يتمكن المهتمون بتاريخ الجزيرة العربية عامة وتاريخ اليمن خاصة من استغلالها) ـ لوجدنا أنها دونت حسب طرق مختلفة وأساليب متنوعة ـ وفيما يلي نذكر بعض أمثلة لذلك:

أ) **أولاً**: الأسلوب الكلاسيكي المعهود الذي نجده في كتب التاريخ العامة وفي العديد من البلدان الإسلامية منذ القرن الثاني والثالث (مثلاً: تاريخ الرسل والملوك للطبري ـ تاريخ خليفة بن خياط...): وهو أسلوب الحوليات (Annales) الذي يعتمد على ذكر الأحداث والتعليق عليها سنة بعد سنة. ونذكر من بين المخطوطات الموضوعة على هذا المنوال كتابه اليافعي «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان وتقلب أحوال الإنسان»: وهو عبارة عن تاريخ عام لمدة طويلة من الزمن تمتد من السنة الأولى للهجرة حتى نهاية القرن الرابع (400 ـ 1009) بالنسبة للجزء الأول ومن سنة (400 ـ 1009) إلى سنة (750 ـ 1349) بالنسبة للجزء الثاني.

نذكر كذلك كتاب العامري (1847 ـ 1491) «غربال الزمان في وفيات الأعيان» وهو مختصر لتاريخ اليافعي يؤرخ لنفس الفترة الزمنية.

ورغم أن هذين الكتابين لا يهمان تاريخ الجزيرة العربية بصفة مباشرة فنجد فيهما أشياء تهم خاصة الجانب السياسي والحربي لذلك التاريخ.

ولعل أحسن مؤلف يماني يتبع هذا الأسلوب هو يحيى بن الحسين صاحب كتاب «غاية اليماني في أخبار القطر اليماني» (1689 ـ 1625/1100 ـ 1035).

ب) ثانياً: الطريقة التي اعتمدها بعض المؤرخين للتدوين لا حسب السنين بل حسب الدول والشخصيات. ولعل هذا الأسلوب هو الذي أصبح رائجاً في جنوب الجزيرة العربية منذ القرن الثالث الهجري أي في عهد الدول المستقلة عن النظام المركزي (في بغداد).

ومن جملة المؤلفات المدونة على هذا المنوال نذكر خاصة كتاب الجندي «السلوك في طبقات العلماء والملوك» وهو عبارة عن مؤلف يدرس فيه صاحبه تاريخ اليمن منذ بداية الإسلام حتى سنة (723 ـ 1323) وينقسم هذا الكتاب إلى عدة أقسام. ففي القسم الأول نجد الجندي يذكر لنا الرسول وأهم العلماء والفقهاء الذين عاصروه ودخلوا اليمن في أيامه ثم يأتي لذكر طبقات العلماء والفقهاء في عهد الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس إلى أن يصل بنا المؤلف إلى سنة (720 تقريباً ـ 1320).

وإلى جانب هذا الكتاب يمكن لنا أن نذكر 3 أو 4 أمثلة لكتب تاريخية نسجت على هاته الطريقة:

ـ كتاب ابن عبد المجيد: «بهجة الزمن في تاريخ اليمن» وهو كتاب يحتوي على ما يقارب العشرين فصلاً يذكر فيه صاحبه بعض المعلومات عن اليمن وفضله قبل أن يأتي إلى ذكر ولاة النبي (ﷺ) ثم ولاة الراشدين والأمويين والعباسيين ـ وقد ركز اهتمامه بعد ذلك لدراسة الدول المستقلة التي قامت باليمن منذ القرن الثالث الهجري (ونذكر منها دولة بني زياد ـ دولة بني نجاح ـ ودولة بني زريع وبني مهدي إلى غير ذلك).

وأخيراً نجد دراسة أكثر تفصيلاً للدولة الرسولية التي عاصرها ابن عبدالمجيد، والملاحظ أن هذا القسم الخاص بالرسولين يساوي ما يقارب نصف الكتاب.

ـ كتاب الخزرجي: «الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملوك الإسلام» وهو كتاب مبني على نفس الأسلوب بحيث يبتدىء المؤلف بذكر اليمن ومن ملك صنعاء وعدن وفيه 10 فصول إلى أن يصل إلى باب آخر فيه 12 فصلاً وهو عبارة عن دراسة خاصة لزبيد وأمرائها وملوكها ووزرائها ـ ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الكتاب المعروف «بتاريخ الخزرجي» لا يحتوي إلا على البابين الرابع والخامس ولا نعرف شيئاً عن الأبواب الثلاثة الأولى له.

ـ كتاب ابن الديبع: «قرة العيون في أخبار اليمن الميمون» وهو يشتمل على ثلاثة أبواب وكل باب ينقسم إلى عدة فصول وقد درس فيه المؤلف **أولاً**: اليمن من بداية الإسلام حتى القرن الثالث الهجري. **وثانياً**: الدول المستقلة منذ القرن الثالث حتى القرن العاشر. وقد خصص الجزء الأكبر منه لدراسة تاريخ زبيد في عهد بني رسول وبني ظاهر.

من الكتب الأخرى التي دونت على هاته الطريقة نذكر أيضاً كتاباً آخر لابن الديبع عن زبيد: «بغية المستفيد» وهو دراسة عامة لتاريخ هاته المدينة منذ تأسيسها سنة (204ـ819) حتى سنة (901ـ1495) ـ ثم كتاب الرازي «تاريخ مدينة صنعاء اليمن» وهو من أقدم الكتب نظراً لأن مؤلفه عاش في القرن الخامس وتوفي بعد سنة (500ـ1106) ويصل فيه الرازي إلى سنة (460ـ1067). وقد ذكر لنا المؤلف في المقدمة أن هذا الكتاب يناسب الجزء الثاني من تاريخه العام ولا ندري أين هو الجزء الأول وما هو محتواه ـ ثم كتاب أبي مخرمة: «تاريخ ثغر عدن».

ج) **ثالثاً**: أسلوب تدوين التاريخ شعراً عن طريق القصائد والأراجيز ـ ونذكر في هذا المضمار أرجوزة ابن الديبع «أحسن السلوك في نظم من ولي زبيد من الملوك» وتقع هاته الأرجوزة في 119 بيت ـ وهي عبارة عن تاريخ موجز جداً لمدينة زبيد منذ تأسيسها إلى عهد الملك الطاهري عامر بن عبد الوهاب وقد وجدنا كذلك ضمن المخطوطات المحفوظات في مكتبة باريس قصيدة أخرى تسمى «البسمات الصغرى» وفيها ذكر لتاريخ ملوك اليمن حتى سنة

(914 _ 1508) وملحق لهاته القصيدة.

د) رابعاً: أما بقية المؤلفات المشار إليها سابقاً فلا تخضع لأسلوب آخر معين ما عدا كتاب الأشرف الرسولي «طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب» الذي يمكن لنا أن نضعه ضمن الكتب التي درس فيها أصحابها الشخصيات وهو مؤلف جاء على منوال كتب الأنساب المعهودة مثل «جمهرة أنساب العرب» لابن خرم أو «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» للقلقشندي وهو مؤلف مفيد جداً لمعرفة الأنساب في جنوب الجزيرة العربية.

3 ـ ما هي الجوانب التي تتناولها هاته المؤلفات بالدرس:

الملاحظة الأولى التي يمكن لنا أن نشير إليها في هذا المجال هو أن أغلب هاته الكتب تهم جانباً واحداً ألا وهو الجانب السياسي والحربي ـ ولا نجد فيها إلا بعض إشارات نادرة للجوانب الأخرى التي لا ينبغي علينا أن نتجاهلها: أعني الجانب الاجتماعي والاقتصادي من ناحية والجانب الثقافي والديني من ناحية أخرى.

ثم أن جل هاته المؤلفات تعطينا معلومات أكثر دقة عن الدول المتأخرة التي قامت في جنوب الجزيرة العربية.

وهذا يعني أن دراسة تاريخ الجزيرة في القرون الأولى للإسلام صعبة جداً نظراً لأن كل المؤلفين الذين ذكرناهم في سياق الحديث عاشوا في القرون الوسطى الأخيرة (القرن السابع والثامن والتاسع من الهجرة). وأقدم كتاب في هاته المجموعة هو كتاب الرازي ـ تاريخ صنعاء اليمن ـ بحيث أن كل الأحداث السياسية والحربية المنقولة والمدونة في هاته الكتب تهم الدول التي عاصرها المؤلفون وخاصة منها دولة الرسولين ودولة بني طاهر فيما يخص اليمن ـ أو الفترة التركية فيما يخص البلدان الأخرى كعمان مثلاً.

بينما لا نجد إلا معلومات عامة تكون في أكثر الأحيان مجرد سرد للأحداث وذكر لأسماء الولاة والأمراء والذين حكموا جنوب الجزيرة العربية

أثناء القرون الثلاثة الأولى للهجرة (أي عندما كانت الجهة تحت ظل الخلافة الإسلامية وتحكم عن طريق ولاة مبعوثين من طرف النظام المركزي).

ويرجع كل هذا في الحقيقة إلى عدم وجود ممارسة للكتابة التاريخية من طرف المؤرخين اليمانيين وغيرهم قبل القرنين الرابع والخامس للهجرة.

وهنا نقف برهة زمنية لنتعرض بإيجاز لمصادر هؤلاء المؤلفين ومراجعهم التي اعتمدوا عليها لتصنيف ووضع مؤلفاتهم التاريخية ـ ذلك لأن تلك المصادر من شأنها أن تعطينا فكرة عن مستوى الكتابة التاريخية في الجزيرة العربية بصفة عامة.

فمما لا شك فيه أن أغلب هؤلاء المؤلفين والمؤرخين قد اعتمدوا في وضع كتبهم على كتب التاريخ القديمة التي كانت معروفة آنذاك خاصة منها تأليف الطبري (تاريخ الرسل والملوك) واليعقوبي وغيرهم. بحيث يمكن اعتبار المعلومات التي يفيدوننا بها عن الفترات الأولى للإسلام في جنوب الجزيرة العربية بصفة عامة معلومات ثانوية (De Seconde Main) ثم أنها شحيحة من ناحية الكم وواهية في بعض الأحيان من ناحية الكيف.

هنالك أيضاً مراجع ومصادر أخرى اعتمدوا عليها وهي طبعاً كتب الفقه والدين والحديث. ومن الجدير بالذكر أن واضعي الكتب المشار إليها قد يتعرضون في مقدمات تآليفهم إلى أهم الكتب التي استعملوها أو على الأقل نقلوا عليها بعض الأحداث المعنية وبعض الأقوال الرائجة عن بلدانهم وأوطانهم وسنرجع إلى ذلك عندما نتحدث عن ابن الديبع والخزرجي.

وكيف يمكن لنا إذن استغلال هاته المؤلفات بصفة موضوعية؟

من المعلوم أن الباحث عندما يطلع على مؤلف ما يجب عليه أن لا يأخذ بصفة قطعية كل ما يجده مدوناً بل من الواجب عليه أن يقارن ذلك بما يجده في الكتب الأخرى وفي المؤلفات التاريخية الأخرى بصفة أدق وذلك لكي يتسنى له ضبط الحقيقة وإظهار مدى تحيز المؤرخ الفلاني لدى شق معين أو مدى تجاهله لبعض النقاط دون الأخرى وأسباب ذلك.

وهذا طبعاً يدخل في نطاق البحث عن الحقائق التاريخية التي ربما لا نجدها مسرودة وبوضوح في كل المؤلفات. ثم أن الباحث مطالب كذلك بمعرفة الوسط الذي عاش فيه كل مؤلف لكي يلم بشخصية المؤلفين ويضبط كل ما من شأنه أن يرشده عن البيئة التي نشأ فيها المؤلف ووضع فيها تآليفه.

ولهذا السبب رأينا من الصالح أن نتعرض بإيجاز إلى هذه النقطة.

4 ـ شخصية مؤلفي المخطوطات المذكورة أعلاه:

ليس في نيتنا أن ندرس شخصية كل المؤلفين والمؤرخين الذين ذكرنا أسماءهم وعناوين مؤلفاتهم في سياق الحديث ولكننا سنقتصر على مثال واحد أو مثالين لكي نبرز العلاقة بين المؤلف والتأليف من ناحية وبين ما يقال ويسرد من أحداث والحقيقة التاريخية كما يمكن لنا ضبطها بعد بحث وتدقيق ومقارنات عديدة من ناحية أخرى.

أ) أولاً: أبو الحسن الخزرجي:

هو موفق الدين أبو الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي بن وهاس الخزرجي عاش في القرن الثامن وتوفي سنة (812 ـ 1410) وهو من مواليد زبيد باليمن ومن كبار مؤرخي اليمن.

وقد خلف لنا هذا المؤرخ العديد من المؤلفات التاريخية عن بلده نذكر من جملتها:

ـ «المسجد المسبوك والجوهر المحبوك في أخبار الخلفاء والملوك» وهو عبارة عن تاريخ عام مرتب على السنوات يحتوي على قسمين ذكر فيه الخزرجي سيرة الرسول كما ذكر الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أُمية وبني العباس (القسم الأول) ثم تعرض بعد ذلك لذكر ملوك مصر والشام وإفريقيا والقيروان والأندلس والمغرب وصنعاء وعدن وزبيد.. وقد اعتمد عليه ابن الديبع عندما وضع كتابه «قرة العيون».

- «الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملوك الإسلام» الذي يعرف بتاريخ الخزرجي ولنا منه الباب الرابع والخامس اللذين يغطيان تاريخ اليمن من العهد النبوي إلى القرن التاسع.

ثم أن الخزرجي شهر كذلك بكتابه «العقود اللّؤلؤئية في تايخ الدولة الرسولية» الذي ترجمه إلى الإنكليزية العالم (Nicholson) سنة 1906 ونشر في القاهرة بالعربية سنة 1911 في 3 أجزاء.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخزرجي اعتمد في وضع كتبه على عدة مؤرخين وعلماء سبقوه نذكر من بينهم ابن عبد المجيد - الرازي - الجندي - الأزرقي صاحب أخبار مكة - الهمداني البيهقي صاحب دلائل النبوة إلى غير ذلك.

ويعد الخزرجي مؤرخ الدولة الرسولية التي عاصرها والتي حكمت قسماً من اليمن من سنة (626 - 1229) إلى سنة (858 - 1454).

ب) ثانياً - ابن الديبع:

هو وجيه الدين عبد الرحمان بن علي بن محمد بن عمر الشيباني المعروف بابن الديبع وهو من مواليد زبيد ولد سنة (866 - 1461) وتوفي سنة (941 - 1537) ومن حسن الحظ فقد خلف لنا ابن الديبع في خاتمة كتابه «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد» ترجمة ذاتية من شأنها أن تطلعنا على بعض جوانب شخصيته. وجاء على ضوء هاته الترجمة أن مؤلفنا نشأ مدة هامة من حياته في زبيد وتربى أولاً في حضن جده لأمه وذلك لأنه فقد أباه في الهند - [ويعلمنا أنه لم يره قط] - وسنه آنذاك لا تتجاوز العاشرة (876 - 1473). ثم نجده في حضن خاله الذي اهتم بتربيته بعد موت جده.

وقد ذكر لنا ابن الديبع في ترجمته أنه أخذ العلم عن شيوخ وعلماء متعددين نذكر من بينهم الشرجي والسخاوي ودرس عنهم علوم متنوعة مثل الفقه والقرآن والحديث والحساب إلى غير ذلك.

وقد أداه اطلاعه وتعلمه إلى التنقل خارج زبيد إذ أنه زار خاصة الحجاز

حيث أدى واجب الحج ثلاثة مرات على الأقل سنة (883 ـ 1479) و (885 ـ 1481) و (897 ـ 1491)، كما أنه زار كذلك بيت الفقيه ابن عجيل حيث تمكن من الاتصال ببعض الفقهاء وأخذ عنهم علوم الفقه والدين.

ومن الأشياء الهامة التي ذكرها لنا ابن الديبع في ترجمته أنه أقام مدة زمنية في بلاط السلطان الطاهري عامر بن عبد الوهاب في مدينة المقرانة وقد استقبل خير الاستقبال وأكرم من طرف هذا الأخير الذي عين لنا في آخر إقامته قراءة الحديث في جامع زبيد.

وفيما يتعلق بآثاره العلمية فقد خلف لنا ابن الديبع العديد من المؤلفات التاريخية والدينية وصلنا البعض منها بينما لم نعثر على البقية.

وإذا اطلعنا بدقة على تصانيفه التاريخية لرأينا أن ابن الديبع أرّخ خاصة لمواطنه زبيد مما يجعلنا نعتبره بحق «أنموذج المؤرخ المحلي» لكن هذا لا يعني أن مؤلفاته لا تهم جنوب وشرق الجزيرة العربية فنجد فيها بالعكس بعض إشارات وتلميحات من شأنها أن تعيننا على تكوين فكرة ولو عامة على تلك البلدان.

ومن ناحية أخرى فابن الديبع بقطع النظر عن مؤلفاته فهو شاهد عيان إزاء قضيتين هامتين آنذاك في القرن العاشر.

أولاً: مشكلة دخول الجراكسة إلى اليمن في آخر أيام بني طاهر وقضائهم على الدولة الطاهرية التي عاش في ظل آخر سلطان لها. وينبغي للمؤرخين المهتمين بتاريخه هاته الفترة أن يعتمدوا على ما قاله ابن الديبع حول هذا الحدث الهام.

ثانياً: عاصر كذلك ابن الديبع الدولة الزيدية التي كانت تحكم قسماً هاماً من اليمن منذ سنة (284 ـ 958) ومن المعلوم أن موقفه آزاء الزيديين لمن الأهمية بمكان خاصة وأنه كان شافعي المذهب بينما كان الزيديون شيعة ثم أنه زبيدي منحاز نوعاً ما إلى النظام الطاهري الذي يزعم أنه يمت بصلة إلى الأمويين.

بقي لنا قبل أن نتم الكلام حول ابن الديبع أن نشير ولو بإيجاز إلى مراجعه التاريخية التي اعتمد عليها لوضع مؤلفاته ـ فمن جملة المؤلفين الذين ذكرهم لنا

في مقدمة تآليفه نشير إلى الجندي ـ ابن عبد المجيد ـ الخزرجي ـ عمارة اليمني ـ ابن سعرة ـ الأهدل ـ ابن المجاور ـ البيهقي ـ الشريف إدريس إلى غير ذلك ـ وهذا يعني أن مؤلفاته التاريخية يمكن لنا أن نأخذها بعين الاعتبار إلى حد ما خاصة فيما يخص القرنين التاسع والعاشر اللذين أعطانا عنهما أخباراً أكثر تفصيلاً ودقة من القرون الأخرى.

وعلى العموم يمكن القول أن ابن الديبع والخزرجي اللذين أخذناهما على سبيل المثال في حديثنا عن شخصية المؤرخين بالرغم من أهمية المؤلفات التي خلفاها لنا فلا ننسى أنهما ينتميان إلى «طبقة» معينة ألا وهي الطبقة الأرستقراطية ـ ونفس الملاحظة تتعلق بعدة مؤلفين ومؤرخين آخرين ـ ثم أن لهما نزعات شخصية ومواقف طبقية لا ينبغي علينا أن نتجاهلها خاصة إذا أردنا دراسة بعض قضايا مثل «الحركات الشعبية» أو الحركات الثورية التي قامت في جنوب الجزيرة منذ القرن الأول والثاني ونعني بالخصوص الخوارج ـ القرامطة ـ العلويون.

كذلك أن مواقفهما السياسية والدينية ـ وهذا يتعلق أيضاً ببقية المؤلفين المذكورين آنفاً ـ من الواجب على الباحث أن يدققها إذا أراد إظهار الحقيقة التاريخية غير المشوهة.

* * *

ومهما يكن من أمر فأن معرفة كل المخطوطات التي كنا بصدد تقديمها والتعليق على محتواها وعلى مؤلفيها من شأنها أن تدعم معرفتنا لأطوار معينة من تاريخ جنوب الجزيرة العربية في العهد الإسلامي ـ كما تمكننا من سد بعض الفراغ في تاريخنا وحضارتنا بصفة عامة.

المراجع والمصادر

أولاً: المراجع والمصادر العربية:

- أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي القاهرة 1974.
- عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب بيروت 1960.
- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين (15) جزء دمشق 1957 ـ 1961.
- الزركلي، الأعلام خمسة عشرة جزء القاهرة 1954 ـ 1959.
- حاجي خليفة، كشف الظنون/ جزءان.
- إسماعيل باشا، هدية العارفين جزءان إستانبول 1951 ـ 1955.
- عبد الله محمد الحبشي، مراجع تاريخ اليمن دمشق 1972.
- أحمد حسن شرف الدين، تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن القاهرة 1968.
- حسن سليمان محمود، تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي بغداد 1969.
- القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، أضواء على مؤلفات الخزرجي. مجلة المؤرخ العربي عدد 4.
- با مخرمة، تاريخ ثغر عدن ليدن 1936 انظر كذلك طبعة بغداد بالأوفست.
- ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ليدن 1951.
- عمارة اليمني، «المفيد في أخبار صنعاء زبيد» انظر طبعة القاهرة 1967 و 1977.
- ابن الديبع، «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد» ـ انظر النسختين المخطوطتين بمكتبة باريس تحت رقمي 5897، 6069.
- «أحسن السلوك في نظم من ولى زبيد من الملوك» ـ انظر المخطوطتين رقم 5833، 6069 بباريس.
- «قرة العيون في أخبار اليمن الميمون». انظر المخطوطتين رقم 6058، 5821 بمكتبة باريس.

- ابن عبد المجيد، «بهجة الزمن في تاريخ اليمن». انظر مخطوطة باريس رقم 5977.
- الرازي، «تاريخ صنعاء اليمن». راجع مخطوطتي باريس رقم 1643، 5824.
- الجندي، «كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك» ـ مخطوطة باريس رقم 2127.
- الأشرف الرسولي، «كتاب طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب» دمشق 1949.
- يحيى بن الحسين، «غاية الأماني في أخبار القطر اليماني». جزءان القاهرة 1968. تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- DE SLANE: Catalogue des manuscrits arabes de la B.N. Paris 1883.
- E. BLOCHET: Catalogue des manuscrits arabes des nouvelles acquisitions Paris, 1929.
  Supplément du Catalogue des manuscrits arabes.
- BROCKELMANN: G.A.L. Leiden - 2 Vol. I (1943) II (1949). Supplément. I (1937) II (1938) - III (1942).
- S. LANE. POOLE: Mohammaden dynasties. Paris, 1925.
- Encyclopédie de l'Islam, Voir les articles Yemen et Zabid (A.E) Ibn al Dayba' etc... (N.E.).

المؤرخ العربي

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد ـ العراق

العدد الحادي عشر

مراحل تاريخ الهلالية في المشرق:

مسار قبائل بني هلال وبني سليم من الحجاز ونجد إلى إفريقية والمغرب

لا شك أن دراسة القبائل العربية في جزيرة العرب من حيث مواطن إقامتها وطريقة عيشها ومساهمتها في الحياة السياسية ـ خاصة في الفترة الإسلامية الأولى ـ موضوع هام جداً ـ كما أن تقصي حركات هذه القبائل وكيفية تسربها ثم تدفقها خارج الجزيرة العربية يسمح لنا بإبراز دورها الفعال في نشر الإسلام وترويج اللغة العربية في كامل أنحاء الامبراطورية الإسلامية سواء في الفترة الأموية أو العباسية أو الفاطمية.

هذا ومن بين القبائل التي استقطبت أنظار الباحثين من مؤرخين وعلماء اجتماع ولغويين نذكر بصفة خاصة قبائل بني هلال وبني سليم التي اندمجت في حركة واسعة النطاق نقلتها من نجد والحجاز ـ مواطنها الأصلية قبل الإسلام ـ إلى إفريقية والمغرب عبر مصر وطرابلس فيما بعد.

وبطبيعة الحال فأن المؤرخين كرسوا اهتماماتهم بصفة خاصة لموضوع هجرة هاته القبائل(1) وقد تحورت تساؤلاتهم حول أسباب تلك الهجرة وعن

---

(1) انظر خاصة أشغال A. CARETTE Recherches sur l'origine et les migrations des tribus de l'Afrique Septentrionale - Paris 1853.

-E. MERCIER Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale. Paris - Constantine - 1875.

- Histoire de l'Afrique Septetrionale depuis les temps les plus anciens jusqu'à la = conquête Française. 3 Vol. Paris 1888.

العوامل التي تقف وراءها.

وفيما يتعلق ببني هلال وبني سليم فأن المشكلة الأساسية - في نظرنا - هي تحديد مراحل هجرتهم وإبراز خاصيات كل مرحلة من تلك المراحل، ثم محاولة تفسير تلك التنقلات مع ذكر العوامل المختلفة التي ساهمت في تلك الحركية وخاصة منها العوامل الاقتصادية التي لم تحظ بالاعتبار إلى حد الآن من طرف المؤرخين.

ما هي إذن مراحل تاريخ الهلالية؟ وما هي مميزات تنقلات بني هلال وبني سليم؟

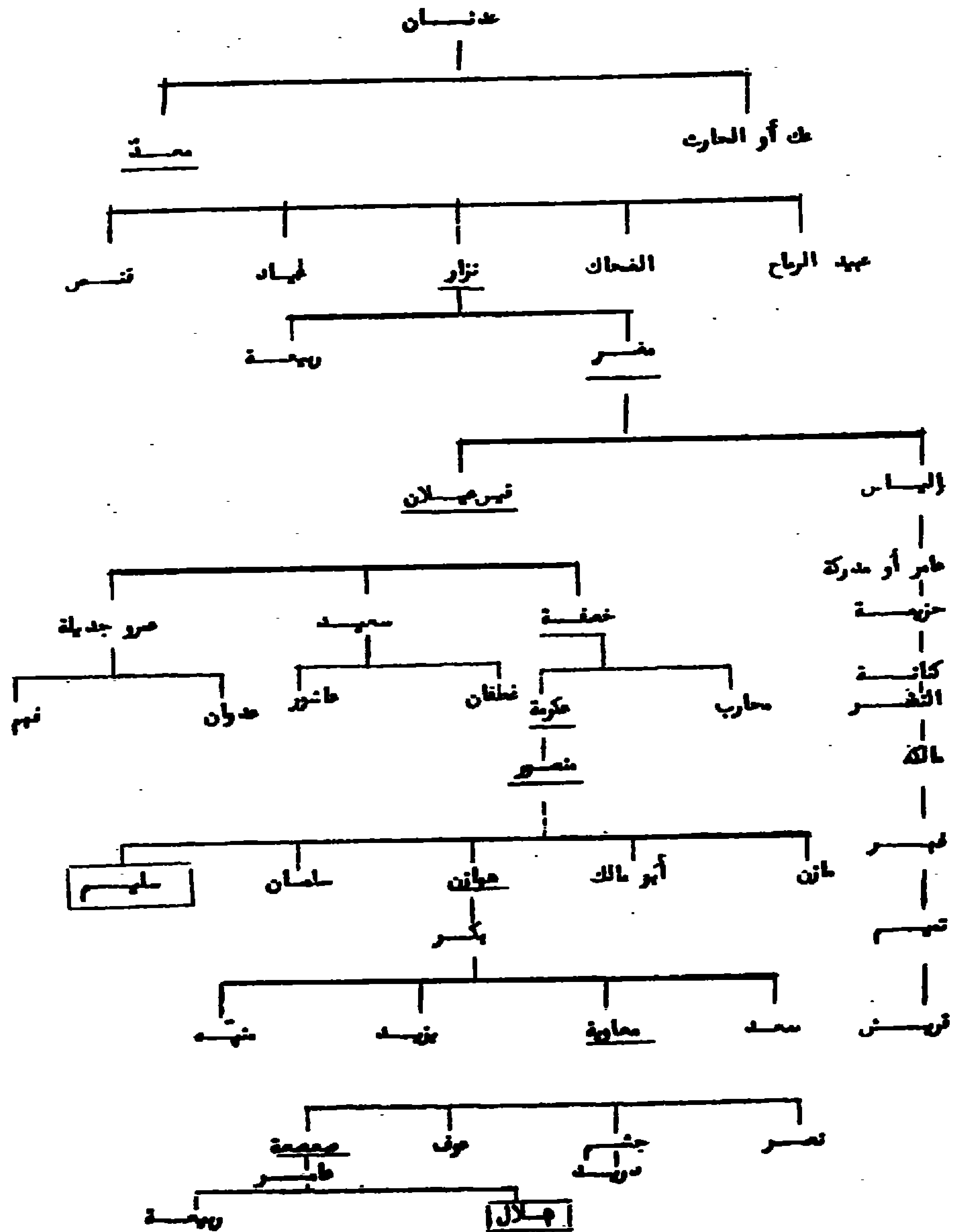
نريد أن نذكر - قبل كل شيء - أن بني هلال وبني سليم قبائل تنتمي إلى الفرع العدناني الشمالي (ما يسمى بعرب الشمال) وقد ذكرها ابن خلدون وأبو الفداء ضمن القبائل المسماة «العرب التابعة للعرب»[1] وهي الطبقة الثالثة من العرب - بينما اعتبرها القلقشندي من طبقة «العرب المستعربة»[2].

ومهما يكن من أمر فأن النسابين العرب[3] يقسمون الأنساب إلى عدة طبقات وفروع. أولاً الشعب ثم القبيلة (وهي قسم من الشعب) ثم العمارة (وهي جزء من القبيلة) ثم البطن (وهو فرع من العمارة) والفخذ (وهو فرع من البطن)

=
- G. MARCAIS Les Arabes en Berbérie du XI^{e} au XIV^{e} S. Paris 1913.
-(G. MARÇAIS) Le Arabes en Berbérie du XI^{e} S. au XIVe S. Paris 1913.
- H.R.IDRIS, La Berbérie Orientale sous les Zirides aux Xè - XIII^{e} S. 2 Vol, Paris 1962.
-(Ch. A. JULIEN) Histoire de l'Afrique du Nord, 2è édition, Paris, 1966.

(1) ابن خلدون: كتاب العبر: طبعة بيروت - 7 أجزاء 1966 انظر 1: 494. أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر - 4 أجزاء - القاهرة.
(2) القلقشندي: نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب - القاهرة 1959 ص 11 و 12.
(3) من جملة النسابين المشهورين نذكر خاصة ابن حزم:- جمهرة أنساب العرب - القاهرة - 1948 - المبرد: نسب عدنان وقحطان. الهند 1936 - ابن دريد: الاشتقاق - القاهرة - 1958 - مصعب الزبيري: نسب قريش - القاهرة. 1953 - الزبير بكار - النسب - القاهرة 1961.

شجرة نسب العدنانيين



المصادر: ابن خلدون ـ ابن حزم

وأخيراً الفصيلة (وهي فرع من الفخذ) والعشيرة[1].

فبنو سليم ينتسبون إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر بن عدنان ويشكلون إذن بطنا[2].

أما بنو هلال فنسبتهم إلى هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن محمد بن عدنان ويكونون بذلك عشيرة[3].

هلال وسليم هم إذن من سلالة واحدة كما يتجلى لنا من خلال هذا الرسم البياني الذي يمثل شجرة نسب العدنانيين[4].

وقد كانوا مستقرين في نجد قبل أن ينتشروا في عدة مواطن من الدولة العربية الإسلامية. ولذلك رأينا من المفيد أن نذكر بأهم مراحل تنقلاتهم.

ينقسم تاريخ الهلالية في المشرق إلى ثلاث مراحل أساسية:

ـ المرحلة الأولى وقد سميناها «مرحلة الجزيرة العربية» (نجد والحجاز) وهي تطابق النصف الأول من القرن الأول للهجرة.

ـ المرحلة الثانية التي توافق هجرتهم إلى مصر في عهد الدولة الأموية وبالأحرى في بداية القرن الثاني للهجرة: وهي «المرحلة المصرية».

---

(1) القلقشندي ـ سبق ذكره: 11 و 12.

(2) راجع ما جاء في ابن حزم ـ سبق ذكره ـ 249 وما بعدها. القلقشندي ـ سبق ذكره ـ 294. ابن خلدون ـ العبر: 3: 141. المقريزي: البيان والإعراب عمن نزل مصر من الأعراب ـ القاهرة: 1961 ص 65.

(3) انظر القلقشندي ـ سبق ذكره: ص 443 و 444 ابن حزم ـ سبق ذكره: 261 و 262 ـ ابن خلدون ـ العبر 2: 643. ابن دريد: سبق ذكره: ص 60. المقريزي ـ سبق ذكره: ص 28.

(4) تمكنا من وضع هاته الشجرة معتمدين خاصة على ابن حزم سبق ذكره ـ ص 216 وما بعدها ـ ابن خلدون ـ سبق ذكره. ص 616 وما بعدها خاصة ص 650.

ـ المرحلة الثالثة: مرحلة انتشارهم وتفرقهم في الشام والعراق ومصر وذلك خلال الفترة العباسية والفاطمية أي في القرون: الثالث والرابع والخامس للهجرة (التي تقابل القرون التاسع والعاشر والحادي عشر للميلاد).

ـ هناك مرحلة أخرى رابعة لا تقل أهمية عن المراحل الشرقية الأولى وهي ما تسمى «بتغريبة بني هلال» أو هجرتهم إلى الغرب (أي أفريقية والمغرب).

سنحاول الآن ذكر أهم مميزات كل مرحلة من هاته المراحل مع تقديم بعض المعطيات من أسلوب عيش بني هلال وبني سليم بما في ذلك مواطن نزولهم وتنقلاتهم الموسمية وسنسلط من ناحية أخرى الأضواء عن علاقاتهم مع الدولة الإسلامية التي أنشأها الرسول في المدينة.

1 ـ «مرحلة الجزيرة العربية»:

كان بنو هلال وبنو سليم مقيمين ـ منذ الجاهلية ـ في نجد[1] وهي منطقة كثيرة الأودية والهضبات اشتهرت باعتدال مناخها وندرة أمطارها[2].

وقد ذكر لنا ابن خلدون في تاريخه أن قبيلة عامر بن صعصعة تقطن في السهل الذي يفصل بين الطائف وجبل غزوان[3].

وكان بنو هلال يملكون عدة بقاع مثل عبلة، بريق، دومي، الكريخة، غروش، مران، سريحة، ذريحة، وعكاظ. ولهم كذلك عدة أودية مثل وادي تربة، وادي جيدان ووادي غنية. وجبال مثل جبل بيش والكفاء ونقط ماء

---

(1) ياقوت الحموي. كتاب معجم البلدان ـ طبعة ليبزيق ـ 1866 4: ص 745 و 746 ـ يقول عنها «نجد هي قفاف الأرض وصلابها وما غلظ منها وأشرف»، «نجد هو اسم العريضة التي أعلاها تهامة اليمن وأسفلها العراق والشام..».

(2) انظر ابن جبير ـ رحلة ـ طبعة باريس 1949 ـ 2: ص 234.
ابن بطوطة ـ رحلات ـ طبعة باريس 1968 ـ 4 أجزاء ـ 1: 407.

(3) ابن خلدون: كتاب العبر. 6: 27 ـ عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب. المطبعة الهاشمية. دمشق. 3 أجزاء ـ 1949. انظر 3: 1222 ـ 1221.

كالبراذان وأخيراً لهم قرى ذات وزن مثل قرية بيشة[1].

ومما يذكر كذلك أن تلك القبائل الهلالية كانت في أغلبها قبائل بدوية ظاعنة تمتد منطقة تنقلاتها ما بين البصرة ومكة من ناحية وما بين مكة ويثرب من ناحية أخرى[2].

أما بنو سليم فكانوا يسكنون عالية نجد قرب خيبر في أماكن تسمى الحرة مثل حرة بني سليم وحرة النار تقع معظمها في الحجاز وكانوا يملكون معادناً وجبالاً مثل الإثم وعدون ونقط ماء مثل أثال وواحات كالربذة وفران ومعادن البرم وصفينة والسوارقية[3].

وقد جاء ذكر بعض المسلمين في يثرب وذلك بجوار القبائل اليمنية واليهود[4].

وفيما يتعلق بطريقة عيشهم فأن بني هلال كانوا ـ منذ العصر الجاهلي ـ بدوا رحلا وكانت تنقلاتهم التي تعزى خاصة إلى بحثهم الدائب عن المراعي التي تحتاجها مواشيهم واسعة النطاق. وربما «كانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام»[5].

أما بنو سليم فقد كانت رئاستهم في الجاهلية ـ على حد قول ابن خلدون ـ لبني الشريد بن رياح بن ثعلبة بن عطية بن خفاف بن امرىء القيس بن بهنة بن

---

(1) انظر ياقوت: معجم البلدان لمعرفة كل هذه المواضع ـ كحالة: معجم 3: 1221 وما بعدها.

(2) ياقوت: معجم البلدان: 4: 479.

(3) انظر:

-(H. LAMMENS Le Berceau de L'Islam - l'Arabie Occidentale à la veille de l'Islam - Rome, 1914, p. 99.

كحالة: سبق ذكره: 2: 546 ـ 543.

(4) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ بيروت، 1971: 288 حيث يذكر لنا ابن النجار ـ الدرة الثمينة: 325.

(5) ابن خلدون: العبر: 6: 27 وما بعدها.

سليم، وعمرو بن الشريد عظيم مضر وأبناؤه صخر ومعاوية[1]. وكانوا يتعاطون بصفة خاصة تربية الخيول وكثيراً ما كانوا يتوجهون إلى الأسواق والمعارض مثل البطحاء والصفاصف بهدف بيع ماشيتهم من خيل وإبل وغنم. كما أنهم كانوا يؤمون يثرب بقصد بيع زبيب الطائف وبعض المنسوجات القطنية والحريرية اليمنية وحنطة بلاد الشام[2].

ثم إنهم كانوا يتعاملون مع كل من يهود ـ يثرب والقريشيين بمكة مما يدل على أن العلاقات التجارية ـ آنذاك ـ كانت هامة بالنسبة لكل تلك القبائل السلمية. وسنرى ـ فيما بعد ـ أن بني سليم ـ شأنهم في ذلك شأن اليهود وقريش ـ سيعارضون بشدة الإسلام في بدايته. وهذا يرجع إلى انتشار الوثنية بينهم ـ ألم يكن بنو سليم يعبدون حجرة اسمها ضمر.

أما بنو هلال فأن المعطيات التي استقيناها من المصادر تفيدنا بأنهم كثيراً ما كانوا يشنون المعارك ضد القبائل المجاورة ـ وتندرج هذه المعارك القبلية ضمن ما يسميه المؤرخون «بأيام العرب».

ونذكر خاصة المعركة التي خاضوها ضد الأزد، ثم يوم الواطدة الذي خاضته كامل قبيلة عامر بن صعصعة ضد تميم، ثم يوم فجار وهو صراع بين هلال وهوازن من ناحية وقريش وكنانة من ناحية أخرى[3].

وسنرى أن هذا «الهيجان» (Turbulence) أن صح التعبير ـ سيظل ميزة أساسية من مميزات القبائل الهلالية فيما بعد سواء في الديار المصرية في عهد الدولة الأموية ـ أو في الحجاز أيام العباسيين أو في إفريقية فيما بعد.

نطرح الآن مسألة موقفهم إزاء المسلمين في بداية الأمر، ثم علاقاتهم مع الدولة الإسلامية في المدينة.

---

(1) المصدر نفسه: 6: 141 و 142.

(2) عبد العزيز سالم ـ نفس المصدر ـ ص 296 وقد ذكر لنا المؤلف أنه استقى هاته المعلومات من كتاب وفاء الوفاء للصمهودي 1: ص 544.

(3) انظر G. MARÇAIS سبق ذكره: ص 64 و 65. كحالة: سبق ذكره: 3: 1221.

عند ظهور الإسلام أظهر كل من بني هلال وبني سليم شيئاً من العداوة تجاه العقيدة الجديدة ـ وقد أدى بهم ذلك إلى حد مقاومة المسلمين والإسهام المباشر في المعارك التي خاضها أعداء الإسلام ضد النبي وأتباعه.

وأحسن دليل على ذلك ما ذكره لنا الطبري من حوادث تهم هذه القبائل في التصدي للديانة الجديدة.

ـ في شوال من سنة 3 للهجرة (فيفري 625) استطاع الرسول تشتيت السّلميين الذين كانوا يستعدون لغزوة المدينة[1].

ـ في سنة 3 كذلك (25 ـ 624) يذكر لنا الطبري واقعة تسمى «بكركرة الكدر» غزا فيها النبي كل من بني سليم وغطفان وقد كان على رأس هذه الغزوة غالب بن عبد الله الليثي[2].

في نفس السنة أيضاً تمكن الرسول ـ في واقعة بحران ـ من إيقاع الهزيمة بقريش وسليم[3].

ـ في صفر من سنة 4 (مايو 625) شارك بنو سليم في واقعة بئر معونة وتمكنوا من قتل أربعين مسلماً[4]. كما ساهموا في سنة 5 (626) في حرب الخندق وذلك إلى جانب ائتلاف قبلي هائل موجه ضد المسلمين ويضم كلاً من يهود بني نضير وبني قريظة المكيين وغطفان وقبائل بني مرة وفزارة وأشجع وبني أسد وبني سعد[5].

وهذا ما حدا بالمسلمين إلى القيام بغزوة يهود بني قريظة وإرسال سرية

(1) كحّالة: معجم: 2: ص 543 وما بعدها.
(2) انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك ـ طبعة ليدن دي خويه 89 ـ 1885 ـ 3: 1363.
هذا وقد ذكر لنا الطبري ثلاث روايات عن هاته الواقعة: رواية ابن حامد ـ ورواية الواقدي ورواية الطبري نفسه وهي أكثر دقة.
(3) المصدر نفسه: 3: 1364.
(4) المصدر نفسه: 3: 44 ـ 1443.
(5) عبد العزيز سالم ـ سبق ذكره: 387.

ضد بني سليم كان يتزعمها زيد بن حارثة ـ استطاعت أسر العديد من المسلمين ونهب مواضعهم[1].

وعلى العموم أن كل هذه الأحداث التي تحدث عنها الطبري بإسهاب تبين لنا ـ على الأقل في مرحلة أولى ـ مدى معارضة بني سليم الشديدة للمسلمين وللعقيدة الجديدة.

ومن بين أحداث سنة 6/627 التي ذكرها الطبري في تاريخه هناك حدث هام يتعلق بمشاركة ألف رجل من بني سليم إلى جانب قوات الرسول التي كانت بصدد ضرب القبائل المعادية للمسلمين[2].

إن هذا الحدث الفريد في نوعه ـ إلى حد الآن ـ لا يعني انضمام كل المسلمين إلى صف المسلمين لكنه يعطينا فكرة عن درجة الصراع القائم ـ آنذاك ـ بين محمدﷺ وبقية القبائل العربية من أجل بسط العقيدة الإسلامية في كافة أنحاء الجزيرة العربية.

ومما يؤكد لنا ذلك ما ذكره الطبري من أن بني سليم تمكنوا في شهر ذي القعدة من سنة 7 مارس 629 من القضاء ـ على حد قوله ـ على سرية تضم خمسين رجلاً كان يقودهم ابن أبي العوجاء[3]. كما أنهم ساهموا في معركة قديد سنة 8/630 ضد جيوش المسلمين[4]. وفي معركة حنين انتصر أتباع الرسولﷺ على ائتلاف يضم عدة قبائل نذكر من بينها هوازن، ثقيف، جشم، نصر، سعد بن بكر وبنو هلال[5].

وفي نفس الوقت الذي كان فيه بنو هلال وبنو سليم يعارضون المسلمين تذكر لنا المصادر أن بعض الجماعات ـ من سليم خاصة ـ قد شاركت في عملية

---

(1) الطبري: تاريخ: 3: 1555.
(2) انظر G. Marcais سبق ذكره: ص 64.
(3) الطبري: تاريخ: 2: 1997 و4: 1759.
(4) المصدر نفسه: 3: 1628.
(5) المصدر نفسه: 3: 1655 وما بعدها.

نشر الإسلام وإدخال القبائل الوثنية في الدين الجديد. وفي هذا الإطار يقدم لنا الطبري ـ في حديثه عن القبائل التي أسلمت ـ بعض المعطيات الرقمية: أربعمائة رجل من بني غفار، ألف رجل من مزينة، ألف وأربعمائة من جهينة وسبعمائة رجل من سليم.

إن فترة الرسولﷺ تعتبر إذن ـ بالنسبة للقبائل الهلالية والسلمية ـ فترة مواجهة وتصدي لإرادة سيطرة المسلمين عليها، سيطرة تحمل في طياتها الحد من حرياتها بما فيها حرية الديانة وحرية التنقل إلخ. . .[1].

فماذا كان موقف الهلاليين من الإسلام بعد موت الرسولﷺ؟

أثر موت محمدﷺ تراجعت عدة قبائل عن الإسلام وأججت عدة حروب ـ تسمى «بحروب الردة» ـ ضد أبي بكر الصديق. ومن بين تلك القبائل المرتدة عن الإسلام نذكر خاصة بني سليم وهوازن الذين استطاع طريفة بن حاجز ـبأمر من أبي بكر ـ إرجاعهم بالقوة إلى دائرة نفوذ السلطة المركزية بالمدينة[2].

غير أن بني هلال ـ رغم كل الاضطرابات التي قاموا بها آنذاك ـ لم يشاركوا في حركة الردة. فلعل ذلك مرده لتخوفهم من بطش جيوش أبي بكر بهم لا سيما وأن تلك الجيوش قد أثبتت مدى قدرتها على قمع كل الحركات التي قامت في الجزيرة مثل حركة الأسود العنسي في اليمن وحركة شجاع وطليحة وحركة مسيلمة باليمامة إلخ. . .[3].

ومهما يكن من أمر فأن القبائل الهلالية والسلمية في عصر الخلافة الراشدة قد فقدت المكانة التي كانت تتمتع بها سابقاً وأن لنا في قلة الأخبار الواردة عنها في المصادر أسطع دليل.

فالنزر اليسير من المعطيات الذي نعرفه عنها هو مشاركة أربعمائة رجل من

---

(1) المصدر نفسه: 3: 1647.

(2) المصدر نفسه: 4: 1891 وما بعدها.

(3) المصدر نفسه: 4: 1850، 1908، 1930، 1958 وما بعدها.

بني سليم في حركة فتح إفريقية وذلك في سنة 647/27[1] أي في عهد عثمان بن عفان وهذا الحدث يبرز مشاركة القبائل العربية بصفة عامة في حركة الفتوحات التي اتسع نطاقها في القرن الأول للهجرة.

كذلك جاء في أحداث سنة 656/36 أي في عهد علي بن أبي طالب أن جماعة من بني سليم على رأسها مجاشع بن مسعود السلمي قد شاركت في الحرب التي خاضها الخليفة علي ضد الثلاثي طلحة والزبير وعائشة[2]. كما شارك فيما بعد في سنة 679/60 على وجه التدقيق بعض السلميين في حركة الحسين بن علي الموجهة ضد النظام الأموي[3]. ثم أن بني سليم آزروا أهل المدينة وآووهم في حربهم أثناء صراعهم ضد جيوش بني أمية التي أرسلت ضدهم تحت قيادة يسر بن أرطأة[4].

فالسؤال المطروح إذن هو لماذا ساند بنو سليم وبنو هلال العلويين أيام علي ثم بعد موته؟ هل أن تلك المساندة تعبر عن اقتناعهم بالمبادىء العلوية؟ أم هل هي مساندة مرحلية موجهة ضد النظام الأموي؟.

إن المصادر المتوفرة لدينا لا تسمح لنا بالإجابة بصفة نهائية عن هذه الإشكالية التي تطرح نفسها بالنسبة للقرن الرابع أيضاً حيث ساند بنو سليم وبنو هلال القرامطة في حركتهم وانتفاضاتهم ضد الدولة العباسية. أما ما يتعلق بأخبار بني هلال وبني سليم في النصف الثاني من القرن الأول فأن جدب المصادر يجعل من المستعصي معرفة الشيء الكثير.

فهذا ابن خلدون مثلاً يفيدنا بأن بني هلال استقروا في الشام والعراق في

---

(1) أبو العرب الخشني ـ كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس ـ طبعة الجزائر 1914: 14. المالكي ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ـ طبعة القاهرة 1951 ص 10.

(2) الطبري ـ تاريخ: 6: 3179.

(3) المصدر نفسه: 1: 286.

(4) أبو الفرج الأصفهاني ـ كتاب الأغاني: طبعة القاهرة 1904 ـ 4: 131.

موقع يسمى «بديار مضر» إلى أن شدوا عصا الترحال نحو إفريقية[1] وأننا لا نجانب الصواب كثيراً إذا قلنا أن ذلك يدل على بداية نزوع هذه القبائل نحو الاستقرار بعد أن كانوا بدواً رحلاً في العهد الجاهلي وبداية الفترة الإسلامية.

إن المرحلة الأولى من تاريخ بني هلال وبني سليم تمتاز إذن بثلاث سمات:

- ثرائهم في الجاهلية.
- معارضتهم الشديدة للدين الجديد في عهد الرسول.
- ثم دخولم في الإسلام واستقرارهم النسبي بعد ذلك.

2 ـ المرحلة المصرية:

بدأت هذه المرحلة في الحقيقة ـ في سنة 109/727 عندما وقع الإيعاز للقبائل السليمية بالإنتقال من الحجاز ونجد إلى الديار المصرية في عهد هشام بن عبد الملك.

ولدينا نصان هامان يتضمنان معلومات دسمة عن تلك الهجرة: نص أورده الكندي في كتاب الولاة[2] ونص آخر أورده المقريزي في كتاب الخطط[3].

جاء في نص الكندي[4] : «إن عبيدالله ابن الحبحاب لما ولاه هشام مصر قال: ما أرى لقيس فيها حظاً إلا لناس من جديلة وهم فهم وعدنان» فكتب إلى هشام: «إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحي من قيس ونعشهم

---

(1) ابن خلدون ـ كتاب العبر: 2: 644.

(2) الكندي هو مؤرخ وفيلسوف عاش مخضرماً بين القرنين الثالث والرابع للهجرة (287ـ350/897ـ961). انظر دائرة المعارف الإسلامية: 1: 1079 ومن جملة مؤلفاته كتاب الولاة ـ انظر طبعة ليدن 1972ـ ص 75 و 76.

(3) المقريزي غني عن التعريف. انظر كتابه الخطط ستة أجزاء ـ طبعة القاهرة 1959 ـ 2: 323.

(4) الكندي ـ سبق ذكره: ص 75 و 76.

ورفع من ذكرهم وإني قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظاً إلا أبياتاً من فهم وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ولا يكسر ذلك خراجاً وهو بلبيس فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحي من قيس فليفعل». فكتب إليه هشام: «أنت وذلك»[1] فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بني مضر[2] ومائة أهل بيت من بني عامر ومائة أهل بيت من أفناء هوازن ومائة أهل بيت من بني سليم فأنزلهم بلبيس[3] وأمرهم بالزرع ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم فاشتروا إبلاً فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم وكان الرجل يصيب في الشهر عشرة دنانير وأكثر وأقل وأمرهم باشتراء الخيول. . . ».

وقد ذكر لنا المقريزي[4] من ناحيته أن القيسيين قدموا مصر سنة 727/109 أيام كان الوليد بن رفاعة بن خالد بن ثابت بن طائع الفهمي والياً عليها[5]. وكان الخليفة هشام قد سمح للوليد أن ينقل ثلاثة آلاف من قيس وينقل ديوانهم إلى مصر بشرط ألا يستوطنوا بالفسطاط. ولذلك وقع توطينهم بالحوف الشرقي[6]. وقد أكد لنا هذا الحدث ابن تغري بردى في كتابه النجوم الزاهرة[7].

وقد أصبح القيسيون بعد استقرارهم وإقامتهم في مصر يعملون كجمالين

---

(1) جاءت هاته الجملة (أنت ورأيك) عند المقريزي **الخطط** ـ 2: 143 و 144.

(2) جاء في **الخطط**: 2: 144: «من بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن».

(3) بلبيس هي بلدة تقع على بعد عشرين ميلاً من الفسطاط. انظر **الخطط**: 202: 323 ـ ياقوت: **البلدان**: 1: 712.

(4) **الخطط**: 1: 143 ـ **البيان** . . . 65.

(5) كان الوليد والياً على الصلاة في زمن هشام بن عبد الملك ـ انظر الكندي: **كتاب الولاة**: 75.

(6) الحوف الشرقي هو جهة من جهات مصر يبدأ من ناحية الشام بينما ينتهي الحوف الغربي قرب دمياط ـ **البلدان** ـ سبق ذكره 1: 322.

(7) ابن تغري بردي ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ـ طبعة ليدن 1852 و 1909 جزءان ـ انظر 2: 265.

في النشاط التجاري الذي يربط بين الفسطاط والقلزم[1] ويتلقى كل منهم عشرة دنانير.

هذا وقد ذكر لنا الكندي أن القيسيين ـ بما فيهم السلميين ـ قد توصلوا إلى شراء الخيول وتمكنوا من إعلاف إبلهم وخيلهم بدون صعوبة وذلك لجودة مراعيهم[2].

لا شك أن توطين المجموعات القبلية القيسية في مصر في بداية القرن الثاني للهجرة كانت له انعكاسات هامة على المجموعات الأخرى التي بقيت قابعة بالجزيرة حيث شظف العيش. وهذا مما أدى بتلك المجموعات إلى مغادرة البادية والنزوح إلى مصر حيث استوطنت بجوار قومها. فأصبح عدد أهالي البيوت القيسية ـ حسب الأرقام التي ذكرها المقريزي[3] ـ ألف وخمسمائة أهل بيت عند موت هشام. ثم تكاثر هذا العدد فبلغ ثلاثة آلاف أهل بيت عند وفاة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أُمية[4] وقد جاء ـ حسب رواية الهيثم بن عدي ـ أن هذا العدد أصبح يناهز الخمسة آلاف وذلك في عهد ولاية محمد بن سعيد على مصر[5].

إن المصادر ـ رغم اختلاف الأرقام التي جاءت بها ـ تؤكد بصفة لا يتسرب إليها الشك ـ أهمية المجموعات القيسية التي نقلت عن بادية الحجاز إلى بلبيس بمصر في عهد الدولة الأموية[6].

---

(1) الخطط: 2: 375.

(2) الولاة ـ سبق ذكره. ص 75 و 77.

(3) المصدر نفسه: ص 77.

(4) تكاثر هذا العدد أيام ولاية الحوثرة بن سهيل الباهلي وهو والي مصر في زمن مروان الثالث من سنة 128 إلى سنة 131. الولاة: 77 و 88 و 92.

(5) محمد بن سعيد هو صاحب خراج مصر أيام خلافة المنصور أي سنة 153 هـ. المصدر نفسه: 88 و 92.

(6) يذكر لنا المقريزي في الخطط: 1: 143 والبيان: 65 رقماً واحداً: ثلاثة آلاف ـ بينما يقدم لنا ابن عبد الحكم، انظر: فتح مصر وإفريقية والأندلس: (طبعة ليدن 1920: =

غير أن أسباب النقلة القسرية لهذه القبائل لم ترد بصفة دقيقة في تلك المصادر.

فهل يعبر قرار هشام بنقل بعض القبائل القيسية من الجزيرة العربية إلى مصر عن رغبة الأمويين في تعمير منطقة بلبيس بالسكان والنهوض بها وبالتالي استخلاص الضرائب وتنظيم الدفاع عنها في حالة قيام بعض الحركات السياسية - مثل ثورة الأقباط سنة 107/ 725 - ضد الحكم المركزي[1].

أم هل أنه قرار سياسي أراد به الأميون وضع حد لتكاثر العناصر القحطانية في تلك الجهة وإقامة نوع من التوازن العددي بين عرب الشمال وعرب الجنوب[2]؟

هنالك تفسير آخر يقدمه المقريزي في حديثه عن جهة بلبيس التي كانت -قبل قدوم عبيد الله بن الحبحاب وقبل قراره بجلب القبائل القيسية من بادية الحجاز وتوطينها هناك - جهة لا يلعب فيها العنصر العربي - على حد قوله - دوراً كبيراً ولم ينتشر فيها الإسلام بصفة شاملة قبل القرن الثاني.

إن كل هذه المعطيات لا تتناقض فيما بينها وقد تكون شاركت بأحجام متفاوتة وبصفة تدريجية في إرساء «الوقائع الاستيطانية» للقبائل العربية. لكننا نضع قرار هشام في إطار عام ألا وهو تدعيم الحكم الأموي في كل الجهات المفتوحة - بما فيها مصر - بالاعتماد على العناصر العربية التي كانت - آنذاك - لا

= ص 120) رقمين: ألفان وخمسة آلاف.

(1) هذا تفسير جاء به خاصة المستشرق الفرنسي G. Wiet في كتابه: «L'Egypte arabe» Histoire de la nation Egyptienne, Paris, 1937 انظر 4: 57.

(2) هذا رأي محقق كتاب البيان للمقريزي السيد عابدين - (انظر ص 100) وهو تفسير يمكن أن نأخذ به لا سيما وأن الأمويين كانوا قد تصدوا لمثل هاته الصراعات القبلية خاصة أثناء معركة مرج راهط التي دارت بين العناصر الكلبية والعناصر القيسية في سنة 65/684 - انظر عبد العزيز الدوري. مقدمة في تاريخ صدر الإسلام - بيروت 1961 ص 64 و 65.

تنعم بظروف معيشة مريحة في الجزيرة العربية. وهي العناصر المنتمية إلى بني سليم بصفة خاصة.

وهكذا يكون الأميون قد برهنوا على قدرتهم على قمع الحركات الانتفاضية التي قامت في مصر (ثورة الأقباط مثلاً) وفي غيرها من البلدان المفتوحة (نذكر كذلك ثورة البربر في إفريقية) وعلى فرض الضرائب واستخلاصها بكل السبل.

بقي لنا أن نذكر أن مجموعات سلمية وهلالية هامة ما زالت تعيش ـ آنذاك ـ في الجزيرة وتقوم بتنقلات واسعة النطاق في الشام والعراق بهدف البحث عن وسائل عيش ملائمة لها ولمواشيها.

3 ـ بنو هلال في الفترة العباسية والفاطمية:

تمتاز المرحلة الثالثة لتاريخ بني هلال وبني سليم بتفرق هذه القبائل وتشتتها في كل من الشام والعراق والجزيرة ومصر وقد تورطت المجموعات الهلالية والسلمية في قلاقل عديدة طوال الفترة العباسية والفاطمية دفعت بعض الخلفاء إلى مراقبتها عن كثب ومقاومتها بكل شدة إذا لزم الأمر.

فقد نقل لنا ابن خلدون أن بني سليم كثيراً ما كانوا «يغيرون على المدينة» ويهاجمون قوافل التجار والحجاج المتجهة إلى الحرم الشريف بهدف النهب والسبي[1] وقد بلغ الحذر والتخوف من هذه القبائل إلى درجة أن الخليفة المنصور أوصى لولده وخليفته المهدي «ألا يستعين برجل من بني سليم»[2] ـ كما أن أحد الخلفاء العباسيين ـ لم يذكر لنا ابن خلدون[3] اسمه ـ أوصى من جهته ابنه ألا يصاهرهم.

إن مثل هذه النوادر التي نقلتها لنا المصادر تؤكد بكل وضوح أن العباسيين

(1) ابن خلدون ـ العبر 6: 141.
(2) الطبري ـ تاريخ: 10: 444.
(3) ابن خلدون: سبق ذكره: 6: 142.

كانوا يكنون ضغينة كبيرة للعناصر السلمية نظراً لما كانت تقوم به من أعمال نهب وتطاول على المسافرين والحجاج في مواسم الحج. لكن الواضح هو أن الطبري وفي أعقابه ابن الأثير وابن خلدون قد بالغوا في سرد الأحداث التي تركز على الجوانب السلبية «لمسلكية» قبائل بني هلال وبني سليم. إن الواقع الموضوعي يقر بأن أسلوب عيشهم هذا ليس إلا دليلاً قاطعاً على مدى صعوبة ظروفهم الحياتية في الحجاز لا سيما وأن نمط الحياة البدوي الذي ما زالوا منطوين تحت لوائه لا يمكنهم بالمرة من الحصول على موارد معاشية تفي بحاجياتهم اليومية.

فلا نباغت إذن حين يعلمنا ابن خلدون أن بني سليم كانوا يتنقلون مع ماشياتهم في صحارى الحجاز بحثاً عن المراعي[1] وكثيراً ما كانت تؤدي هذه التنقلات بهم إلى حدود العراق والشام.

غير أن النظام العباسي لم يبق مكتوف الأيدي أمام أعمال النهب التي كان بنو سليم يقومون بها ضد المسافرين والقبائل المجاورة لهم ـ نذكر خاصة غارتهم على قبيلتي كنانة وباهلة في جمادي الآخرة من سنة 230/ فيفري ـ مارس 844[2]. فقد أرسل والي المدينة آنذاك ـ محمد بن صالح بن العباس الهاشمي[3] بسرية تتركب من الجيش النظامي وبعض العناصر من قريش والأنصار للتصدي لتلك الأعمال ـ لكن السلميين ـ الذين كانوا تحت قيادة أشهب بن دويكل بن يحيى بن حمير العوفي وعزيزة بن قطاب السلمي اللبيدي وقد كان عددهم ستمائة وخمسين رجلاً بالإضافة إلى خمسمائة رجل، قدموا مدداً لنجدتهم ولهم كذلك مائة وخمسين فرساً ـ تمكنوا من قتل حماد بن جرير

---

(1) المصدر نفسه.

(2) الطبري: 10: 36 ـ 1335 ـ ابن تغري بردي ـ النجوم الزاهرة: 2: 257.

(3) كان محمد بن صالح هذا والياً على المدينة منذ سنة 843/229 إلى حد سنة 847/233 انظر:

- ZAMBAUR Manuel de Généologie et de Chronologie pour l'histoire de l'Islam - Ha novre, 1927.

الطبري قائد الجيش ومن إلحاق الهزيمة بقواته ثم الحصول على غنيمة هائلة من كراع وثياب وسلاح. كما أنهم نهبوا بعد ذلك كل القرى الواقعة بين المدينة ومكة وقطعوا الطرق الرابطة بين الحرمين الشريفين[1].

وأمام هذا الوضع المضطرب، قرر الخليفة الواثق أن يوجه إليهم قائده التركي بغا الكبير أبا موسى وفعلاً قدم بغا في الشاكرية والأتراك والمغاربة في شعبان سنة 230 ودارت المعركة في شق الحرة وراء السوارقية... فقتل بغا من بني عوف وهو من بني سليم نحواً من خمسين رجلاً وأسر مثلهم فانهزم الباقون وانكشف بنو سليم لذلك. ثم دعاهم بغا إلى الأمان على حكم أمير المؤمنين الواثق وأقام بالسوارقية حيث احتبس عنده ما يقارب ألف رجل ثم رحل قاصداً المدينة في ذي القعدة من نفس السنة مصحوباً بأسارى بني سليم ومستأمنيهم. فحبسهم في الدار المعروفة بيزيد بن معاوية. ثم قصد مكة للحج فلما انقضى الموسم انصرف إلى ذات عرق، ووجه إلى بني هلال من عرض عليهم مثل الذي عرض على بني سليم فأقبلوا فأخذ منهم نحواً من ثلاثمائة رجل وخلى سائرهم ورجع من ذات عرق وهي على مرحلتين من المدينة»[2].

وفي سنة 845/231 يذكر لنا الطبري[3] أن المحبوسين من بني هلال وبني سليم - وعددهم ألف وثلاثمائة رجل - «نقبوا الدار ليخرجوا فرأت امرأة من أهل المدينة النقب، فاستصرخت أهل المدينة فجاءوا، فوجدوهم قد وثبوا على الموكلين بهم، فقتلوا منهم رجلاً أو رجلين، وخرج بعضهم أو عامتهم، فأخذوا سلاح الموكلين بهم، واجتمع عليهم أهل المدينة فمنعوهم من الخروج، وباتوا محاصريهم حول الدار حتى أصبحوا... ولم يزل أهل المدينة يتعقبون القتال وقاتلتهم بنو سليم، فظهر أهل المدينة عليهم فقتلوهم أجمعين». بما فيهم

---

(1) يسمى هذا الموضع الذي دار فيه القتال بين حماد وبني سليم الرويثة وهو يقع على ثلاثة مراحل من المدينة - انظر الطبري: 10: 1336 وقد انهزم أصحاب حماد وقتل هذا الأخير أثناء المعركة.

(2) انظر الطبري: تاريخ: 10: 1338 وما بعدها.

(3) المصدر نفسه.

عزيزة قائدهم. «وصفت القتلى على باب مروان ابن الحكم بعضها فوق بعض».

إن هذا الخبر المطول الذي نقله لنا الطبري في تاريخه عن بني سليم وأكده فيما بعد ابن الأثير ـ رغم طابعه النوادري ـ من شأنه أن يبرز لنا النقط التالية:

ـ تمرد العناصر السلمية ضد الحكم العباسي وممثليه في الحجاز.

ـ مواصلتهم لأعمال النهب ضد المسافرين والحجاج وأهل المدينة.

ـ تباطؤ الخلفاء العباسيين في ضربهم لوضع حد لشغب أصبح يكوّن خطراً على الاستقرار والأمن في الحجاز وتطاولاً على الدولة.

ومهما يكن من أمر فأن سياسة بني العباس إزاء القبائل العربية بصفة عامة ـ بما في ذلك بنو هلال وبنو سليم ـ تمتاز بالشدة ـ بعكس سياسة بني أمية المرنة ـ لكن هذه الشدة لم تمنع الأعراب من مواصلة أعمال العنف والتطاول على الناس طوال القرن الرابع.

وفعلاً سنراهم يشاركون القرامطة في مقارعتهم للحكم العباسي ـ غير أننا لا نستطيع تقييم تلك المساهمة في الحركة القرمطية إلا إذا ذكّرنا بمميزات هذه الحركة الثورية وكيفية نشأتها ثم تطورها وانتشارها[1].

إن الحركة القرمطية منذ نشأتها في نهاية القرن الثالث للهجرة (القرن التاسع) عبارة عن حركة دينية ذات طابع شيعي إسماعيلي تنادي بوجود إمام علوي مختفي. كما أن لها صبغة اجتماعية حيث أن القرامطة ينادون بالعدالة الاجتماعية ويستعملون لذلك شعارات مأخوذة من القرآن تنطبق على كل الأجناس وكل الفرق وتعتمد خاصة على التسامح والعقل والعدالة[2].

بدأت إذن هذه الحركة سنة 890/277 بانتفاضة حمدان قرمط في جهة

---

(1) انظر مقالة قرامطة في دائرة المعارف الإسلامية: 1: ص 818 ـ 813.
راجع كذلك:

- De GOEJE Mémoire sur les Quarmates du Bahrayn et les Fatimides, Leyde - 1886.

(2) انظر مقال Massignon سبق ذكره ص 813.

واسط. ومنذ ذلك الوقت انتشرت بصفة تدريجية خاصة بعد موت الخليفة العباسي المعتضد. (288 ـ 279). فقد استقطبت في الشام والعراق عناصر قبلية نذكر من بينها العناصر الهلالية التي كانت موجودة هناك ـ بحيث أصبحت الحركة القرمطية على حد تعبير المستشرق «مسّينيون»[1] عبارة عن «شيوعية مطلعة وصوفية» «Communisme initiatique et Mystique» لها صبغة اجتماعية جاءت كتعبير عن ردة فعل ضد الإسلام السني الاورتودوكسي وعن انتفاضة المحرومين ضد أصحاب الجاه والنفوذ»[2].

لقد كانت القاعدة الجغرافية لهذه الحركة عمان والبحرين حيث قامت العناصر السّلميّة وبعض مجموعات أخرى من قبيلة ربيعة بن عامر من مناصرتها ضد الحكم العباسي، كما أن الحركة انتشرت في خراسان واليمن حيث تمكن الإسماعيليون من تأسيس دويلات مستقلة مثل دولة بني الصليحي بصنعاء[3].

وفيما يتعلق بمساهمة الأعراب في هذه الحركة فهذا ابن خلدون[4] يعلمنا أن قبيلتي بني سليم وبني عقيل بن كعب ناصرت أبا طاهر الجنابي[5] الذي كان استولى على البصرة والكوفة[6] وكان بصدد الاستعداد لمهاجمة الحرمين الشريفين.

---

(1) المرجع نفسه ص 815.

(2) نحن لا نتفق مع «مسينيون» حين يجعل من الحركة القرمطية حركة تمرد العنصر الفارسي ضد العنصر العربي وذلك لأننا لا نؤمن «بالتفاسير العنصرية» في فهم التاريخ ـ ثم إن دراسة التركيب الاجتماعي والعنصري والجغرافي لهذه الحركة تبرز لنا مساهمة العرب ـ وخاصة منهم العناصر المهضومة الحق ـ بنفس المقدار الذي ساهم به الفرس وغيرهم من العناصر الأخرى في الحركة القرمطية.

(3) انظر المصدر نفسه ص 815. راجع فيما يتعلق بالصليحيين حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي ـ بغداد 1969 ص 219 ـ 171.

(4) العبر: 6: 142.

(5) أبو طاهر الجنّابي تزعم الحركة القرمطية أثناء المدة التي تتراوح بين سنتي 301/914 و 332/943 ـ انظر دائرة المعارف الإسلامية: 1: 815.

(6) استولى القرامطة على كل من الكوفة والبصرة سنة 301/913 انظر DE GOEJE سبق ذكره: 80 وما بعدها.

وفعلاً فقد استطاع القرامطة بمعونة بني سليم خاصة من الاستيلاء على مكة وذلك في شهر ذي الحجة سنة 930/317 وتحصلوا على غنائم هامة. بحيث تكون مساندة القبائل السّلميّة للحركة القرمطية مساندة لها مبررها المادي والاقتصادي لا سيما وأن الأعراب ـ كما سبق لنا أن أشرنا إليه لا يملكون موارد قارّة ـ كما أن لها مبررها الإيديولوجي حيث أن الحركة القرمطية كانت حركة مساواتية «égalitaire» تحن إلى الشيعة العلويين. وأحسن دليل على ذلك ما ذكره لنا ابن خلدون من أن بني سليم تغلبوا على البحرين ـ بعد انقراض دولة القرامطة منها ـ «بدعوة الشيعة لما أن القرامطة كانوا على دعوتهم»[1].

وهكذا يمكن لنا أن نربط بين مساندة السلميين والهلاليين للحركة العلوية في القرن الأول ومناصرتهم في القرنين الثالث والرابع للقرامطة الذين كانوا إسماعيليين. وبقطع النظر عن موقفهم إزاء القرامطة فأن بني هلال وبني سليم لم يتخلوا طوال القرن الرابع عن مهاجمة القوافل التجارية والتطاول على المسافرين والحجاج للحصول على الغنائم والسبي.

وقد ذكر لنا المؤرخون مثل ابن الجوزي[2] العديد من تلك الأحداث (مثلاً سنة 967/354 و 972/361 و 974/363) التي مكنتهم من كسب قوة اقتصادية وحربية هامة[3] ـ لا سيما وأن الحكم العباسي آنذاك ـ كان يتخبط في صعوبات ومشاكل كبيرة أهمها التصدي للحركة القرمطية وقمعها ثم القضاء على الاضطرابات التي يقوم بها الأعراب مثل بنو هلال وبنو سليم في جهات مختلفة من الامبراطورية الإسلامية وبصفة خاصة في الحجاز. ثم أن الحالة السياسية في

(1) العبر: 6: 142.
(2) ابن الجوزي ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ حيدر آباد 1368 ـ انظر 3: 33 و 57 وابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ طبعة 1898 ـ انظر 7: 20 وما بعدها.
(3) G. MARÇAIS سبق ذكره: 74.

العالم الإسلامي ـ آنذاك ـ تغيرت تغيراً جذرياً بعد انتقال الفاطميين من إفريقية إلى مصر سنة 362/973[1].

لا شك أن انتصاب الخلافة الفاطمية في مصر كانت له انعكاسات سيئة على الحركة القرمطية بصفتها حركة سياسية[2] إذ أن الفاطميين سرعان ما غيروا موقفهم إزاء القرامطة وأنصارهم[3] ـ أي الأعراب ـ وخاصة في عهد العزيز (365 ـ 385/975 ـ 996) الذي اغتنم فرصة تلاشيهم ليسدد لهم ضربة قاضية وينتزع منهم المدن والمواضع التي كانوا متغلبين عليها في الشام والعراق.

إن انقلاب موقف الفاطميين إزاء القرامطة الذين أصبحوا أعداءاً بعد ما كانوا أنصاراً أدى بالخليفة الفاطمي العزيز إلى «معاقبة العناصر العربية» التي كانت في صفهم ـ أي الجماعات الهلالية والسلمية ـ وقد تم فعلاً تطبيق هذه السياسة عندما قرر العزيز أن ينقل هذه العناصر من الحجاز إلى مصر ويوطنها في جهة الصعيد سنة 368/978.

---

(1) فتحت مصر على أيدي جوهر الصقلي الذي دخل الفسطاط في 12 شعبان 358/1 جويلية 969 ـ غير أن انتقال مركز الخلافة تم بالفعل عندما توجه الخليفة المعز إلى مصر ودخل القاهرة في 7 رمضان سنة 362/11 جوان 973 ـ انظر **دائرة المعارف الإسلامية** مقال FATIMIDES للمستشرق M. CANARD :2: 870 وما بعدها.

(2) تدهورت العلاقات بين الفاطميين والقرامطة منذ سنة 360/970 وخاصة سنة 363/974 عندما هاجم القرامطة القاهرة تحت قيادة الأعصم ـ انظر **نفس المصدر**: 2: 874 و DE GOEJE ـ سبق ذكره: 183 وما بعدها.

(3) إن هذا التدهور هو في الواقع نتيجة تضارب بين مصالح الفريقين ـ ففي بادىء الأمر كان الفاطميون يناصرون القرامطة لعدة أسباب: كلاهما إسماعيليون شيعيون ثم لهم عدو مشترك: النظام العباسي ـ لكن انتقال الخلافة إلى مصر أصبح خطراً على مصالح القرامطة الذين أصبحوا في صراع على واجهتين: ضد العباسيين ثم ضد الفاطميين. كما أن الفاطميين كانوا يريدون نشر مبادئهم وفرض سيادتهم على عدة جهات من العالم الإسلامي ـ بما في ذلك الشام والعراق واليمن والحجاز ـ ومثل هذه السياسة لا تتماشى وسياسة التحالف مع القرامطة الذين كانوا قد تغلبوا على أمصار الشام وما زالت لهم طموحات أخرى.

وهكذا وقع نقل (Transfert) الهلاليين والسلميين إلى الصعيد[1] مما زاد في الاضطرابات في تلك الجهة لا سيما وأن بني سليم وبني هلال لم يفقدوا تماماً «طبائعهم البدوية الهائجة»[2].

إن إقامة هذه الجماعات في الصعيد المصري ستتواصل إلى حين «نقلتهم ـ مرة أخرى ـ إلى إفريقية[3] والمغرب وذلك في منتصف القرن الخامس. وهنا نصل إلى المرحلة الرابعة من تاريخ الهلالية وهي تغريبة بني هلال وبني سليم»[4].

---

(1) هناك اختلاف كبير بين المؤرخين حول نقل الجماعات السليمية والهلالية إلى الصعيد المصري. فبينما يعتبر ابن خلدون (العبر: 6: 142) أن هذا النقل (Transfert) أو الإبعاد (Déportation) له صلة بانهيار دولة القرامطة في البحرين وبانهزام بني سليم أمام بني الأصفر بن تغلب الذين غلبوا على البحرين بدعوة العباسية أيام بني بويه ـ يفسر المؤرخون المحدثون ذلك بصفة أخرى فالمستشرق E. Mercier يضع هذا القرار على حساب السياسة الفاطمية التي كان هدفها الأساسي وضع حد للخطر الذي يمثله هؤلاء الأعراب. (انظر المصدر السابق: 9) لكن G. WIET (سبق ذكره: ص 219) يعتقد أن الفاطميين أرادوا ـ بنقلهم العناصر الهلالية والسلمية إلى الصعيد مكافأتهم للخدمات التي قدموها لهم سابقاً عندما كانوا يتوقون إلى الحكم. وهذا رأي لا يمكن أن نأخذ به حيث أن المكافأة لا تكون بتوطين قبائل مناصرة في جهة عرفت بصعوبة ظروفها الطبيعية (الصعيد) ـ ثم هناك رأي G. MARÇAIS (سبق ذكره: 76) الذي يعتبر أن بني سليم قرروا بأنفسهم الخروج من البحرين بعد انهزام القرامطة أمام بني المنتفق. بصفة إجمالية نحن نشاطر ابن خلدون في تعليله لنقل بني هلال وبني سليم إلى الصعيد وهو قرار له صلة ـ دون شك ـ بانهيار دولة القرامطة في البحرين وبتغير سياسة الفاطميين آزاء الحركة القرمطية في النصف الثاني من القرن الرابع.

(2) العبر: 6: 142.

(3) فيما يتعلق بإقامة بني هلال وبني سليم في الصعيد انظر خاصة المقريزي ـ البيان: سبق ذكره: 27 وما بعدها.

الخطط: 2: 344 وما بعدها ـ ابن خلدون ـ العبر: 6: 27 وما بعدها ـ 142 وما بعدها. ابن لاري ـ **البيان المغرب في أخبار المغرب** ـ 3 أجزاء ـ بيروت، 1948. التيجاني: رحلة، تونس 1958: 17.

(4) انظر عبد الرحمان قيقة: **الملحمة الهلالية** (La geste hilalienne) تونس 1968.

وسنحاول ـ في دراسة أخرى ـ بيان الأسباب والعوامل التي تقف وراء انتقالهم من مصر إلى إفريقية في منتصف القرن الخامس.

بصفة إجمالية تمتاز المراحل الثلاث للهلالية في الشرق بما يلي:

ـ **أولاً:** أن بني هلال وبني سليم كانوا يعيشون جنباً إلى جنب في الجاهلية ويتعاطون نفس الأنشطة (تربية المواشي، زيارة الأسواق).

ـ **ثانياً:** عند ظهور الإسلام رأيناهم هبوا بكل حزم وجد للتصدي للعقيدة الجديدة إلى أن تم إدخالهم بالقوة في الإسلام.

ـ **ثالثاً:** أما في عهد الدولة الأموية فقد واصلوا غزواتهم ضد القوافل والمسافرين إلى أن وقع نقلهم من الحجاز إلى مصر وتوطينهم في جهة بلبيس بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك.

ـ في عهد الدولة العباسية فقد تحدوا كثيراً الخلفاء العباسيين وممثليهم في الحجاز قبل أن يقع إخضاعهم بحد السيف من طرف القائد التركي بغا الكبير وقد انضموا بعد ذلك في صفوف القرامطة ضد النظام العباسي إلى أن توصل الخليفة الفاطمي من إبعادهم أو نقلهم ـ وهذه هي المرة الثانية ـ إلى الصعيد ورغم ذلك فأنهم لم يقلعوا عن أعمال الشغب.

ومن ثم سيتوجهون في منتصف القرن الخامس إلى إفريقية التي ستكون نهاية المطاف بالنسبة لهم بعد سلسلة من التنقلات انطلقت من الحجاز إلى العراق فالشام فمصر ثم أخيراً إلى إفريقية والمغرب.

أبو الحسن الخزرجي

(متوفى سنة 812/1410)

حياته ومؤلّفاته

فصلة من Les Cahiers de Tunisie

عدد 107 ـ 108

مجلد XXVIII/ لسنة 1979

1 ـ مقدمة عامة :

لم يحظ تاريخ اليمن في العصر الإسلامي الوسيط بنفس العناية التي حظي بها إلى حدّ الآن تاريخ الفترة القديمة[1]. وهذا ربما يرجع إلى الدور الرئيسي الذي لعبه القطر اليماني في العهد القديم وإلى ازدهار حضارات متتالية على أرضه نذكر من بينها حضارة سبأ ومعين وحضرموت وقتبان إلى غير ذلك.

وهذا لا يعني أن التاريخ الإسلامي لليمن[2] لم يقع درسه بتاتاً لكن الشيء الأساسي الذي ينبغي أن نشير إليه هو أهمية التراث اليمني المتعلق بالفترة الوسيطة وخاصّة منها فترة بني رسول وبني طاهر ـ ويشتمل هذا التراث الهامّ على العديد من المؤلفات التاريخية وغيرها الذي ما زال القسم الأوفر منها مخطوطاً مبعثراً في العديد من مكتبات البلدان العربية والأجنبية[3].

---

(1) انظر في هذا الصدد إلى كل الدراسات المتعلقة بذلك ـ نذكر منها بالخصوص:

RYCKMANS (J) L'institution monarchique en Arabie Méridionale avant l'Islam, Louvain - 1951.

عبد القادر بافقيه، **تاريخ اليمن القديم**، بيروت 1973.

(2) قام عدة باحثين من عرب وغير عرب ببعض الدراسات حول الفترة الوسيطة لتاريخ اليمن نذكر من بينها: حسين سليمان محمود، **الصليحيون وعلاقاتهم بالفاطميين في مصر**، القاهرة.

VAN ARENDONK, Les débuts de l'imamat Zaydite au Yemen, Leyde, 1960.

(3) انظر خاصة أيمن فؤاد سيد، **مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي**، القاهرة 1974، عبد الله محمد حبشي، مراجع تاريخ اليمن، دمشق 1972، سلطان ناجي، **بيليوغرافيا مختارة وتفسيرية عن اليمن**، جامعة الكويت، 1973.

ومما لا شك فيه أن الخطوة الأساسية ـ لمن يريد أن يدرس بصفة علمية وموضوعية الفترة الوسيطة للتاريخ اليمني ـ هي الرجوع إلى هاته المخطوطات والاعتماد عليها. ولا بد أن ينشر هذا التراث لكي يتمكن العلماء والمؤرخون من استغلاله وبالتالي من سد الفراغ الذي ما زال قائماً في هذا النطاق[1].

ومن جملة المؤلفين والمؤرخين اليمنيين[2] الذين خلّفوا لنا مؤلفات تاريخية هامة نذكر أبا الحسن الخزرجي المتوفى سنة 1410/812 وقد رأينا من الصالح أن نقوم بتحقيق قسم بسيط من تاريخه العام «الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن من ملوك الإسلام» يتعلق بفترة زمنية سميناها «عصر الولاة» وهي من الفترات التاريخية التي لا نعرف عنها الشيء الكثير ـ غير أن هاته المدة التي تغطي الثلاثة قرون الأولى للهجرة (القرون السابع الثامن والتاسع المسيحية) تتميز من الناحية السياسيّة بتبعيّة اليمن للدولة الإسلامية سواء في المدينة أو في دمشق أو في بغداد.

فقبل الحديث عن هذا الكتاب الهام الذي توجد منه عدة نسخ مخطوطة مبعثرة في عدة مكتبات في العالم، رأينا من المفيد أن نعطي نبذة عامة عن حياة الخزرجي وعن مؤلفاته معتمدين على ما جاء في كتب التراجم.

فمن هو إذن الخزرجي؟ ما هي أهم فترات حياته وما هي مميزات عصره؟ وأخيراً نتساءل كذلك عن المصادر التي اعتمد عليها لوضع هذا الكتاب؟

---

(1) نذكر من جملة المؤلفات اليمنية التي وقع تحقيقها ونشرها: تاريخ ثغر عدن لبا مخرمة ـ تحقيق O.LOFGREN، ليدن 1936، تاريخ المستبصر لابن المجاور ـ تحقيق O. LOFGREN ليدن 54 ـ 1951 ـ تاريخ اليمن لعمارة ـ انظر نشرة ـ H.C.KAY لندن 1892 ـ وأخيراً نشرة القاهرة بتحقيق محمد بن علي الأكوع 1976 ـ تاريخ صنعاء للرازي تحقيق عبد الجبار زكار وحسين العمري ـ دمشق 1974 ـ قرة العيون في أخبار اليمن الميمون لابن الديبع ـ تحقيق محمد بن علي الأكوع ـ القاهرة 1976.

(2) انظر دراستنا عن «ابن الديبع مؤرخ اليمن وزبيد» التي بصدد النشر في مجلة كلية الآداب بتونس «حوليات الجامعة التونسية».

2 ـ نبذة عن حياة الخزرجي وعن مؤلفاته: [1]

أما عن حياته فلا نعرف مع الأسف الشيء الكثير. اسمه علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي بن وهاس الخزرجي ـ كنيته موفق الدين [أو شمس الدين] أبو الحسن ـ غير أن هناك بعض إشارات قصيرة وجدناها في كتب التراجم ـ ولا نملك ترجمة ذاتية للمؤلف مثل ما هو الشأن لابن الديبع[2] أو السخاوي.

نعرف أولاً أنه من مواليد زبيد وأنه عاصر الملك الرسولي الأشرف إسماعيل بن الأفضل عباس[3] (803 ـ 778/1400 ـ 1376) غير أن تاريخ ولادته لم يذكره أحد من مترجميه ـ لكن القاضي إسماعيل بن علي الأكوع[4] قد عثر على إشارة جاءت في كتاب الخزرجي «العقد الفاخر» مفادها أنه ولد سنة 732/32 ـ 1331 ويذكر لنا البريهي[5] من ناحية أخرى أن الخزرجي ولد سنة 730/30 ـ 1329.

ومهما يكن من أمر فإنه توفي سنة 812/1410 على سن يناهز السبعين[6] فإذا اعتبرنا مولده سنة 732/32 ـ 1331 يكون الخزرجي قد عمر ثمانين عاماً تقريباً.

---

(1) انظر ابن حجر، أنباء الغمر بأبناء العمر، القاهرة 1971، جزءان، 2، 441، السخاوي، الضوء اللامع 5، 210، ابن العماد، شذرات الذهب، 7، 97 ـ 89 انظر كذلك ـ كشف الظنون 1: 282 و 310 ـ هدية العارفين 1: 723 ـ ذيل كشف الظنون 2: 81 ـ 101 ـ 108 ـ 458 ـ 1015 ـ الأعلام 5: 83 ـ معجم المؤلفين 7: 61 ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة ص 822. انظر أيضاً G.A.L. II 235(185) وSupp II, 238.

(2) انظر دراستنا عن هذا المؤرخ ـ راجع كذلك E.I (III) P. 769.

(3) انظر ترجمته في الضوء اللامع: 2: 299 ـ تاريخ ثغر عدن: 2: 20.

(4) انظر مجلة المؤرخ العربي 4 ـ 1977 ـ مقال الأكوع: «أضواء على مؤلفات علي بن الحسن الخزرجي مؤرخ اليمن» ص 129 ـ 123 ـ ويذكر لنا الأكوع أن هاته الإشارة قد جاءت خلال ترجمة علي بن أحمد بن موسى بن علي الجلاد ـ انظر ص 124.

(5) البريهي هو من علماء القرن التاسع ـ انظر مصادر ص 186 ومراجع ص 87 ـ وقد أوضح لنا الأكوع ذلك في مقاله المذكور ص 124.

(6) انظر «أنباء الغمر» 2: 441 ـ «الضوء اللامع»: 5: 210 ـ «شذرات الذهب» 7: 97.

عثرنا كذلك على إشارة أخرى في تاريخ الخزرجي «الكفاية والأعلام» يفهم منها أنه كان يعمل في زخرفة المدارس والدور الملكية[1] كما يذكر كل مترجميه تقريباً أنه اشتغل بالأدب ونظم الشعر خصوصاً في التعصب للقحطانية واهتم أيضاً بالتاريخ وألف فيه العديد من الكتب التي سنذكرها بعد حين ويعدّ مؤرخ اليمن آنذاك.

وقد شهر الخزرجي من ناحية أخرى بعلمه للنسب والأنساب مما جعل مترجميه يسمونه «النسابة». وكان متقرّباً للملك الأشرف إسماعيل الّذي كان مولعاً ـ بدوره ـ بالعلم والعلماء. وقد ذكر لنا الخزرجي في كتابه العقود[2] أنّ السّلطان إسماعيل ندبه للحجّ عن والدته التي توفيت سنة 784 وزوّده بأربعة آلاف درهم. ثمّ إنّه سامحه بعد رجوعه من الحجّ والزيارة في خراج أرضه ونخله مسامحة مستمرة مستقرّة.

ومن المعلومات القليلة التي نعرفها عنه أنه التقى بالعالم ابن حجر العسقلاني[3] عندما زار هذا الأخير اليمن أثناء المدة 799/1397 و 801/1398 ـ وقد كتب له مدحاً نقل لنا منه السخاوي[4] بعض الشيء حيث قال: «ولقيته[5] بزبيد

(1) انظر الكفاية والأعلام ـ مخطوطة باريس (2) 5832 ـ الورقة 24 وجه يذكر لنا المؤلف أثناء حديثه عن تأسيس مدينة زبيد وذلك في الفصل الأول من الباب الخامس: «قال المصنف: ثم مسحت زبيد في الدولة الأفضلية وذلك في سنة 767 أو 769 وكان السلطان الملك الأفضل يومئذ يعمر دار الديباج في ثعبان ـ وكان السلطان كثير المباشرة للعمارة وكنت يومئذ أشتغل في الدار المذكورة من جملة المزخرفين. . .».

(2) انظر العقود اللؤلؤية ـ سبق ذكره: 2: 175.

(3) ابن حجر العسقلاني هو حافظ ومؤرخ مصري غني عن التعريف ـ وقد ولد سنة 773/1372 وتوفي سنة 852/1449 ـ انظر في شأنه: (E. I, II (n. éd) pp. 799 - 802.

(4) انظر الضوء اللامع: 5: 210.

(5) نشير هنا إلى أن الضمير (هـ) لا يعود على السخاوي كما ظن ذلك خَطَأً القاضي إسماعيل الأكوع في مقاله عن الخزرجي (المؤرخ العربي ص 125) إذ أنه ذهب إلى الاعتقاد أن السخاوي هو الذي لقي الخزرجي باليمن بينما نعلم أن الخزرجي توفي سنة 812 بينما السخاوي ولد سنة 831 فهو يعود إذن على ابن حجر وذلك لأن السخاوي =

فطارحني برسالة أولها: أشع الله بطلعتك المضيئة وشمائلك المرضية وحزت خيراً ووقيت ضيراً - وهي طويلة في هذا النمط» - وإشارة مثل هذه إن دلّت على شيء فهي تدلّ على مدى شهرة الخزرجي آنذاك في موطنه زبيد ومدى السمعة التي يتمتع بها - لا سيما وأن ابن حجر كان يعدّ في تلك الفترة من رواد كتابة التراجم في مصر - وذلك بكتابه «الدرر الكامنة بأعيان المائة الثامنة»[1] الذي نهج على منواله عدة علماء نذكر من بينهم السخاوي (في القرن العاشر) والغزي صاحب الكواكب السائرة. . .

ومما لا شك فيه أن الخزرجي كان من المؤرخين الأساسيين للدولة الرسولية التي عاصر البعض من ملوكها.

فما هي إذن مميزات هذا العصر الذي عاش فيه الخزرجي؟

يمكن لنا أن نقول - بدون إطناب - إن أحوال اليمن في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) تتلخص في ثلاثة أشياء:

- أولاً من الناحية الاقتصادية والتجارية يعتبر عهد السلاطين الرسوليين عهد ازدهار[2] وذلك لأهمية العلاقات التجارية بين الهند ومصر عن طريق اليمن وعدن - خاصة في ميدان التوابل - غير أن المبالغة في فرض الضرائب على متاجر التجار الهنود والصينيين - خاصة في بداية القرن التاسع/ القرن الخامس عشر - قد أدّى إلى التوجّه من عدن إلى البحر الأحمر بحيث حلت جدّة محل عدن كقاعدة أساسية لتجارة الشرق الأقصى[3].

= تتلمذ عليه وينقل لنا هنا ما وجده في معجم شيخه - انظر **الضوء اللامع** 5: 210.

(1) انظر E. I, II, p. 799 - 800 (N.E.D) ومصادر ص 151.

(2) انظر مقال A.S. Tritton في E.I,(III) page 1206 (A. Ed) صبحي لبيب: «**التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى**» المجلة التاريخية المصرية - 4 - 1952 - ص 63 - 5.

(3) انظر مصادر. . . ص 155 - انظر كذلك: H. Yajima, A Chronicle of the rasulid dynasty of Yemen from the unique Mss Paris n° 4609, TOKYO, 1976; وخاصة مقدمة المحقق بالانكليزية ص 6 وما بعدها.

ـ من الناحية العلمية ـ وهذه الملاحظة الثانية ـ فيمتاز عهد بني رسول ـ الذين ارتبطوا بصفة وثيقة مع سلاطين مصر المماليك إلى درجة أنهم قلّدوهم في جميع نظمهم ـ بأهيمة الكتابة التاريخية عن اليمن سواء من طرف مؤرخين مصريين أمثال النوري والعمري (القرن الثامن) أو يمنيين كالجندي وابن عبد المجيد بالنسبة للقرن الثامن أو الخزرجي والأشرف الرسوليّ بالنسبة للقرن التاسع.

وتعدّ مؤلفات هؤلاء العلماء تواريخ شاملة تهم بصفة خاصة اليمن منذ عهد الرسول حتى بداية القرن التاسع وهذا مما يفسر ولع السلاطين الرسوليين بالعلم و العلماء وتشجيعهم للمؤرخين ـ وأحسن مثال على ذلك هو علاقة مؤلفنا الخزرجي بالملك الرسولي الأشرف إسماعيل الذي كان من جهته مؤلفاً من الطراز الأول[1] وسنرجع إلى ذكر تآليفه فيما بعد.

ـ بقيت الناحية السياسية ـ ونشير في هذا المجال إلى ملاحظتين: **أولهما** أن اليمن كان في عهد الرسوليين مقسماً إلى قسمين: صنعاء وما يواليها (اليمن الأعلى) وكانت تحت سيادة الزيديين وباقي البلاد (اليمن الأسفل) تحت حكم بني رسول ـ.

ـ **ثانياً**: كان سلاطين بني رسول في صراع دائم مع كل من الزيديين في اليمن الأعلى والمماليك في مصر ـ ونحن نعرف أن المماليك كانوا يريدون آنذاك فرض سيادتهم على الأراضي المقدسة وبالتالي السيطرة على الطريق الحجازي أو طريق البحر الأحمر[2] وهذا مما يفسّر لنا خشية بني رسول منهم.

وقد عاش الخزرجي في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع بحيث عاصر كل من الملك المجاهد علي (764 ـ 721/ 1363 ـ 1322) والأفضل عباس[3]

---

(1) انظر شاكر محمود عبد المنعم: حياة الملك الأشرف إسماعيل وجهوده الثقافية. المؤرخ العربي: 8: 1978، ص 116 ـ 100.

(2) انظر مصادر. . . ص 35.

(3) انظر شاكر عبد المنعم: الملك الأفضل العباس الغساني مؤرخاً المؤرخ العربي: 3: 1975: ص 63 ـ ص 79.

(778 ـ 764/1367 ـ 1363) والأشرف إسماعيل (803 ـ 778/1400 ـ 1376) والناصر أحمد بن الأشرف[1] (827 ـ 803/1424 ـ 1400).

ما هي مؤلفات الخزرجي؟

ليس في نيتنا طرق هذا الموضوع من جديد ذلك لأن القاضي إسماعيل بن علي الأكوع قد تعرض له في مقال ألقي فيه أضواء جديدة على أهم مؤلفات الخزرجي التاريخية وأزاح عدة التباسات تتعلق بها[2]. غير أننا رأينا من المفيد أن نذكر بأهم هاته المؤلفات ونحاول ترتيبها مع الإشارة إلى كيفية تقسيمها وبيان فحواها ـ كما رأينا أن نتعرض إلى قضية خطيرة لم يتناولها بالدرس المقال المذكور وهي قضية عنوان كتاب الخزرجي «الكفاية والأعلام».

كل كتب التراجم التي لدينا[3] تشير إلى أن الخزرجي كان ـ بقطع النظر عن اشتغاله بالأدب ونظمه للشعر وعلمه بالأنساب ـ مؤرخ اليمن بصفة عامة ومؤرخ بني رسول بصفة خاصة ـ وقد جمع لبلده في هذا الميدان تاريخاً كبيراً على السنين وآخر على الحروف أو الأسماء وآخر على الدول أو الملوك.

فما هي إذن التواريخ الثلاثة؟ ما هي طريقة وضعها؟ وما هو فحواها التاريخي؟

---

(1) انظر تراجم هؤلاء الملوك في تاريخ ثغر عدن ـ والدرر الكامنة والنجوم الزاهرة ـ راجع أيضاً E.I (A. ED) III, pp. 1206 - 1208 وما ذكره عنهم كل من الخزرجي في «الكفاية والأعلام» (الفصول الأخيرة من الباب الخامس) الأوراق 138 ـ 125 ـ ابن الديبع «قرة العيون في أخبار اليمن الميمون» الجزء الثاني ـ نشرة القاهرة 1977.

(2) انظر الأكوع ـ أضواء جديدة. . . ص 129 ـ 123.

(3) انظر كتب التراجم المذكورة في حاشية رقم 6 ـ راجع كذلك لطفي عبد البديع ـ فهرس المخطوطات المصورة: 2: 1: 184 ـ فؤاد سيد: نفس الكتاب ـ 2: 2: 106 و 245. فؤاد سيد كذلك: مخطوطات اليمن في مجلة معهد المخطوطات العربية ـ نوفمبر 1959 ـ 2: 1: 214 ـ 194 ـ قائمة بالمخطوطات العربية المصورة بالميكروفيلم من الجمهورية العربية اليمنية ـ القاهرة 1967 ص 28 ـ 29 ـ 30 ـ 31 ـ مراجع. . . ص 210 ـ 225 ـ 230 ـ 266 ـ 280 ـ 284 ـ مصادر ـ ص 165 ـ 161.

G.A.L, II, p. 235 (185); Supp II. 238.

ـ أما الكتاب الأول التاريخ الكبير فلعله «الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من أهل الإسلام» الذي سنرجع إليه بعد حين أو «المسجد المسبوك والزبرجد المحبوك فيمن ولي اليمن من الملوك» ـ الذي نسج على منواله فيما بعد ابن الديبع في كتابه «قرة العيون في أخبار اليمن الميمون».

ـ وفيما يتعلق بالتاريخ الذي وضعه الخزرجي على الحروف الهجائية فيشتمل هذا الكتاب على ثلاثين باباً ـ ويقول لنا المؤلف في مقدمته أنه وضعه على منوال كتاب الجندي «السلوك في طبقات العلماء والملوك»[1].

ـ والجدير بالذكر أن هذا الكتاب يحمل اسمين مختلفين «العقد الفاخر الحسن في طبقات أعيان اليمن»[2] «وطراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن»[3] وقد فرغ الخزرجي من تبييضه سنة 1398/801 وقد ذكر لنا فعلاً السخاوي[4] في ترجمته للخزرجي أن هذا الكتاب الموضوع على الأسماء يسمى «طراز الزمن» و«العقد الفاخر».

ـ وأما الكتاب الثالث الذي خصصه للدول والملوك فلعله «العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية»[5] ولا يسعنا هنا إلا الاعتماد على ما قام بإيضاحه

(1) انظر أضواء.. ص 123 وما بعدها و(185) G.A.L, II, p. 235

(2) توجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة تشتمل على الجزء الثاني والثالث أولهما باب الظاء وهو الباب السابع وآخرهما الباب الثلاثون في تراجم النساء ـ وذلك في المتحف البريطاني. انظر مراجع ص 225 وقد كتبت هذه النسخة بخط جيد وتقع في 192 ورقة قياس كبير. انظر فهرس المخطوطات المصورة 2: 1: 185 ـ 184.

(3) توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الإمام يحيى بصنعاء ـ وهي تمثل الجزء الأول والثاني وتنتهي بترجمة عبد الله بن علي الشاوري من حرف العين وتقع في 145 ورقة نسخت سنة 1337 ـ انظر مراجع ص 210 ـ مخطوطات اليمن ص 210 ـ قائمة بالمخطوطات ص 28.

(4) انظر الضوء اللامع: 5: 210.

(5) انظر طبعة الهلال تحت إشراف محمد بسيوني عسل ـ 1911 ـ 1918.

القاضي الأكوع[1] في شأن قضية نسب كل من كتاب «العسجد» و«العقود» إلى الملك الأشرف الرسولي المتوفى سنة 1400/803 ـ فقد يكون الخزرجي هو المصنف لهذين الكتابين وذلك بأمر من الملك الرسولي المذكور الذي كان مشهوراً بدوره بتآليفه التاريخية[2] التي نذكر من بينها كتاب «فاكهة الزمن ومفاكهة الآداب والفن في أخبار ملوك اليمن»[3] الذي قد يكون بدوره نسخة موجزة من «العسجد المسبوك»[4] لشبهه الكبير به في المنهج وترتيب الفصول.

ما هي بقية مؤلفات الخزرجي التي ذكرها لنا علماء التراجم؟ نذكر قبل كل شيء كتاب «مرآة الزمن في تاريخ زبيد وعدن»[5].

ونلاحظ في هذا المجال أن الخزرجي ذكر لنا في آخر كتابه «الكفاية»[6] أنه ينوي تأليف كتاب عن الدولة الظاهرية في عدن فلعلّه ـ وهذا مجرد احتمال نسوقه في هاته الدراسة ـ مرآة الزمان؟

ثانياً: كتاب «المحصول في أنساب بني رسول» الذي ذكره لنا الخزرجي بنفسه في العقود اللؤلؤية قائلاً: «. . . وقد كنت شرحت هذه القصيدة التي قالها الحارث الرائش في جزء لطيف سميته المحصول في انتساب بني رسول وذلك لما شهدت به من صحة انتسابهم وقل أن يوجد دليل على صحة نسب أحد من

---

(1) راجع «أضواء» ص 125 ـ انظر كذلك مقال أيمن فؤاد سيد في مجلة العرب: 5: 956 ـ 950 حيث رجح فيه أن كتاب المسجد للخزرجي ـ ونشير هنا أننا لم نتمكن مع الأسف من الحصول على هذا المقال ومراجعته بصفة دقيقة.

(2) انظر مصادر. . . ص 157.

(3) المصدر نفسه ص 158 ـ والجدير بالذكر أن هذا الكتاب يعرف بعنوان آخر ألا وهو «مرآة الزمن في تخالف أخبار اليمن» وهو كتاب شامل يحتوي على خمسة أبواب ذكر لنا فيه الأشرف تاريخ اليمن منذ عهد الرسول حتى سنة 802 ـ وتوجد منه نسخة مخطوطة في إنكلترا بمنشستار.

(4) يشتمل كتاب العسجد على قسمين كل قسم في خمسة أبواب ـ انظر مصادر: 162.

(5) انظر ذيل كشف الظنون: 2: 458 ـ هدية العارفين: 1: 728 ـ الاعلام: 5: 83 معجم المؤلفين: 7: 61 ـ مراجع: 284 ـ مصادر: 165.

(6) راجع مخطوطة باريس ورقة 125 ظهر.

الناس كصحة هذا النسب»[1] ـ وقد يكون هذا الكتاب ـ كما بينه لنا الخزرجي ـ دراسة لنسب بني رسول الذين يرتبطون بالغساسنة ـ ويقول لنا المؤلف في هذا الصدد: «أعرق ملوك اليمن في الملك في الجاهلية والإسلام ملوك حمير وملوك غسان ولهذا يقال حمير أرباب العرب وغسان أرباب الملوك»[2]. ولا غرابة في ذلك إذ أن الخزرجي ـ كما أشرنا إليه في بداية البحث ـ كان يشتهر بعلمه للنسب والأنساب مما جعل مترجموه يسمونه «النسابة».

وللخزرجي كذلك ديوان شعر ذكره خاصة صاحب هدية العارفين[3] ومما يؤكد ذلك ما بينه لنا أصحاب التراجم من أن الخزرجي كان يشتغل بالأدب وكان ناظماً ناشراً[4].

3 ـ تقديم كتاب «الكفاية والأعلام» وقضية العنوان:

ولنأت الآن إلى كتابه المسمى «الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملوك الإسلام»[5] لنتبيّن من جهة صحة عنوانه ونقارن من جهة أخرى محتواه

---

(1) انظر العقود اللؤلؤية. 1: 6.

(2) المصدر نفسه: 1: 1.

(3) انظر هدية العارفين: 1: 728 ـ الأعلام: 5: 83 ـ هذا وقد ذكر لنا فؤاد سيد (انظر فهرس المخطوطات المصورة 2: 3: 245) قصيدة بائية للخزرجي مطلعها:

ذكـرت ديـارا دارسـات خـواليـا رسوما وأطلالا عفت ومغانا

مع شرح لها ـ وتهم تاريخ اليمن وأنسابه وقبائله وقد جاءت في مخطوطة لكتاب الكفاية تقع بالهند تحت رقم 2883 ف 3101.

(4) انظر شذرات الذهب: 7: 98 ـ الضوء اللامع: 5: 210.

(5) من الملاحظ أن عنوان الكتاب لم يذكره أحد من مترجمي الخزرجي ـ بل اقتصر كلهم على ذكر تاريخ عام للخزرجي لعله «الكفاية والأعلام» ـ أما العنوان الكامل فيختلف حسب المؤلفين ـ فالزركلي يذكر «الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من الإسلام» (انظر الاعلام 5: 84) شأنه في ذلك شأن بروكلمان (راجع Gal, II, p. 235) ـ وهناك من يعطيه نفس العنوان مع زيادة كلمة «أو سكنها من أهل الإسلام» أو «ملوك الإسلام» ـ انظر خاصة مصادر... ص 163 ـ مراجع ص 280. بيليوغرافيا.. ص 65.

بكتب التاريخ التي تنسب للخزرجي ـ وسنحاول أن نتعرف ـ فيما بعد ـ ولو بإيجاز على المصادر والمؤلفات التي استعملها لوضعه.

فيما يتعلق بمحتوى الكتاب فقد اطلعنا بكل دقة على مخطوطة باريس[1] التي تقع في 217 ورقة مكتوبة من الجهتين بخطّ جميل وتشتمل على عدة كتب من بينها كتاب الخزرجي الذي يهمنا. ومن الملاحظ أن تاريخ الخزرجي المسمى «الكفاية والأعلام» يحتل 126 ورقة من كامل المخطوطة وقع نسخه في 27 محرم سنة 1130 من طرف ابن الحسن الحمري المعروف بالحرة[2]. ويتركب هذا الكتاب حسب المؤلف نفسه من خمسة أبواب لم نعثر حتى الآن إلا على البابين الرابع والخامس منها ـ ومما يذكر أن الخزرجي أشار في عدة مرات وفي مناسبات مختلفة من هذا الكتاب أن هناك قسماً من الأخبار والحوادث التاريخية قد تعرض لها في صدر الكتاب وتتعلق جلها بالدول الإسلامية العامة أعني دولة الرسول بالمدينة ثم بني أُمية ودولة بني العباس.

وهنا نأتي إلى قضية خطيرة لم يتعرض لها الباحثون من قبل وهي قضية عنوان الكتاب لا سيما وأن فحواه يشابه كثيراً فحوى كتاب «العسجد المسبوك»[3].

نذكر قبل كل شيء أن «الكفاية والأعلام» أو بالأحرى الباب الرابع والباب الخامس من هذا الكتاب يحتويان على المواضيع التالية:

ـ الباب الرابع[4] في ذكر اليمن ومن ملك صنعاء وعدن وما يتعلق بذلك

---

(1) انظر مخطوطة باريس رقم (1) 5832 كما توجد نسخ أخرى في مكتبات عديدة ـ راجع خصوصاً G.A.L, II, 238.

(2) انظر «الكفاية» (1) 5832 الورقة 126.

(3) انظر العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفات والملوك الذي حقق قسماً منه شاكر محمود عبد المنعم ـ (دار البيان بغداد 1975) وأكد نسبته للأشرف الغساني. راجع الفصل الأول: ص 34 ـ 11.

(4) يقع هذا الباب في الأوراق 5 ظهر ـ 23 وجه من مخطوطة باريس المذكورة آنفاً (1) 5832 ـ وهو أقل تفصيلاً من الباب الخامس بحيث لا يحتل إلا ثمانية عشر ورقة من جملة 126 ورقة أي ما يعادل سبع الكتاب ـ ويقتصر فيه الخزرجي على ذكر عمال اليمن=

وهو يشتمل على عشرة فصول:

- الفصل الأول: في فضل اليمن.

- الفصل الثاني: في ذكر إسلام اليمن وذكر عمال رسول الله (ﷺ).

- الفصل الثالث: في ذكر عمال اليمن بعد وفاة الرسول (ﷺ).

- الفصل الرابع: في ذكر عمال بني أمية.

- الفصل الخامس: في ذكر عمال اليمن في الدولة العباسية.

- الفصل السادس: في ذكر القرامطة باليمن وذكر علي بن الفضل.

- الفصل السابع: في ذكر الأمراء المتغلبين على صنعاء.

- الفصل الثامن: في ذكر ظهور الدولة الصليحية.

- الفصل التاسع: في ذكر ملوك صنعاء بعد الصليحيين.

- الفصل العاشر: في ذكر الدولة الزريعية واستيلاء الزريعيين على عدن.

- أما الباب الخامس[1] فهو «في ذكر زبيد وأمرائها وملوكها ووزرائها» وهو خاتم الأبواب ويحتوي على إثنى عشر فصلاً:

- الفصل الأول: في ذكر اختطاط زبيد وتملك بني زياد[2].

= منذ عهد النبي (ﷺ) حتى القرن الثالث. ثم يشرع بعد ذلك في الحديث عن الدول المستقلة باليمن خاصة دولة بني الصليحي في صنعاء ودولة بني زريع بعدن.

(1) يقع هذا الباب في الأوراق 23 وجه - 126 - وهو أكثر تفصيلاً من الأول ذلك أن الخزرجي تحدث فيه بإطناب عن تاريخ زبيد منذ تأسيسها في بداية القرن الثالث إلى سنة 803 ومن الملاحظ أن تاريخ الرسوليين (803 - 1400/626 - 1229) الأولين يحتل القسم الأكبر من هذا الفصل وهذا يرجع طبعاً إلى أن الخزرجي عاصر البعض منهم ولديه معلومات أكثر وأدق من معلومات الفترات السابقة - هذا ونشير بعجالة أن مخطوطة باريس رقم 4609 «تاريخ بني رسول» قد حققت أخيراً ونشرت في طوكيو سنة 1976 من طرف المؤرخ اليمني H. YAJIMA وفيها ذكر الحوادث من سنة 439 إلى سنة 840 فهي تعد بلا شك تكملة لتاريخ الخزرجي عن بني رسول.

(2) انظر مقال مظفر العميد في مجلة كلية الآداب ببغداد: 1970 ص 360 - 340: «بناء مدينة زبيد في اليمن». وقد ذكر فيه قسماً من الفصل الأول يهم اختطاط زبيد انظر ص 354 - 346 - ونحن بصدد القيام بدراسة عن بني زياد.

ـ الفصل الثاني: في ذكر ملوك الحبشة باليمن من آل نجاح[1].

ـ الفصل الثالث: في ذكر الوزراء من آل نجاح.

ـ الفصل الرابع: في ذكر قيام السيد علي بن مهدي.

ـ الفصل الخامس: في ذكر دولة بني أيوب.

ـ الفصل السادس: في ذكر الدولة الرسولية الزهراء وذكر قيام السلطان نور الدين أبي الفتح عمر (بن علي بن رسول الغساني).

ـ الفصل السابع: في ذكر التبع الأكبر السلطان المظفر.

ـ الفصل الثامن: في ذكر دولة الملك الأشرف ممهد الدين عمر بن يوسف عمر بن علي [بن رسول].

ـ الفصل التاسع: في ذكر دولة السلطان المؤيد.

ـ الفصل العاشر: في ذكر دولة السلطان الملك المجاهد سيف الإسلام أبي الحسن بن داود.

ـ الفصل الحادي عشر: في ذكر قيام الدولة الأفضلية.

ـ الفصل الثاني عشر: في ذكر الدولة الأشرفية الكبرى.

ـ أما كتاب «العَسْجد المسبوك والجوهر المحبوك [أو الزبرجد المحكوك] في أخبار (سيرة) الخلفاء والملوك»[2] ـ بقطع النظر عن نسبته للأشرف الرّسولي[3] ـ فهو كذلك تاريخ عام لليمن وملوكه ودوله حتى سنة 803/1400.

نلاحظ إذن أن كل مَن «الكفاية» و «العسجد» ينتهيان إلى سنة 803 وهذا أول وجه شبه فيما يتعلق بالفترة الزمنية المغطاة ـ أما وجه الشبه الثاني فَيَهِمُّ

---

(1) انظر زاهر رياض: دولة حبشية في اليمن المجلة التاريخية المصرية 8 ـ 1959: ص 130 ـ 101.

(2) توجد عدة نسخ من هذا الكتاب نذكر منها نسخة مكتبة الإمام يحيى رقم (52 تاريخ) نسخة الحرم المكي رقم (48 تاريخ) ـ انظر Supp, II, 238 بيليوغرافيا. . ص 65.

(3) انظر مقال أيمن فؤاد سيد في مجلة العرب 5 ـ 1391 ص 956 ـ 950 الذي رجح فيه ـ كما سبق أن وضحناه ـ نسبة «العسجد» للخزرجي شاكر محمود عبد المنعم ـ سبق ذكره. ص: 24 ـ 14.

تقسيم الكتابين والمواضيع التي يطرقانها ـ فقد رأينا بالنسبة «للكفاية» أن البابين الرابع والخامس يغطيان تاريخ اليمن وبعض الدول اليمانية حتى سنة 803 وينقسمان إلى فصول عدة: عشرة فصول بالنسبة للباب الرابع وإثنا عشر فصلاً بالنسبة للباب الخامس ـ بقي كتاب «العسجد» الذي له تقسيم يختلف حسب المخطوطات التي عثرنا عليها ـ فبينما يذكّرنا فؤاد سيّد بوجود مخطوطة مصورة في دار الكتب[1] عنوانها «العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك فيمن ولي اليمن من الملوك» للخزرجي وتقع في مجلد واحد يبدأ بالباب الرابع «في ذكر اليمن ومن ملك صنعاء وعدن وما يتعلق بذلك» وفيه عشرة فصول ـ كما يشير فؤاد سيّد إلى وجود نسخة أخرى تحتوي على الجزء الثاني الذي يبدأ بالفصل الخامس والعشرين في ذكر خلافة المطيع[2] (48) (363 ـ 334/974 ـ 946).

وهنا نتساءل إن كان الجزء الأول لهذا الكتاب هو نفس الذي يوجد في مكتبة الإمام يحيى بصنعاء[3] لا سيما وأنه يحتوي على أربع وعشرين فصلاً نهايته ذكر خلافة المستكفي (334 ـ 333/946 ـ 944).

هذا ويذكر لنا أيمن فؤاد سيد[4] من ناحية أخرى أن كتاب «العسجد» ينقسم إلى قسمين كل قسم في خمسة أبواب وكل باب يشتمل على عدة فصول: أما القسم الأول ففيه ذكر لسيرة النبي (ﷺ) وذكر الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين من الصحابة وذكر خلفاء بني أُمية وبني العباس وسائر أئمة أهل البيت.

---

(1) انظر فهرس المخطوطات المصورة: 2: 2: 106 ـ وقد ذكر لنا فؤاد سيد أن هذا المخطوط تمت كتابته سنة 1014 وهو يقع تحت رقم 215 تاريخ وقد صور عن نسخة مكتبة الإمام يحيى المرقمة 52 تاريخ.

(2) نفس المصدر السابق ـ ومن الملاحظ أن هاته النسخة تمت كتابتها سنة 1187 وتقع في 196 ورقة.

(3) انظر قائمة بالمخطوطات العربية المصورة بالميكروفيلم. . ص 30 حيث وقع ذكر هذا الجزء الذي نسخ سنة 1179 في 250 ورقة.

(4) راجع مصادر. . . ص 162. شاكر محمود عبد المنعم ـ سبق ذكره: ص 24 وما بعدها.

ـ والقسم الثاني في ذكر ملوك مصر والشام وإفريقيا والقيروان والأندلس والمغرب الأقصى ثم ذكر ملوك صنعاء وعدن من أرض اليمن ثم ملوك زبيد وأمرائها ووزرائها.

وأخيراً نشير إلى وجود مخطوط آخر بالحرم المكّي عنوانه «العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك»[1] ويضم بابين هما الباب الرابع وفيه عشرة فصول والباب الخامس وفيه إثنى عشر فصلاً. ونلاحظ في هذا الصدد أن هذا المخطوط يطابق من ناحية التقسيم والمحتوى تمام المطابقة مخطوط باريس المسمى «الكفاية».

ما هو ـ على ضوء كل هاته المعطيات المختلفة ـ عنوان كتاب الخزرجي الصحيح؟ وكيف يكون تقسيمه؟

إذا اعتبرنا أن البابين الرابع والخامس كما جاءا في نسخة باريس يطابقان تمام المطابقة نسخة الحرم المكّي [تاريخ 48] فنكون إذ ذاك أمام كتاب واحد له نفس المحتوى ولكنه يحمل عنوانين مختلفين: «الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن وسكنها في الإسلام» بالنسبة لنسخة باريس «والعسجد المسبوك في من تولى اليمن من الملوك» بالنسبة لنسخة مكة[2]. وهذا شيء لا يدهشنا ـ لا سيما

(1) انظر «بناء مدينة زبيد في اليمن» ص 355 ـ حيث يصف لنا مظفر العميد المخطوط الموجود في الحرم المكي ويبين لنا كيفية تقسيمه مع ذكر فصوله المختلفة التي تطابق تماماً فصول نسخة باريس ـ وقد تم نسخ المخطوطة من طرف عبد الله بن يحيى بن علي بن إبراهيم بن المهدي بن أحمد بن حصاف يوم الجمعة ثاني عشر جمادى الآخرة من سنة 995 ويقع هذا المخطوط في 508 ورقة قياس كل ورقة 27× 19 سنتم. راجع شاكر محمود عبد المنعم: ص 162.

(2) نلاحظ في هذا الصدد وجود نسخة مصورة بالمكروفيلم ذكرها لنا فؤاد سيد (انظر فهرس المخطوطات المصورة: 2: 2: 106) ـ وهي تضم مجلداً واحداً يحتوي على الباب الرابع «في ذكر ملوك اليمن ومن ملك صنعاء وعدن وما يتعلق بذلك». وفيه عشرة فصول. وقد نسخت سنة 1014 في 599 صفحة قياس كل ورقة 20× 31 سنتم. أما عنوان المخطوط فهو «العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك فيمن ولي اليمن من الملوك».

وأننا أشرنا في بداية البحث أن الخزرجي قد ألف كتاباً يحمل عنوانين «العقد الفاخر» و «طراز الزمن». وفي هذه الصورة يكون الكتاب المنسوب إلى الأشرف الرسولي والذي عنوانه «العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك» ـ عبارة عن تاريخ عام للدول الإسلامية بما فيها دول اليمن ـ ربما كان الخزرجي وضعه بأمر من السلطان الأشرف الرسولي. غير أن الدكتور شاكر محمود عبد المنعم الذي قام أخيراً بتحقيق قسم من هذا الكتاب قد أكّد لنا أنه من تأليف الأشرف وأنه يحمل العنوان التالي: «العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك». كما أكّد من ناحية أخرى أن الخزرجي قد يكون ألف من جهته ـ كتاباً آخر اسمه «العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك فيمن ولي اليمن من الملوك».

وعلى هذا الأساس يكون تقسيم كتاب الأشرف على النحو التالي:

ـ القسم الأول وفيه خمسة أبواب:

ـ الباب الأول: في ذكر الخلفاء الراشدين من الصحابة.

ـ الباب الثاني: في ذكر الخلفاء من بني أُمية.

ـ الباب الثالث: في ذكر الخلفاء من بني العباس ويحتوي هذا الباب على أربعين فصلاً جاء فيها ذكر كل خلفاء الدولة العباسية.

ـ الباب الرابع: في ذكر أئمة الزيدية من أولاد الحسن ويقع في تسعة عشر فصلاً.

ـ الباب الخامس: في ذكر الإمامية ومعرفة أئمة الإثنا عشرية والإسماعيلية من أولاد الحسين وذكر الشارع في صيرورة الخلافة إلى كل فريق منهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا القسم الأول من كتاب «العسجد» توجد نسخة منه في دار الكتب المصرية رقم 1289 تاريخ ميكرو فيلم وهي نسخة مصورة عن نسخة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء. وتنتهي هذه النسخة بعد ذكر الفصل الرابع والعشرين من ذكر خلافة المستكفي بالله[1]. ثم هناك قطعة ثانية

(1) نفس المصدر السابق حيث يبين لنا فؤاد سيد أن هذا الجزء يحمل كذلك نفس العنوان المذكور.

من «العسجد» جاءت في نسخة دار الكتب المصرية رقم 3863 تاريخ. وهي تبدأ بالفصل الخامس والعشرين في ذكر خلافة المطيع[1] وتنتهي بالفصل الأربعين الذي يناسب نهاية الباب الثالث من القسم الأول. أما البابان الرابع والخامس من نفس القسم فتقعان في قطعة ثالثة توجد في نسخة معهد إحياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية رقم 1136 تاريخ ميكروفيلم. وهي كذلك نسخة مصورة عن نسخة حيدر آباد الدكن. وتبدأ بالفصل الثالث للباب الرابع في ذكر قيام الإمام أبي الحسن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ثم «ذكر الفاطميين وخلفاء الإسماعيلية» وهو الباب الخامس.

ـ أما القسم الثاني من كتاب «العسجد» فهو في ذكر الملوك ويقع في خمسة أبواب:

ـ الباب الأول: في ذكر ملوك مصر والشام.

ـ الباب الثاني: في ذكر ملوك إفريقيا والقيروان.

ـ الباب الثالث: في ذكر ملوك الأندلس والمغرب الأقصى.

الباب الرابع: في ذكر ملوك صنعاء وعدن.

الباب الخامس: في ذكر زبيد وأمرائها ووزرائها.

غير أن هاته الأبواب لم يقع العثور عليها كلياً. يوجد الباب الأول في نسخة معهد إحياء المخطوطات المذكورة آنفاً وفيه ذكر للدولتين الأيوبية والمماليك البحرية إلى سنة 775. أما البابان الثاني والثالث فهما ضائعان إلى حد الآن. بقي البابان الرابع والخامس المتعلقان بملوك اليمن (صنعاء ـ عدن ـ زبيد) وهما تقريباً نفس القسمين اللذين ذكرهما لنا الخزرجي في كتابه «الكفاية».

هنالك إذن كتابين مختلفين من ناحية المادة والمحتوى مع تشابه كبير في العنوان والتقسيم.

---

(1) انظر قائمة... ص 30.

- أولهما «العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في أخبار الخلفاء والملوك» وهو تاريخ للدول الإسلامية عامة.

- ثانيهما «العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك فيمن ولي اليمن من الملوك» وهو في رأينا نفس الكتاب الذي يحمل عنوان «الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن وملكها في الإسلام» وهو يحتوي على بابين يهمان تاريخ اليمن منذ زمن الرسول إلى سنة 803.

غير أننا نتصور إمكانية أخرى ألا وهي أن الكتابين «تاريخ الخلفاء» العام و «تاريخ اليمن» إلى سنة 803 عبارة عن قسمين من كتاب واحد يحمل اسم «العسجد». ومما يؤكد لنا ذلك ما جاء به البريهي[1] - وهو أحد أعيان المائة التاسعة الذين ترجموا للخزرجي - فقد ذكر لنا البريهي في حديثه عن الخزرجي أنه صنف «العسجد» الذي يشتمل على تواريخ عدة، بحيث يكون كتاب العسجد عبارة عن مجموعة كتب ألفها الخزرجي ومن بينها «الكفاية» و«العسجد المسبوك».

ومهما يكن من أمر فأن كتاب «الكفاية والأعلام» الذي توجد منه نسخة في باريس يشتمل في بدايته على فصل خاص يذكر فيه المؤلف «مسجد صنعاء وما قيل عنه من فضائل»[2]. وقد وضعه الخزرجي معتمداً - فيما يبدو - على عدة مؤرخين نذكر من بينهم الرازي صاحب «تاريخ صنعاء» وهو كتاب لم يصلنا منه إلا الجزء الثالث[3].

أما فيما يتعلق بالمصادر التي استعملت لتصنيف «الكفاية» فيذكر لنا الخزرجي «السلوك في طبقات العلماء والملوك» للجندي[4]، «بهجة الزمن في

---

(1) انظر المؤرخ العربي. . . ص 124.
(2) «الكفاية»: الورقة 4 وجه وظهر. . راجع دراستنا عن «مصادر تاريخ اليمن» - المؤرخ العربي - 10 - 1979 - ص 132 - 115.
(3) انظر نشرة دمشق 1974.
(4) راجع نسخة باريس رقم 2127.

أخبار اليمن» لابن عبد المجيد[1] «كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار» للشريف إدريس[2]، «تاريخ اليمن» لعمارة اليمني، «تاريخ الاستبصار» لابن المجاور. كما أن الخزرجي اعتمد كذلك في عمله على كتب ومصنفات أخرى مثل الهمداني وغيره وقد اختصر في العديد من المرّات قائلاً «ذكر علماء السير».

ومن ناحية أخرى فيعتبر الخزرجي مصدراً هامّاً للعديد من مؤرخي القرون المتأخرة مثل ابن الديبع الذي نسج على منوال «الكفاية» كتاباً سماه «قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون»[3] وهو يشتمل على تاريخ اليمن منذ بداية الإسلام حتى عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب. هناك أيضاً يحيى ابن الحسين الذي وضع غاية الأماني في تاريخ القطر اليماني[4] إلى غير ذلك.

(1) راجع كذلك نسخة باريس رقم 5977 ونشرة القاهرة 1965.
(2) انظر مصادر... ص 138.
(3) انظر نشرة القاهرة تحقيق محمد بن علي الأكوع ـ 1976 ـ جزءان.
(4) انظر نشرة القاهرة تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ـ جزءان ـ هذا وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: (1: 48) أن المؤلف يعني ابن الحسين جمع تاريخ كتابه الآخر «أنباء الزمن» من تواريخ متعددة منها تاريخ ابن الحسن الخزرجي وذيله إلى آخر دولة بني طاهر ودخول الجراكسة» فما هو إذن ذيل هذا الكتاب الذي يكون قد وضع بعد موت الخزرجي (1410/812) وذلك لأن دولة بني طاهر تأسست أعقاب دولة بني رسول أي سنة 1454/858 وتواصلت إلى سنة 1526/933 تاريخ دخول الجراكسة. فلعل مؤلف هذا الذيل من مؤرخي القرن العاشر.

حوليـــــات
الجامعة التونسية

فصلـــة

ابن الديبع مؤرخ اليمن وزبيد
(944 ـ 1537/866 ـ 1461)
حياته ومؤلفاته وتحقيق خاتمة كتابه
«بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد»
ونماذج من نظمه

العدد 18 كلية الآداب
1980 والعلوم الإنسانية

ابن الديبع مؤرخ اليمن وزبيد

(944 ـ 866/1537 ـ 1461)

حياته ومؤلفاته وتحقيق خاتمة كتابه «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد» ونماذج من نظمه

1) مقدمة
2) الترجمة الذاتية محققة
3) شخصية ابن الديبع المؤرخ
4) ملاحظات حول مؤلفاته
5) أرجوزة في تاريخ زبيد

1 ـ مقدمة:

يعدّ اليمن من الأقطار العربية والإسلامية التي لها ماضٍ مجيد وعريق من الناحيتين التاريخية والحضارية. ولا شك أنّ الدور الذي لعبه هذا القطر سواء أثناء الفترة التي سبقت ظهور الإسلام وانتشاره في كامل الجزيرة العربية وخارجها، أو في المدة الإسلامية، فهذا الدور يرجع في الواقع إلى عوامل عديدة منها العامل الجغرافي فاليمن كما وقع تحديده من طرف الجغرافيين والرحالة العرب[1] وغيرهم، يحدّه الحجاز ونجد من الشمال، الخليج العربي،

(1) انظر الجغرافيين العرب الذين حددوا اليمن مثل ابن خرداذابة واليعقوبي وابن الفقيه الهمداني وابن رسته وابن حوقل. انظر كذلك كتب الرحالة مثل المقدسي وابن جبير وابن بطوطة إلى غير ذلك. راجع أيضاً باب اليمن في دائرة المعارف الإسلامية.

من الشرق، البحر العربي، من الجنوب والبحر الأحمر من الغرب. كذلك هنالك العامل الاقتصادي وخاصة منه التجاري حيث أن اليمن عبارة عن همزة وصل بين الغرب والشرق(1). أمّا من الناحية الحضارية فيتجلى لنا تقدم اليمن في عظمة بعض الآثار الباقية كالسدود والقصور والمدن والحصون إلى غير ذلك من المعالم المختلفة(2).

لكن يجب علينا ألا ننسى أن اليمن قد ساهمت أيضاً في النهضة الفكرية(3) وذلك عن طريق كل العلماء والمؤرخين والرواة والفقهاء والإخباريين الذين ولدوا بها ووصلنا منهم العديد من الآثار المتنوعة والمؤلفات الممتازة.

ومن جملة هؤلاء العلماء الذين خصّهم التاريخ بالذكر والذين هم من مواليد اليمن نذكر عبيد بن شرية الجرهمي(4) الذي توفي سنة 686/67 ووهب بن منبه(5) (114ـ 732/34 ـ 654) صاحب «كتاب التيجان» والحسن بن أحمد الهمداني(6) (360 ـ 970/280 ـ 893) صاحب كتابي الإكليل» و «صفة

---

(1) ظل اليمن على هاته الحالة إلى أن اكتشف البحار اليوناني HIPALUS في القرن الأول الميلادي اتجاه الرياح الموسمية في المحيط الهندي بحيث تحولت الطريق البحرية وضعفت الحركة التجارية باليمن. انظر أحمد حسن شرف الدين. «اليمن عبر التاريخ». القاهرة 64 ـ 1963. ص 137.

(2) راجع في هذا الشأن ما ذكره لنا الحسن بن أحمد الهمداني في تآليفه. خاصة «صفة جزيرة العرب» الذي حقق ثلاثة مرات: أولاً في ليدن 91 ـ 1884 عن طريق مولر، ثم في القاهرة 1953 من طرف محمد بن عبد الله بن بلهيد النجدي وأخيراً في الرياض 1974 على يدي القاضي محمد بن علي الأكوع. راجع أيضاً «الإكليل» الجزء الثامن. تحقيق نبيه أمين فارس سنة 1940 بيرنستن.

(3) انظر ما جاء في كتاب أحمد حسن شرف الدين «تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن» القاهرة 1968.

(4) انظر أيمن فؤاد سيد «مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي» المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة 1974. ص 54 ـ 53.

(5) انظر نفس المرجع ص 56 ـ 55. انظر كذلك عبد العزيز الدوري «بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب» المطبعة الكاثوليكية بيروت 1960 ص 103 وما بعدها.

(6) انظر مصادر ص 70 ـ 68.

جزيرة العرب» ونشوان الحميري[1] المتوفى سنة (573/1177). ومن المؤرخين الرازي[2] مؤرخ مدينة صنعاء المتوفى بعد سنة (500/1106) وعمارة اليمني[3] (515 ـ 569/1121 ـ 1173) صاحب «كتاب تاريخ اليمن» وابن سمرة الجعدي[4] (547 ـ 586/1152 ـ 1190) مؤلف «طبقات فقهاء اليمن» والجندي[5] المتوفى سنة (732/1331) صاحب «كتاب السلوك» وابن عبد المجيد[6] (680 ـ 744/1281 ـ 1343) مؤلف «بهجة الزمن» والخزرجي[7] مؤرخ الدولة الرسولية باليمن المتوفى سنة 812/1410 وابن الديبع[8] (866 ـ 944/1461 ـ 1537) وأبو مخرمة[9] (870 ـ 947/1465 ـ 1540) مؤرخ عدن إلى غير ذلك[10].

فقد خلف لنا كل هؤلاء المؤلفين تراثاً هاماً جدّاً ما زالت آثاره باقية إلى حد الآن في العديد من المكتبات العربية والأجنبية[11] حيث نجد مئات بل آلاف من المخطوطات اليمنية التي تهم أصنافاً متنوعة من العلوم خاصة منها المؤلفات التاريخية.

---

(1) انظر نفس المصدر ص 78 ـ 79.
(2) راجع نفس المصدر ص 104.
(3) انظر نفس المصدر ص 108 وما بعدها.
(4) راجع نفس المصدر ص 111 وما بعدها.
(5) انظر نفس المصدر ص 139 وما بعدها.
(6) راجع نفس المصدر ص 142 ـ 43.
(7) انظر نفس المصدر ص 161 وما بعدها.
(8) انظر نفس المصدر ص 200 وما بعدها.
(9) انظر نفس المصدر ص 205 وما بعدها.
(10) انظر نفس المصدر وراجع أيضاً عبد الله محمد الحبشي. «مراجع تاريخ اليمن» دمشق 1972. أحمد حسن شرف الدين «تاريخ الفكر»...
(11) انظر مصادر حيث يذكر لنا أيمن فؤاد سيد قائمة المخطوطات اليمنية المنتشرة في أنحاء العالم. راجع كذلك فؤاد سيد. مخطوطات اليمن. في مجلة معهد المخطوطات العربية (1) 1955 ص 194 ـ 224 صلاح الدين المنجد. فهرس المخطوطات العربية في الامبروزيانا بميلانو. الجزء الثاني. القسم الأول ـ القاهرة 1960.

وقد أدّانا اهتمامنا الخاص بتاريخ اليمن إلى الاطلاع على بعض المخطوطات اليمنية الموجودة في المكتبة القومية بباريس[1]. ومن بين هاته المخطوطات التي ما زالت غير منشورة اطلعنا على مخطوطة لمؤرخ يماني عاش مخضرماً ما بين القرنين التاسع والعاشر للهجرة أي ما يناسب القرن الخامس عشر والسادس عشر للميلاد. وهذا المؤرخ هو وجيه الدين عبد الرحمان بن علي بن محمد بن عمر الشيباني الشافعي الزبيدي المعروف بابن الدّبيع[2]. أما كتابه المقصود فيسمى «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد»[3]. وهو من المؤلفات الأساسية عن تاريخ مدينة زبيد[4] منذ تأسيسها في سنة 204/814 من

---

(1) انظـر : DE SLANE - Catalogue des manuscrits arabes à la B.N. Paris, 1883 - 1885.
DE BLOCHET - Catalogue des manuscrits arabes des nouvelles acquisitions, Paris, 1929. Supplément du catalogue des manuscrits arabes.
من جملة المخطوطات العربية الموجودة في المكتبة القومية بباريس هنالك ما يقارب الخمسين مخطوطة التي تهم تاريخ اليمن في العهد الإسلامي. هذا وقد ألقينا بحثاً حول هذا الموضوع في نطاق مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية الذي انعقد في الدوحة من 21 إلى 27 مارس 1977. انظر المؤرخ العربي. العدد العاشر، 1979، ص 115 ـ 132.

(2) انظر مصادر ص 100 وما بعدها. انظر أيضاً: E.I,II :769 (Van ARENDONK) من الجدير بالذكر أن الديبع (بكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحت وفتح الموحدة في آخره مهملة) كلمة تعني بلغة النوبة المبيض أو الأبيض. راجع خاصة الغزي «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة». 3 أجزاء. تحقيق جبريل سليمان جبور. بيروت 1959 ـ 1954. انظر الجزء الثاني ص 158. الشوكاني «البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع» جزءان. طبعة القاهرة 1348. انظر الجزء الأول ص 335. وهو لقب لجده الأعلى علي بن يوسف.

(3) انظر BLOCHET - Catalogue : المخطوطتين رقم 5897 و 6069.

(4) انظر 50 ـ 1249: E.I,IV (R. STROTHMANN): زبيد هي مدينة تقع في تهامة اليمن. وهي مقر مخلاف من مخاليف اليمن. وعاصمة لدولة مستقلة منذ القرن الثالث/ القرن التاسع. انظر ما جاء في كتاب «صفة جزيرة العرب عن زبيد». راجع كذلك ابن المجاور. «كتاب الاستبصار» ـ «صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز» ـ تصحيح O.LOFGREN ليدن، 1951.

طرف ابن زياد حتى نهاية القرن التاسع/ القرن السادس عشر للميلاد، أي في عهد الملك الطاهري الرابع الظافر الثاني عامر بن عبد الوهاب (923 ـ 1517/894 ـ 1489) الذي اتصل به مؤلفنا وأهدى له البعض من مؤلفاته التاريخية ـ كما سنشير إليه بعد حين.

ويقع كتاب ابن الديبع «بغية المستفيد. . .» في مقدمة وعشرة أبواب. أما المقدمة فيذكر لنا المؤلف فيها «اليمن وفضله وإسلام أهله» كما يحدثنا فيها عن «ابتداء التاريخ الإسلامي وسبب عمله» ثم يذكر «ولاة رسول الله» (ﷺ) و «ولاة أصحابه إلى زمن اختطاط مدينة زبيد».

وفي الباب الأول يتناول بالدرس «مدينة زبيد وفضلها وصفتها ومحلها وأشجارها وأنهارها واختطاطها وأسوارها وأبوابها ومساحتها وعدد أبراج سورها».

ثم ينتقل إلى الباب الثاني حيث يذكر لنا «تملك بني زياد ووزرائهم». ومن ثمة يذكر لنا في البابين الثالث والرابع «ملوك الحبشة من آل نجاح» «والصليحيون ووزراء بني نجاح».

أما الباب الخامس فهو في «ذكر قيام السيد علي بن مهدي وزوال ملك الحبشة» وفي الباب السادس ينقل لنا ابن الديبع أخبار «دولة ملوك بني أيوب» ثم يذكر في الباب السابع «دولة الملوك من بني رسول الغسانيين». ويدرس في بقية الأبواب «دولة الملك المجاهد شمس الدين علي وأخيه صلاح» (الباب الثامن) و «دولة الملك تاج الدين بن داود بن طاهر» (الباب التاسع) وأخيراً «دولة صلاح الدين بن طاهر» (الباب العاشر)[1].

وفي خاتمة هذا الكتاب يذكر لنا ابن الديبع ترجمته Autobiographie التي سنقدمها بعد حين ـ للتعريف بالمؤلف. وإن كانت هاته الترجمة من شأنها أن

(1) انظر: S.LANE POOLE - Mohammaden dynasties, Paris 1925. وخاصة الباب الخاص باليمن «العربية السعيدة» ARABIA FELIX ص. 103 ـ 89 لمعرفة كل دول اليمن منذ القرن الثالث/ القرن التاسع.

تغنينا ـ كما أكّد ذلك أيمن فؤاد سيد[1] ـ عن البحث عن حياته ونشأته في المراجع الأخرى[2].

وقد عثرنا على نسختين مخطوطتين لهذا الكتاب «بغية المستفيد» بالمكتبة القومية بباريس مع العلم أن هنالك العديد من النسخ لنفس هذا الكتاب محفوظة في مكتبات عربية وأجنبية، عامة وخاصة[3] ويصعب علينا في هاته الظروف التحصل على كل النسخ الموجودة للكتاب نظراً لانتشارها في نواحي متعددة في العالم.

النسخة الأولى التي سنسميها (مخطوطة أ) تقع ضمن مخطوطات مجموعة شيفير SCHEFER رقمها 6069 وقد فرغ من نسخها في التاسع عشر من شوال 985/ 1577 وتشمل على 147 ورقة مكتوبة من الجهتين طول كل ورقة 29cm وعرضها 20 cm.

أما النسخة الثانية (مخطوطة ب) فمن نفس المجموعة. رقمها 5897 وقع نسخها في السادس والعشرين من ربيع الثاني 1290/ 1873 وتحتوي على 101 ورقة مكتوبة من الجهتين طول كل ورقة 24 cm وعرضها 17cm. وكلتا النسختين في حالة طيبة ذات كتابة حسنة وقد قام C. THE JOHANSEN [4] بطبع قسم من كتاب «بغية المستفيد» وترجمه للاتينية في بون سنة 1828 غير أن النسخة

---

(1) انظر مصادر. . . ص 201 وما بعدها.

(2) انظر كتب التراجم خاصة «الكواكب السائرة» II ، 185. «شذرات الذهب» 8، 255 «البدر الطالع»: ص 335. راجع كذلك عمر رضا كحالة «معجم المؤلفين»، 15 جزء دمشق 1961 ـ 1957. انظر الجزء الخامس ص 195. الزركلي «الأعلام» ـ 15 جزء. القاهرة 59 ـ 1954. انظر الجزء الرابع ص 91 وما بعدها.

(3) يشير أ. فؤاد سيد في كتابه «مصادر تاريخ اليمن» إلى وجود عدة نسخ لكتاب ابن الديبع «بغية المستفيد» في دار الكتب المصرية والمكتبة التيمورية ومكتبة أحمد الثالث وعلي أميري بقطع النظر عن النسخ الشخصية والنسخ المحفوظة في برلين وبرنستون والمتحف البريطاني وصوفيا. . . إلى غير ذلك. انظر مصادر. . . ص 202.

(4) انظر: E. I, II: 769 (Van ARENDONK) باب ابن الديبع.

المخطوطة التي اعتمد عليها في هذا المضمار (نسخة كوبنهاق Copenhague) ليست سليمة بالمرة حسب المستشرق فون أرندنك[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الترجمة الذاتية التي سنوردها بعد حين في هذا البحث تقع في الأوراق. 143 ـ 147. أ من المخطوطة (أ) بينما نجدها في الأوراق 101. أ ـ 98. ب من المخطوطة (ب).

وقد وجدنا من ناحية أخرى إشارة هامة في خاتمة النسخة الثانية (مخطوطة ب) مفادها أن المؤلف ـ يعني ابن الديبع ـ فرغ من تعليقه ـ أي كتاب «بغية المستفيد» ـ عشية الثلاثاء 6 صفر سنة 906/1500 بينما لم نعثر على ما يناسب هذا التاريخ الدقيق في النسخة الأولى (مخطوطة أ) وهذا يعني في رأينا أن الترجمة الشخصية للمؤلف دوّنها ابن الديبع في تلك السنة (906/1500) وعمره إذ ذاك يناهز الأربعين.

ونحن نعرف أنه توفي سنة 944/1537[2]. بحيث هناك فترة هامة من حياته لم يحدثنا المؤلف عنها خاصة وأن تلك الفترة الأخيرة من حياته توافق من الناحية الزمنية نهاية مملكة الظافر عامر بن عبد الوهاب الذي توفي سنة 923/1517 وبالتالي سقوط الدولة الطاهرية وبداية الحكم المملوكي 927 ـ 923/1521 ـ 1517 الذي سيمتد حتى الفتح العثماني سنة 943/1536[3].

---

(1) انظر نفس المصدر أعلاه ص 769.

(2) انظر «الكواكب السائرة». الجزء الثاني ـ ص 189. ابن العماد الحنبلي «شذرات الذهب في أخبار من ذهب». 8 أجزاء نشر حسام الدين القدسي ـ القاهرة 1351 ـ 1350. انظر الجزء الثامن ص 256. راجع كذلك «البدر الطالع» الجزء الأول ص 335. «الأعلام» الجزء الرابع ص 92 ـ 91.

(3) انظر: Mohammaden dynasties ص 103 ـ 89.

2) الترجمة الذاتية لابن الديبع كما جاءت في خاتمة كتابه «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد»[1].

قال مؤلفه (يعني كتاب «بغية المستفيد»...) بلغه الله مراده وختم له بالسعادة كان مولدي بمدينة زبيد المحروسة في آخر يوم الخميس الرابع من المحرم أول سنة 866/(9 أكتوبر 1461) بمنزل والدي[2] منها وغاب والدي عن مدينة زبيد في آخر السنة التي ولدت فيها ولم تره عيني قط ونشأت في حجر جدي لأمي العلامة الصالح العارف بالله شرف الدين أبي المعروف إسماعيل بن محمد بن مبارز الشافعي[3] رحمه الله تعالى وانتفعت بدعائه لي في أوقات الاستجابة وغيرها وهو الذي حدب[4] ورباني وأطعمني وسقاني وكساني ووساني وعلمني وأوصاني جزاه الله عني بالإحسان وقابله بالرحمة والرضوان. وكان المذكور على قدم في عبادة الله غفر وجل محافظاً على قيام الليل وإحياء ما

---

(1) انظر المخطوطة (أ) الورقة 143 أ وما بعدها حتى الورقة 147 أ والمخطوطة (ب) من الورقة 98 حتى الورقة 101. هذا وقد نقل لنا العيدروس في مؤلفه «النور السافر في أخبار أهل القرن العاشر» هذه الترجمة بأكملها. انظر ص 218 ـ 212 من طبعة بغداد، 1934.

(2) لا يذكر لنا ابن الديبع إلا الشيء القليل عن أبيه الذي يسمى علي بن محمد بن عمر الشيباني. انظر شذرات الذهب» الجزء الثامن ص 256 ـ 255 السخاوي «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» 12 جزء نشره حسام الدين القدسي ـ القاهرة 55 ـ 1953. انظر خاصة الجزء الرابع ص 105 ـ 104. راجع أيضاً إسماعيل باشا البغدادي «هدية العارفين ـ أسماء المؤلفين وآثار المصنفين» جزءان إستانبول 55 ـ 1951. انظر الجزء الأول ص 545 «الأعلام» الجزء الرابع ص 92 ـ 91.

(3) انظر «الضوء اللامع» الجزء الثاني ص 306 ـ 305 حيث يقول لنا السخاوي أن جد ابن الديبع يسمى إسماعيل بن محمد بن أحمد بن مبارز الشرف أبو المعروف اليمني الزبيدي الشافعي. كما يبين لنا في نفس الوقت أنه والد أبي النجا محمد الطيب (الذي هو خال ابن الديبع) وقد كان فقيهاً اشتغل خاصة بحفظ القرآن والتفسير والحديث والتصوف كان مولده سنة 804 ـ 1401 وموته يوم الأربعاء منتصف المحرم 10/884 مارس 1479. انظر المصدر المذكور ص 306.

(4) جاءت حدب في مخطوطة (أ) ص 143 وجذب في مخطوطة (ب) ص 98.

بين العشائين وملازمة الجماعة في الصلوات المفروضة تالياً لكتاب الله تعالى عارفاً بسنة رسول الله ﷺ أخذ العلم عن غير واحد من مشايخ قطره وغيرهم كالعلامة نور الدين القحري[1] والخطيب كمال الدين الضجاعي[2] والنفيس العلوي[3] والشيخ أبي الفتح المدني[4] والمقري شمس الدين الجزري[5]

---

(1) لم نجد له ذكر في تراجم ابن العماد والسخاوي لكننا عثرنا عند مؤلف شذرات الذهب على ترجمة لعالم زبيدي اسمه موفق الدين علي بن محمد بن قحر الشافعي الزبيدي. كان إماماً ومفتياً لزبيد وقد ولد سنة 1356/758 وتوفي في شوال سنة 1438/842. انظر «شذرات الذهب» الجزء السابع ص 243. نلاحظ في هذا الصدد أن العالم الزبيدي الذي أخذ عنه الفقه جد ابن الديبع قد يكون هو نفس العالم الذي ترجم له ابن العماد وخاصة وأنه عاصر ابن مبارز وعرف بعلمه في الفقه والفتاوي غير أن الاسم لا يناسب ما ذكره لنا ابن الديبع. فلعله الفخري كما ذكره صاحب النور السافر ص 212.

(2) انظر «الضوء اللامع» الجزء العاشر ص 190 حيث يذكر لنا السخاوي أن موسى محمد بن موسى بن علي بن محمد بن علي بن هاشم الكمال الضجاعي الزيدي كان مفتي زبيد ومحدثها في نهاية القرن التاسع/ القرن الخامس عشر. كما أنه كان الخطيب بجامع زبيد. وقد مات بعد مرض طويل سنة 1498/904 حسب ابن العماد. انظر «شذرات الذهب» الجزء الثامن ص 25.

(3) لم تجد له ترجمة عند السخاوي وابن العماد وإنما ذكره الضوء اللامع في ترجمة ابن مبارز كأحد الشيوخ الذين أخذ عليهم هذا الأخير العلم والفقه ـ انظر «الضوء اللامع» الجزء الثاني ص 305.

(4) جاءت في تراجم السخاوي ترجمة لأبي الفتح بن محمد بن محمود بن عادل الحسيني المدني المتوفى بعد الثمانين 1475/880 عن إحدى وعشرين سنة والجدير بالذكر أنه من الصعب جداً أن يكون من شيوخ ابن مبارز نظراً لصغر سنه خاصة وأن جد ابن الديبع الذي من المفروض أن يكون أخذ عليه العلم توفي من جهته سنة 1379/884. انظر «الضوء اللامع» الجزء الحادي عشر ص 125. لعله المارفي كما جاء عند العيدروس ص 212.

(5) انظر «شذرات الذهب» الجزء السابع ص 206 ـ 204 حيث يذكر لنا ابن العماد ترجمة للحافظ شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف المعروف بابن الجزري الشافعي مقرىء الممالك الإسلامية. وقد ولد بدمشق ليلة السبت 25 رمضان 1350/751 وتوفي في ربيع الأول 1429/833. وكان لهذا الحافظ صيت كبير في الممالك الإسلامية خاصة في اليمن. وقد ذكره كذلك أبو مخرمة صاحب «تاريخ =

والقاضي زين الدين البرنشكي[1] وغيرهم رحمة الله عليهم.

وصحب الشيخ الصالح شرف الدين أبا المعروف إسماعيل بن أبي بكر الجبرتي[2] الصوفي نفع الله به وقرأ كتب القوم وحققها وكانت اليد الطولى في فتح مغلقها وكان رحمه الله تعالى يوثرني حتى على أولاده الذين لصلبه أثره الله بحبه وقربه.

ثم إني تعلمت القرآن الكريم عند سيدي الفقيه نور الدين علي بن أبي بكر بن خطاب[3] كان الله له حتى بلغت سورة يسين وانتفعت به كثيراً وظهرت نجابتي عنده ثم انتقلت إلى سيدي وخالي الفقيه العلامة جمال الدين أبي النجا محمد الطيب بن إسماعيل بن مبارز[4] جزاه الله عني خيراً فلما رأى نجابتي أمرني بنقل القرآن العظيم من أول سورة البقرة إلى آخره فقرأته عنده شرفاً واحداً حتى ختمته وحفظته لذلك الشرف عن ظهر القلب وأنا إذ ذاك ابن عشر سنين ولله الحمد.

= عدن» في تراجمه للعلماء الذين دخلوا عدن في القرن التاسع. انظر تاريخ «ثغر عدن» لأبي مخرمة تحقيق O.LOFGREN ليدن 1936. انظر نفس الكتاب الذي أعيد طبعه بالأوفسيت بمكتبة المثنى بغداد. راجع الجزء الثاني ص 229. ومما جاء في هاته الترجمة أن الجزري كانت له اليد الطولى في الحديث والقراءات وقد ألف العديد من التصانيف في شتى العلوم. كما أنه عرف بالتنقل في العديد من البلدان خاصة مصر وشيراز والشام والحجاز واليمن ـ وقد قرأ عليه الكثير من فقهاء الوقت عندما دخل زبيد وعدن وتعز. انظر نفس المصدر ص 229.

(1) لم نجد عنه شيئاً في كتاب التراجم التي اطلعنا عليها. جاء عند العيدروس ص 212 مكي.

(2) انظر «الضوء اللامع» الجزء الثاني ص 292 حيث يعطينا السخاوي ترجمة لإسماعيل بن أبي بكر بن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الصمد الشرف أبو المعروف بن الرضى الجبرتي اليماني. وقد ولد هذا الأخير سنة 1405/808 وتوفي في ربيع الأول سنة 470/875 بزبيد وكان إمام للصوفية.

(3) لم نجد عنه شيئاً في كتب التراجم التي اطلعنا عليها.

(4) انظر «الضوء اللامع» الجزء الثامن ص 72. وقد كان خال ابن الديبع جمال الدين محمد بن إسماعيل بن مبارز اليمني فقيهاً وإماماً عالماً توفي حسب السخاوي عشية يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر سنة 1509/915.

ثـم تـوفـى الله والـدي رحمتـه ببنـدر الـديـر[1] بـالهنـد فـي أواخـر سنـة 876/1471 ولم يحصل لي في ميراثه سوى ثمانية دنانير ذهباً. ثم إني أخذت القرآن على خالي المذكور في علم القراءات السبعة فنقلت الشاطبية[2] ثم قرأت القراءات عنده مفردة ومجموعة وتم لي ذلك بحمد الله وعونه.

ثم أخذت في علم العربية على خالي المذكور وعلى غيره وأخذت عليه خصوصاً في علم الحساب والجبر والمقابلة والمساحة والفرائض والفقه حتى انتفعت في كل علم منها ثم قرأت كتاب الزبد في الفقه للإمام شرف الدين البارزي[3] على شيخنا الإمام العلامة الصالح المعمر تقي الدين مفتي المسلمين أبي حفص عمر بن محمد الفتا بن معيد الأشعري[4] رحمه الله، قراءة بحث

---

(1) هكذا جاءت في المخطوطتين (أ) و (ب): الدلي والديو عند العيدروس ص 213.

(2) الشاطبية نسبة إلى أبي القاسم الشاطبي (1194 ـ 1144/590 ـ 538) الذي شهر بمعرفته الواسعة في علم القراءة وتفسيره للقرآن. انظر: E.I,IV: 349 - 350.

كما أن الشاطبية اسم لقصيدة مشهورة جداً «حرز الأماني ووجه التهامي» يذكر لنا فيه الشاطبي طريقة قراءة الحروف ونطقها كما يبين فيه القراءات المختلفة للقراء السبعة. انظر نفس المصدر ص 350 ـ 349.

(3) انظر «شذرات الذهب» الجزء الخامس ص 119 ـ 118 حيث نجد ترجمة لشرف الدين أبي القاسم هبة الله بن قاضي القضاة نجم الدين عبد الرحيم بن القاضي شمس الدين إبراهيم المعروف بابن البارزي الشافعي. وقد كان قاضي حماة، ولد في رمضان سنة 645/1247 وتوفي في ذي القعدة سنة 738/1337 عن 93 سنة. وله تصانيف كثيرة منها «روضات الجنان في تفسير القرآن» وكتاب «الفريدة البارزية في حل الشاطبية». أما «كتاب الزبد» فلا ذكر له عند ابن العماد ولا حتى عند حاجي خليفة في «كشف الظنون».

(4) انظر «الضوء اللامع» الجزء السادس ص 34 ـ 132 وهو ولد عمر بن محمد بن معيبد السراج أبو حفص الأشعري نسبا الزبيدي بلداً ومولداً اليماني الشافعي ويعرف بالفتى من الفتوة وهو لقب أبيه، ولد حسب السخاوي في سنة 801/1398 بزبيد ونشأ بها وقرأ على عدة شيوخ إلى أن أصبح فقيهاً مشهوراً. ويقول لنا صاحب الضوء اللامع في نفس الترجمة أن ابن معيد أكرم من طرف علي بن طاهر عندما استولى هذا الأخير على اليمن وقد تفقه عليه الكثيرون من العلماء وانتفع به في الفقه أهل اليمن حتى أن غالب فقهاء اليمن من تلامذته وأصحابه. وقد توفي في سنة 887/1482.

وتحقيق وفهم وتدقيق في سنة 883/(79 ـ 1478) ثم حججت إلى بيت الله الحرام في آخرها وأنفقت الثمانية دنانير التي ورثتها من والدي رحمه الله في تلك الحجة. ثم قدمت بعد الحج إلى مدينة زبيد وقد توفي بها جدي المذكور في حال غيبتي وكانت وفاته ضحى يوم الأربعاء منتصف المحرم سنة 884/(1479)[1] عن ثمانين سنة غير أربعة أشهر رحمه الله تعالى.

وكان قد ومي يوم رابع موته فأقمت بزبيد عند خالي المذكور في أطيب عيش وأتم سرور ولم أزل عنده حتى ذهبت إلى الحجة الثانية في أواخر سنة 885/(81 ـ 1480) فحججت ثم رجعت إلى مدينة زبيد سالماً غانماً ثم منّ الله علي بصحبة شيخنا الإمام العلامة المحدث فقيه أهل اليمن زين الدين أبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي[2] كان الله له، فأخذت عليه في علم حديث رسول الله (ﷺ) وكان هو المرشد إلى ذلك. جزاه الله عني أحسن الجزاء. فقرأت عنده صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وموطأ الإمام مالك والشفا للقاضي عياض وعمل اليوم والليلة لابن السني[3] والشمائل للترمذي[4]

---

(1) يناسب هذا التاريخ (884/1479) ـ تاريخ وفاة جد ابن الديبع ـ ما نقله بالفعل السخاوي في الترجمة التي خصصها لابن مبارز. انظر «الضوء اللامع» الجزء الثاني ص 306 ـ 305.

(2) انظر «شذرات الذهب» الجزء السابع ص 96 حيث يذكر لنا ابن العماد أن أبا العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي توفي سنة 893/1487 وقد كان ألف كتاباً في تراجم الصوفية عنوانه «طبقات الخواص». نشر في القاهرة سنة 1321 بالمطبعة اليمنية. انظر «مراجع تاريخ اليمن» ص 206 ويذكر لنا الحبشي كتاباً آخر من مؤلفات الشرجي اسمه «لطائف المنن في ذكر من دخل من قريش الشام واليمن». نفس المصدر ص 273. انظر كذلك مصادر ص 217.

(3) «عمل اليوم والليلة» هو في الواقع عنوان لكتب عديدة صنفها علماء مختلفون مثل الإمام الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المتوفى سنة 656/1258 والإمام أبو عبد الرحمان النسائي المتوفى سنة 303/915 والحافظ أحمد بن محمد المعروف بابن السني الدينوري المتوفى سنة 364/974. انظر «كشف الظنون» الجزء الثاني ص 1173 ـ 1172.

(4) كتاب الشمائل الذي يحمل هذا العنوان «الفوائد الجليلة البهية على الشمائل المحمدية» فقد نشر في القاهرة سنة 1306 من طرف محمد بن قاسم بن جاسوس. انظر =

والرسالة للقشيري[1] وجميع مؤلفاته ومصنفاته وما لا يحصى من الأجزاء والكتب اللطيفة وبه تخرجت وانتفعت وألفت في حياته كتابي المسمى «بغاية المطلوب وأعظم المنة فيما يغفر الله من الذنوب ويوجب الجنة»[2] وهو الذي تعلمت به صنعة التأليف والتصنيف والترصيف والتصفيف.

وارتحلت في حياته بإشارته إلى بيت الفقيه[3] ابن عجيل لزيارة الفقهاء بني جعمان[4] فأخذت في الفقه بها على شيخنا الإمام الصالح المقرب ولي الله تعالى جمال الدين أبي أحمد محمد بن الطاهر بن أحمد بن عمر بن جعمان فقرأت عليه «منهاج الطالبين» للنووي[5] جميعه ومن كتاب «الحاوي الصغير»

= SHORTER E.I.: 595. أما حاجي خليفة وإسماعيل باشا فيذكر أن هذا الكتاب تحت عنوان آخر «الشمائل النبوية والخصائل المصطفوية». انظر «كشف الظنون» الجزء الثاني ص 1060. «هدية العارفين» الجزء الثاني ص 19.

(1) لم نعثر في تآليف حاجي خليفة وإسماعيل باشا على كتاب يحمل هذا العنوان «الرسالة». كذلك لم نعثر على مؤلف يحمل اسم القشيري ما عدا طبعاً «مسلم» (الذي يسمى أبو الحسين القشيري النيسابوري صاحب «الجامع الصحيح»). راجع في هذا الخصوص SHORTER.E.I: 417 - 18.

(2) هو من جملة كتب ابن الديبع وقد ذكره كل من ابن العماد (انظر «شذرات الذهب» الجزء الثامن ص 56 ـ 255) وإسماعيل باشا. (انظر «هدية العارفين» الجزء الأول ص 545).

(3) تقع بيت الفقيه ابن عجيل شمال مدينة زبيد، أي في تهامة. ولا يجب علينا أن نخلط بينها وبين بيت الفقيه الزيدية. انظر يحيى بن الحسين «غياية الأماني في أخبار القطر اليماني» تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة 1968. انظر ص 603 و 605 وغيرهما...

(4) انظر ما جاء في تراجم السخاوي («الضوء اللامع» الجزء السابع ص 26) عن بني جعمان.

(5) انظر ترجمة النووي في «شذرات الذهب» الجزء الخامس ص 356 ـ 354 وبقية كتب التراجم. انظر كذلك: SHORTER. E.I.: 444-445.

وقد ولد محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام الفقيه الشافعي الحافظ الزاهد. النواوي ـ بحذف الألف ويجوز إثباتها ـ في محرم سنة 631/أكتوبر 1233 وتوفي في 24 رجب 676/22 ديسمبر 1277 ـ ومن بين تصانيفه العديدة يذكر لنا ابن العماد «كتاب الأذكار» و«رياض =

وتيسيره للبارزي[1] ونظمه لابن الوردي[2] إلى ثلث كل كتاب منها وأخذت في الحديث بها على شيخنا الإمام الأوحد الصالح ذي الفنون العديدة والمآثر الحميدة برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن أبي القاسم بن جعمان فقرأت عليه «كتاب الأذكار» للإمام النووي «والشمائل» للترمذي[3] و «عدة الحصن الحصين» للجزري[4] وغير ذلك وسمعت عنده بقراءة غيري مجالس من صحيح البخاري ومسلم وبعضاً من كتاب الإرشاد ومختصر الحاوي للعلامة شرف الدين

= الصالحين»، أما كتاب «منهاج الطالبين» فقد أتم كتابته سنة 1270/669 وقد نشر في القاهرة سنة 1297. انظر «كشف الظنون» للجزء الثاني ص 76 ـ 1873.

(1) انظر ترجمة البارزي وتآليفه في «كشف الظنون» الجزء الأول ص 26 ـ 625. «ذيل كشف الظنون» الجزء الأول ص 390. وقد توفي البارزي الذي يسمى (فخر الدين عثمان بن كمال الدين محمد بن محمد بن البارزي الحموي الجهني الشافعي) سنة 1329/730. وألف حسب ما جاء في كشف الظنون «مفتاح الحاوي» و«توضيح الحاوي» ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الكتاب «الحاوي» هو من تأليف القزويني في الذي توفي كما جاء عند صاحب «كشف الظنون» سنة 1266/665. انظر ترجمة القزويني «تاريخ ثغر عدن» القسم الثاني ص 11. هذا ومن الملاحظ أن هذا المؤلف ليس نفس الذي كنا ذكرناه سابقاً حيث أنه توفي بعده بثمانية سنوات. انظر تنبيه 15.

(2) انظر ترجمة ابن الوردي في «شذرات الذهب» الجزء السادس ص 162 ـ 161. وقد كان زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس ابن الوردي المصري الحلبي الشافعي إماماً بارعاً في اللغة والفقه والنحو والأدب ومن جملة تصانيفه العديدة نذكر بالخصوص «نظم الصغير» الذي سماه «البهجة الوردية» وهي قصيدة طويلة تعد خمسة آلاف بيت أولها: قال الفقير ابن الوردي: الحمد لله أتم الحمد. انظر في هذا الصدد «كشف الظنون» الجزء الأول ص 627. وقد توفي ابن الوردي في سابع ذي الحجة 1349/759 بحلب.

(3) انظر ما جاء أعلاه في هامش (4) ص 90.

(4) انظر هامش (5) ص 87 فيما يخص ترجمة الجزري وذكر تآليفه. هذا وقد جاء في ترجمة ابن العماد الابن الجزري المتوفى سنة 1429/833 بشيراز (انظر «شذرات الذهب» الجزء السابع ص 206 ـ 204) أن مصنف «الحصن الحصين» وهو كتاب في الأدعية لهج به أهل اليمن. انظر مخطوطة الامبروزيانا لهذا الكتاب وقد ذكرها صلاح الدين المنجد في فهرس المخطوطات العربية بميلانو، 1960، ص 74 تحت رقم Série D 351/131.

ابن المقري[1] وغير ذلك وانتفعت بدعاء كل واحد ومن مشايخي المذكورين ومحبتهم لي رحم الله جميعهم وشكر صنعهم.

ثم حججت الحجة الثالثة في سنة 896 (1490 ـ 1491) وزرت بعد الحج قبر سيدنا رسول الله ﷺ في أواخر ذي الحجة منها ثم رجعت إلى مكة المشرفة في المحرم من سنة 897 (1491) فمن علي الله بلقيا الشيخ حافظ العصر مسند الدنيا فريد الوقت شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمان السخاوي[2] المصري الشافعي فيها فصحبته وانتفعت به وأخذت عليه في علم الحديث النبوي وسمعت عنده كثيراً من صحيحي البخاري ومسلم ومن كتاب «مشكاة المصابيح» للتبريزي[3] وجملة من ألفية الحديث للحافظ أبي الفضل

---

(1) انظر ترجمة ابن المقري في «شذرات الذهب» الجزء السابع ص 222 ـ 220. وقد ولد شرف الدين أبو محمد إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله المقري بن علي بن عطية الشاولاري اليمني الشافعي المعروف بابن المقري سنة 1363/765 وتوفي بزبيد آخر صفر سنة 1433/837 ـ ومن المعلوم أن ابن المقري كان عالماً مشهوراً في اليمن صنف العديد من الكتب مثل «مختصر الروضة» للنووي الذي سماه «الروض» و «مختصر الحاوي الصغير» وشرحه للقزويني. انظر نفس المصدر ص 222 ـ 220.

(2) انظر الترجمة الشخصية للسخاوي التي وردت في «الضوء اللامع» الجزء الثامن ص 2 وما بعدها. وقد ولد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي سنة 1427/831 وتوفي سنة 1497/902 وشهر خاصة بعلمه في التفسير والحديث والأدب وبتصانيفه في علم التراجم وهو تلميذ ابن حجر العسقلاني ومما نشير إليه بصفة خاصة أن ابن الديبع الذي أخذ العلم عن السخاوي قد التقى معه في سنة 1491/897 (حينما كان مؤلفنا يبلغ من العمر 31 سنة بينما كان الآخر سنه 68 سنة) ويدخل لقاء السخاوي بابن الديبع في نطاق زيارته التي أداها لليمن والتي مكنته من الالتقاء بالعديد من العلماء اليمنيين. انظر «شذرات الذهب» الجزء الثامن ص 16 ـ 15، «هدية العارفين» الجزء الثاني ص 221 ـ 219. راجع كذلك مصادر 192 ـ 191.

(3) انظر ترجمة التبريزي في «شذرات الذهب» الجزء السادس ص 114. وقد عاش قطب الدين محمد بن عمر التبريزي الشافعي الذي شغل منصب قاضي بغداد ما يناهز 68 سنة وتوفي سنة 1335/736 ومن جملة تصانيفه كتاب «مشكاة المصابيح» الذي حققه محمد ناصر الدين الألباني في 3 أجزاء ونشره المكتب الإسلامي.

العراقي[1] ومن شرحها له المسمى «بفتح المغيث لشرح ألفية الحديث»[2] وقرأت عليه كتاب «بلوغ المرام من أدلة الأحكام» للحافظ أبي الفضل بن حجر[3] وبعضاً من كتاب سيرة ابن سيد الناس اليعمري[4] المسماة «بعيون الأثر»

---

(1) انظر ترجمة الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمان بن أبي بكر بن إبراهيم المهراني العراقي الشافعي في «شذرات الذهب» الجزء السابع ص 56 ـ 55 وهو من مواليد جمادي الأولى سنة 725/1325. ومما يذكر أنه قام بعدة رحلات إلى دمشق وحلب والحجاز وولي القضاء بالمدينة سنة 788/1384 وصنف كتباً كثيرة في علم الحديث. وكانت وفاته سنة 805/1402 أو 806/1403 عن 81 سنة. ومن جملة تآليفه «ألفية العراقي» في أصول الحديث وأولها.

يقـــول راجـــي ربـــه المقتـــدر عبد الرحيم بن الحسين الأثري

وقد انتهى منها حسب صاحب «كشف الظنون» (انظر الجزء الثاني ص 1235) في جمادي الآخرة سنة 768/1367 ـ 1366.

(2) «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث» هو كتاب من تأليف الحافظ أبي الفضل العراقي. وقد أتمه في رمضان 771/1370. انظر في هذا الخصوص «كشف الظنون» الجزء الأول ص 156.

(3) انظر ترجمة ابن جعفر في «شذرات الذهب» الجزء السابع ص 73 ـ 270 و «الضوء اللامع» الجزء الثاني ص 40ـ 36 وبقية كتب التراجم. انظر كذلك ما خصصه المستشرق F. ROSENTHAL لهذا العالم في E.I(N.E.), III: 799 - 802 ومن المعلوم أن ابن حجر هي نسبة إلى آل حجر وهو يسمى شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن نور الدين بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الكناني العسقلاني الأصل المصري المولد وقد ولد في شعبان 773/28 فيفري 1372 وتوفي ليلة السبت 28 ذي الحجة 52/118 فيفري 1449 وله تآليف عديدة نذكر من بينها «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» وقد حققه في القاهرة في 4 أجزاء محمد سيد جاء الحق سنة 1966: «أنباء العمر بأبناء العمر»، «بلوغ المرام بأدلة الأحكام» انظر نفس المصادر المذكورة أعلاه. وقد جاء الكتاب الأخير تحت عنوان «بلوغ المرام في أحاديث الأحكام» في «كشف الظنون» (انظر الجزء الأول ص 254).

(4) انظر ترجمته في كتاب السبكي «طبقات الشافعية» القاهرة 1324 الجزء السادس ص 31 ـ 29. راجع كذلك «هدية العارفين» الجزء الثاني ص 149 وما خصصه له F.ROSENTHAL في E.I(N.E.). III: 957 وكان ابن سيد الناس اليعمري يسمى محمد بن أبي عمرو محمد بن أبي بكر محمد بن أحمد الإمام أبو الفتح الأندلسي ولد بالقاهرة في =

وبعضاً من كتاب «رياض الصالحين» للنووي وثلاثيات البخاري وما لا يحصى من الأجزاء والمسلسلات وكان يجلني ويشير إلي ويعظمني ويقدمني على سائر الطلبة ويوثرني وأحسن إلي كثيراً جزاه الله عني خيراً.

ثم لما رجعت من الحج إلى وطني ألّفت كتابي المسمى «كشف الربة في شرح دعاء الإمام أبي حربه»[1] ثم ألفت بعده كتاب التاريخ هذا المسمى «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد»[2] ولما وقف عليه مولانا السلطان صلاح الدين الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر[3] جدد الله سعوده ونصر جنـوده ـ طلبني إلى مجلسه الشريف العالي واستجاده واستحسنه دعا لي ونبهني على إلحاق أشياء فيه كنت أغفلتها واستدراك فوائد شوارد لم أكن ذكرتها. ثم اختصرت له منه كتابي المسمى «بالعقد الباهر في تاريخ دولة بني طاهر»[4]

= 14 ذي القعدة 671/2 جوان 1273 وتوفي في 1 شعبان 734/17 أفريل 1334. ومن تآليفه «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل السير» وهي عبارة عن دراسة شاملة لحياة الرسول ﷺ وقد حقق هذا الكتاب في القاهرة ونشر سنة 1356.

(1) هو من تآليف ابن الديبع ولكنه ضائع. وقد ذكره كل من ابن العماد (انظر «شذرات الذهب» الجزء الثامن ص 255) وإسماعيل باشا. (انظر «هدية العارفين» الجزء الأول ص 545).

(2) يعتبر هذا الكتاب ـ كما سبق أن قلناه ـ من أهم الكتب التاريخية التي ألفها ابن الديبع ووصلتنا. وهو عبارة عن تاريخ شامل لمدينة زبيد مسقط رأس المؤلف منذ تأسيسها إلى سنة 901/96 ـ 1495. وتوجد من هذا الكتاب عدة نسخ مخطوطة موزعة في عدة مكتبات في العالم وقد اطلعنا على نسختين منه توجدان بباريس تحت رقم 5897 و6069. انظر مصادر ص 202.

(3) هو رابع وآخر سلاطين زبيد من الدولة الطاهرية وقد جاء ملكه بعد موت منصور تاج الدين عبد الوهاب الذي توفي سنة 894/1488. وبقي في الحكم إلى أن مات سنة 923/1517. وتناسب هده السنة دخول المماليك إلى اليمن وفتحهم لها. انظر «بغية المستفيد» الباب العاشر. دولة صلاح الدين عامر بن طاهر بن طاهر: مخطوطة باريس رقم 5897 من الورقة 79 حتى 98 ومخطوطة رقم 6069 من الورقة 113 إلى 139. راجع كذلك: Mohammaden dynasties: 101.

(4) «العقد الباهر» هو في الواقع مختصر لكتاب «بغية المستفيد» لابن الديبع وقد ذكره كل =

وذكرت فيه دولة جديه ووالده[1] ومآثرهم الحميدة ودولته المباركة الميمونة السعيدة فلمّا وقف عليه مولانا السّلطان أفاض على مواهب الجود والاحسان وأجازني من مواهبه الهنية بجائزة ميمونة ثم حصلت هذا التاريخ تحصيلاً عظيماً وتقدمت به إلى مولانا السلطان وهو إذ ذاك بمحروسة المقرانة[2] مقيماً وتقدّمت إليه فأثابني بثواب عظيم عليه وأفاض علي من مواهب كرمه ما يقصر صوب الغمام عن غزير ديمه. ولم أزل عنده في روض وجود فائض عريض حتى أذن لي في الرجوع إلى وطني وخلع علي خلعة نفيسة وأكرمني وتصدق علي بدمنة سلطانية بمدينة زبيد للسكنى أعطاني[3] قطعة نخل بوادي زبيد وصيّرني لإحسانه قنّاً وتلافاني بعد التلف وتدارك وجعل لي قراءة الحديث بجامع زبيد على المنبر المبارك فرجعت مسروراً إلى الوطن في نعمة وافرة وحال حسن شاكراً لجوده وإحسانه معترفاً بفضله وامتنانه سائلاً الله تعالى أن يجمع الخلق على طاعته وأن يمد في أيام دولته وأن يعز بمتابعته كل صبار شكور ويذل بمخالفته كل ختار كفور، ويجمع له بين نصره العزيز وفتحه المبين ويجعل كلمة الملك

= من حاجي خليفة (انظر «كشف الظنون» الجزء الأول ص 311 الجزء الثاني ص 1150) وإسماعيل باشا (انظر «هدية العارفين» الجزء الأول ص 545) وهو من الكتب الضائعة راجع كذلك مصادر ص 204 وما كتبه: V. ARENDONK في E.I(N.E.), III: 769.

(1) يبين لنا ابن الديبع أنه ذكر في «العقد الباهر» تاريخ جدي السلطان عامر بن عبد الوهاب ووالده. وهذا يعني بالتدقيق السلطان ظافر صلاح الدين عامر الأول (870 ـ 858/66 ـ 1454) والمجاهد شمس الدين علي (883 ـ 870/79 ـ 1478 ـ 1466) من ناحية والسلطان منصور تاج الدين عبد الوهاب (894 ـ 883/89 ـ 1488 ـ 79 ـ 1478) من ناحية أخرى ـ انظر في هذا الخصوص «بغية المستفيد» الباب الثامن والتاسع مخطوطة رقم 5897 من الورقة 51 إلى 79 ومخطوطة رقم 6069 من الورقة 72 إلى 113. راجع كذلك: Mohammaden dynasties: 101 مصادر ص 399 ـ 398.

(2) المقرانة: هو حصن باليمن ـ انظر ياقوت. معجم البلدان وهو مستقر ملك الطاهريين. انظر في هذا الشأن «غاية الأماني» ص 564 ـ 598 ـ 615 إلى غير ذلك. وقد خربت في سنة 923/1517 عند دخول الجراكسة (المماليك) إلى اليمن انظر: «غاية الأماني» ص 651.

(3) جاءت منسوخة «أعفالي» في كلتا النسختين ولعلها «أعطاني».

باقية فيه وفي عقبه إلى يوم الدين. . .

أمين أمين لا أرض بواحدة حتى أضيف إليها ألف أمينا[1]

3) ملاحظات حول شخصية ابن الديبع المؤرخ:

لم يكن ابن الديبع محدثاً وفقيهاً فحسب بل كان كذلك مؤرخاً وله مؤلفات تاريخية تهم اليمن بصفة عامة وزبيد بصفة خاصة.

وقد رأينا من الصالح أن نشير في دراستنا لحياة ابن الديبع ولمؤلفاته لبعض النقاط نعتقد أنها لعبت دوراً كبيراً في تكوين شخصيته العلمية وتتعلق هذه النقط بمسقط رأسه زبيد وبوسطه العائلي وأسفاره وإقامته في بلاط السلطان عامر بن عبد الوهاب.

أما زبيد[2] فنحن نعرف حق المعرفة أنها مدينة من أشهر المدن اليمنية وترجع أهميتها إلى الدور الرئيسي الذي لعبته سواء في المجال السياسي حيث كانت عاصمة لعدة دول مستقلة[3] نذكر منها الدولة الزيادية (409 ـ 1018/204 ـ 829) والدولة النجاحية (553 ـ 1158/412 ـ 1021) ودولة بني مهدي (569 ـ 1179/554 ـ 1159) أو في المجال الثقافي والديني إذ أنها

---

(1) كانت نهاية الكتاب في مخطوطة رقم 5897 كما يلي:

«والحمد لله الواحد الوهاب. قال مؤلفه رحمه الله تعالى وغفر له ونفع به ووصل سببي بسببه. فرغت من تعليقه عشية الثلاثاء السادس من شهر صفر المبارك من سنة ست وتسعمائة والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات».

(2) انظر مقال R. STROTHMANN عن زبيد في E. I (A.E.), IV: 1249.

(3) انظر خاصة «بغية المستفيد» (مخطوطة في نسختين توجد بالمكتبة القومية بباريس تحت رقم 5897 و 6069) ما خصصه ابن الديبع لدراسة هذه الدول. انظر بصفة أدق الأبواب الأربعة الأولى للكتاب. مخطوطة (أ) 6069 من الورقة 15 إلى 38. ومخطوطة (ب) 5897 من الورقة 11 إلى 27. انظر كذلك مقال زاهر رياض «دولة حبشية في اليمن» في المجلة التاريخية المصرية (8) 1959 ص 130 ـ 101.

كانت مركزاً هاماً من مراكز الشافعية في اليمن الذي لا يخضع للمذهب الزيدي الشيعي. ومما يؤيد اعتقادنا هذا ما ذكره لنا ابن الديبع بنفسه في عدة مناسبات عندما تحدث عن حنينه لوطنه وتعلقه الشديد بمدينة زبيد التي قضى أغلب فترات حياته فيها والتي خصص لها العديد من مؤلفاته التاريخية. وقد أشار بالخصوص في كتابه «بغية المستفيد[1] في أخبار مدينة زبيد» أن هذا الكتاب عمل لم يشرع فيه أحد من قبله مما يدلنا على الأهمية التي يعلقها ابن الديبع لمدينة زبيد ولتاريخها وحضارتها.

ومن جملة ما قاله ابن الديبع عن زبيد نذكر ما يلي: «وهي بلاد العلم والعلماء والفقه والفقهاء والدين والصلاح والخير والفلاح ولم نعلم مدينة من مداين المعمورات ومساكنها المشهورات ظهر فيها ما ظهر في مدينة زبيد من العلم والعلماء والاثبات. هذا مع قلة أهلها وأرزاقهم الدقيقة فهم أهل السعادة في الدارين حقيقة وهي أم قرى اليمن ومحط رحال العلماء في كل فن»[2].

ثم لا ننسى أن ابن الديبع ولد كما جاء في ترجمته وفي بقية كتب التراجم[3] في وسط عائلي مثقف وقد نشأ وترعرع وتلقن قسماً من تعلمه في هذا الوسط. فجده ابن مبارز[4] الذي رباه واهتم بتربيته أثر تغيب أبيه في الهند ثم موته كان مشهوراً بعلمه للفقه والحديث. كذلك الحال بالنسبة لخاله أبي النجا محمد بن إسماعيل[5] الذي اعتنى بمؤلفنا بعد وفاة جده وقد كان مثل أبيه فقيهاً ومفسراً. فلعل نشأة ابن الديبع في مثل هذا الوسط العائلي المثقف وفي مدينة

---

(1) انظر مقدمة كتاب ابن الديبع «بغية المستفيد» المذكور أعلاه.

(2) انظر نفس المصدر الورقة 16 (ب) من المخطوطة (أ) 6069 والورقة 11 (ب) من المخطوطة (ب) 5897: الباب الأول: «ذكر مدينة زبيد وفضلها».

(3) انظر ترجمة ابن الديبع في «الكواكب السائرة» الجزء الثاني ص 185 هـ «شذرات الذهب» الجزء الثامن ص 255، «البدر الطالع» الجزء الأول ص 335. راجع كذلك «الأعلام» الجزء الرابع ص 91 و 769. E.I (N.E.), III.

(4) انظر ترجمته في «الضوء اللامع» ص 306 ـ 305.

(5) انظر ترجمته في «الضوء اللامع» الجزء الثامن ص 72.

هامة كزبيد من العوامل التي مكنته من الاطلاع على العديد من كتب الفقه والحديث والمؤلفات الدينية المختلفة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن الديبع ذكر لنا في ترجمته ما لا يقل عن عشرين عالماً وفقيهاً أخذ عليهم العلم بصفة مباشرة وعدد لنا ما يقارب الثلاثين كتاباً درسها على أساتذته بقطع النظر عن حفظه للقرآن منذ طفولته وتعلمه أصنافاً شتى من العلوم كالقراءة وفنونها، والحساب والجبر والمساحة والمقابلة والفرائض.

ومما لفت انتباهنا في تعداد ابن الديبع لأساتذته وللكتب التي درسها عليهم هو أن جلّ هؤلاء العلماء من الشافعية وهذا أمر من شأنه أن يعطينا فكرة عن الحالة الثقافية وعن البيئة الاجتماعية والدينية في زبيد في أواخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر (القرنان الخامس والسادس عشر). ثم إن مثل هاته الإشارة تشعرنا بأهمية التراث الشافعي الذي بدأ يدخل اليمن منذ القرن الرابع والخامس[1] (العاشر والحادي عشر للميلاد) وتواصل بعد ذلك بصفة منتظمة. ثم إن الكتب التي قال ابن الديبع أنه قرأها ملياً وتعمق فيها أغلبها كتب فقه وحديث وهذا أمر يدلنا على طبيعة ومحتوى التكوين الذي يتلقاه طلبة العلم آنذاك في القطر اليماني.

أما فيما يتعلق بأسفار ابن الديبع خارج زبيد فقد رأينا أنه بدأ يطلب العلم والمعرفة في زبيد ثم إنه قام ببعض الأسفار خاصة إلى الحجاز حيث أدّى فريضة الحج ثلاث مرّات على الأقل: المرة الأولى في سنة 883/1479 وعمره إذ ذاك 17 أو 18 سنة، المرة الثانية سنة 885/1481، والحجة الثالثة سنة 897/1491 ولا ندري هل قام بحجّات أخرى في آخر حياته ـ وقد زار من ناحية أخرى بيت الفقيه ابن عجيل حيث اتصل ببعض الفقهاء من بني جعمان كما التقى بمكة أثناء

(1) انظر ابن سمرة الجعدي «طبقات فقهاء اليمن» (تحقيق فؤاد سيد. القاهرة 1957) ص 79 وما بعدها.

حجته الثالثة بالعالم المصري السخاوي[1] الذي أفاده كثيراً وأطلعه على العديد من كتب الفقه والحديث والتفسير. ثم نجده بعد ذلك في مدينة المقرانة مستقراً السلطان الطاهري عامر بن عبد الوهاب الذي دعاه إلى بلاطه اهتماماً منه بمصنفاته وتشجيعاً له على الكتابة التاريخية وقد أشار ابن الديبع في ترجمته إلى أن الظافر[2] أمدّه بنصائح مفيدة تهم تاريخ زبيد وبني طاهر كما أنه أكرمه وجعل له في آخر إقامته قراءة الحديث بجامع زبيد.

كيف توصّل ابن الديبع إلى بلاط هذا السلطان وما هي العوامل التي تفسّر رعايته لمؤلفنا؟

لا شك أن رعاية رجال الحكم من السلاطين والأمراء والملوك للمؤلفين من شعراء ومؤرخين من الأشياء المعهودة التي نجدها في العديد من البلدان والأقطار وفي مختلف الأزمنة. وهي تدل ـ فيما يخص ابن الديبع الذي يهمنا في هاته الدراسة ـ على مدى الأهمية التي يعلقها هذا السلطان على دولته وعلى إشعاعها في اليمن وخارجها فلا ننسى أن ابن الديبع استدعى لبلاط الطاهريين بعد تأليفه لكتاب «تاريخ زبيد» ثم إنه كلف بكتابة تاريخ دولة بني طاهر وخصص لذلك كتاباً سماه «العقد الباهر في تاريخ دولة بني طاهر». فهذا يعني إذن أن ابن الديبع كان مشهوراً لدرجة أن عامر بن عبد الوهاب رأى من الصالح أن يستقبله في بلاطه ويسند إليه الهدايا ويكلفه بعد ذلك بدور هام ألا وهو قراءة الحديث بجامع زبيد.

فالسؤال الذي ينبغي أن نطرحه على أنفسنا هو هل أن هاته الرعاية وهل كل ما أبداه السلطان من تشجيع مادي ومعنوي لابن الديبع هل أن كل هذا من شأنه أن يؤثر في موقف ابن الديبع المؤرخ إزاء السياسة الطاهرية في اليمن آنذاك[3]؟

---

(1) انظر ترجمة السخاوي لنفسه في «الضوء اللامع» الجزء الثامن ص 2 وما بعدها.

(2) الظافر هو السلطان عامر بن عبد الوهاب. انظر مصادر ص 399.

(3) انظر ما كتبه الديبع عن بني طاهر في كتابه «بغية المستفيد» و«العقد الباهر». انظر كذلك ما جاء في «غاية الأماني» عن بني طاهر ص 586 وما بعدها.

هل يمكن أن نقول: أن ابن الديبع كان منحازاً للنظام الطاهري ومدافعاً عن سياسة الطاهريين بصفة عامة؟

ثم نود أن نشير إلى نقطة أخرى تهم موقف ابن الديبع المؤرخ والشاهد عيان إزاء قضيتين عاصرهما:

ـ **أولاً**: ماذا كان موقفه كمؤرخ وكزبيدي إزاء الجراكسة[1] أو (المماليك) الذين دخلوا اليمن في آخر أيام بني طاهر وقضوا على الدولة الطاهرية التي نشأ في ظل آخر سلطان لها؟

ـ **ثانياً**: ما هو رأيه في الدّولة الزيدية التي عاصرها والتي كانت تحكم قسماً هاماً من اليمن منذ سنة 284/998[2] أن تتوصّل إلى السيطرة على كامل القطر اليماني في منتصف القرن الحادي عشر (1045/1635)؟ وهذه القضية لها قيمتها خاصة وأنّ ابن الديبع كان شافعي المذهب بينما كان الزيديون شيعيين وبنو طاهر ينتمون إلى الأمويين.

ثم إن ابن الديبع زبيدي المولد بينما كانت هناك منافسة شديدة بين زبيد التي تمثل من الناحية الدينية اليمن الشافعي وبقية المدن اليمانية وخاصة منها صنعاء التي تقع في اليمن الأعلى والتي ستصبح عاصمة الدولة الزيدية الشيعية فيما بعد.

نلاحظ أن هذا التنافس بين زبيد وصنعاء ليس في الواقع نتيجة وضع جغرافي وديني وسياسي فحسب بل إنه كذلك تنافس مبني على واقع فكري

---

(1) من المعلوم أن الحكم المملوكي دام في اليمن قرابة العشرين سنة (بين 923/1517 و943/1537) جاء إثره الحكم العثماني (1045 ـ 1635/943 ـ 1537). انظر مصادر ص 399 وما بعدها.

(2) أسست الدولة الزيدية في صعدة سنة 284/898). انظر خاصة رسالة V. ARENDONK عن الامامة الزيدية. راجع أيضاً: Mohammaden dynasties: 102 - 103 انظر مقال محمد عبد الله ماضي عن «دولة اليمن الزيدية» في المجلة التاريخية المصرية II، 1959 ص 35 ـ 15.

وحضاري معين فزبيد مدينة حديثة العهد أسست سنة 814/204 ولعبت منذ ذلك الوقت دوراً كبيراً في جميع الميادين ـ بينما صنعاء من المدن اليمانية التي يرجع تأسيسها إلى زمان بعيد جدّاً وقد جاء في بعض الروايات التي نقلها لنا الرازي أنها أسست من طرف سام بن نوح «وأنها كانت تسمى في الجاهلية أزال» (نسبة لأزال بن يقطر بن غابر) حتى دخلها الحبشي وكان كلامهم يقولون صنعت وصنعت فلزمها اسم صنعاء من يومئذ»[1].

إن دراسة دقيقة لجميع مؤلفات ابن الديبع التاريخية من شأنها أن تعيننا على الإجابة على كل هاته التساؤلات التي أثرناها.

وعلى العموم فحياة ابن الديبع يمكن أن نقسمها إلى أربع فترات زمنية مختلفة:

ـ أولا: فترة الطفولة وبداية التعلم التي رأينا أن نحصرها بين سنتي 1461/866 و 1479/884 تاريخ وفاة جده. وتمتاز هاته الفترة بحدثين هامين: أولهما موت أبيه بالهند سنة 1473/876 وقد ذكر لنا ابن الديبع أنه لم يره قط. ثانيهما نشأته في حضن جده لأمه وتعلمه القرآن وعلوماً أخرى مثل الحساب والفقه[2].

ـثانياً: ثم فترة الشباب التي قضاها كما رأينا في طلب العلم على شيوخ وأساتذة مختلفين من جملتهم خاله أبو النجا والعالم الشرجي والفقيه السخاوي. وقد أداه اطلاعه وتعلمه خلال هاته الفترة إلى التنقل خارج موطنه وتمتاز هاته الفترة التي تمتد إلى حوالي سنة 1491/897 (تاريخ سفره إلى مكة ولقائه مع العالم السخاوي ثم رجوعه إلى زبيد) ببداية تصنيفه للكتب وخاصة كتاب «غاية المطلوب» و «كشف الكربة».

---

(1) انظر الرازي: «تاريخ صنعاء اليمن». مخطوطة توجد في نسختين بالمكتبة القومية بباريس رقم 1643 و 5824. انظر الورقات 3 ـ 2 ـ 1 من المخطوطة رقم 1643 والورقات 5 ـ 4 ـ 3 من المخطوطة رقم 5824.

(2) انظر «الكواكب السائرة» الجزء الثاني ص 159.

ـ ثالثاً: فترة أصبح فيها ابن الديبع مؤلفاً مشهوراً وعالماً ذا قيمة مما يفسر لنا إقامته في بلاط السلطان عامر بن عبد الوهاب مدة من الزمن لم يحددها لنا. وقد ألف خلال هاته الفترة التي تواصلت إلى سنة 1500/906 تقريباً كتباً تاريخية منها «بغية المستفيد» و«العقد الباهر».

ـ رابعاً: الفترة الأخيرة من حياة ابن الديبع وهي فترة لا نعرف عنها أشياء كثيرة حيث أن المؤلف ـ كما قلنا ذلك من قبل ـ قد يكون وضع ترجمته الشخصية سنة 1500/906 بعدما أتم كتاب «بغية المستفيد» وهذا يعني أن المؤلف قد يكون قضى كل هاته المدة (1500/906 و 1537/914) في بيته ومسجده لتصنيف الكتب وتدريس الحديث. وقد جاء في ترجمته الغزي لابن الديبع أن هذا الأخير اجتمع سنة 1508/914 بالشيخ جار الله فهد المكي الذي زار اليمن آنذاك وأخذ العلم من مؤرخنا.

كما ذكر لنا الشوكاني[1] من ناحيته أن ابن الديبع كان عالماً مشهوراً لا سيما في فن الحديث وأن شهرته في اليمن تواصلت حتى القرن الثالث عشر/ القرن التاسع عشر.

أما ابن العماد[2] فأكد أن مؤلفنا كان حافظاً للآثار والأخبار أخذ عنه

---

(1) راجع «البدر الطالع» الجزء الأول ص 336.

(2) انظر «شذرات الذهب» الجزء الثامن ص 255. وقد نقل لنا ابن العماد بعض الأبيات التي كان ابن الديبع قالها في أهل عصره:

(وافر)

أجـزت لمـدركـي عصـري ووقتـي	روايـة مـا تجـوز روايتـي لـه
مـــن المقـــرؤ والمسمـــع طـــر	ومـا ألفـت مـن كتـب قليلـة
ومـالـي مـن مجـاز عـن شيـوخـي	مـن الكتـب القصيـرة الطـويلـة
وأرجـــو الله يختـــم لـــي بخيـــر	ويـرحمنـي بـرحمتـه الجـزيلـة

انظر نفس المصدر. انظر كذلك ما نقله لنا العيدوس من الشعر المنسوب لمؤلفنا. النور السافر، ص 218 وما بعدها.

الأكابر كالحافظ السيد الطاهر بن حسين الأهدل[1] وغيره وقد انتهت إليه رئاسة الرحلة في علم الحديث والعبادة إلى أن توفي ضحى يوم الجمعة السادس والعشرين من رجب 944/1537. وقد صلي عليه بمسجد الأشاعرة[2] ودفن بتربة باب سهام عند قبة الشيخ الجبرتي وخلف ولده يقرأ الحديث عوضه في «جامع زبيد الكبير».

4) ملاحظات حول مؤلفات ابن الديبع:

كان ابن الديبع من العلماء الذين قاموا بتأليف العديد من الكتب والمصنفات في شتّى العلوم[3]. غير أنّ هذه المؤلفات لم يصلنا منها إلا القليل النادر. وسنحاول أن نقسمها إلى ثلاثة أنواع: المؤلفات التاريخية وكتب الفقه والتفسير والحديث ثم بقية مؤلفاته من قصائد وأراجيز وغير ذلك.

1) المؤلفات التاريخية: يمكن لنا حصرها فيما يلي:

ـ كتاب «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد»[4] الذي ألفه ابن الديبع

---

(1) انظر «مراجع تاريخ اليمن» ص 58 حيث يذكر لنا الحبشي من جملة المؤلفين محمد بن الحسين الأهدل صاحب كتاب «بغية الطالب بمعرفة أولاد علي بن أبي طالب» بدون أن يذكر لنا بصفة مدققة تاريخ وفاته. فلا نرى إن كان هذا المؤلف هو الحافظ الذي أخذ العلم عن ابن الديبع. هذا ويذكر لنا أيمن فؤاد سيد في كتابه «مصادر تاريخ اليمن» (انظر ص 178) الشيخ الحسين بن عبد الرحمان بن محمد الأهدل الذي توفي سنة 855/1451 وقد كان مشهوراً في زمانه باليمن.

(2) الأشاعرة هم الأشعريون (نسبة إلى قبيلة أبي موسى الأشعري) وكانوا من زبيد.

(3) انظر مصنفات ابن الديبع كما ذكرها أصحاب كتب التراجم خاصة ابن العماد (انظر «شذرات»: 8 ص 256 ـ 255) الغزي (انظر «الكواكب السائرة»: 2: ص 159 ـ 158) الشوكاني (انظر «البدر الطالع»: ص 336 ـ 335). راجع كذلك «كشف الظنون» ص 250 «*وذيل كشف الظنون*» ص *225*.

(4) انظر ما قلناه عن الكتاب في مقدمة دراستنا لابن الديبع.

وأتمه سنة 906/1500 وقد سبق أن تحدثنا عن محتواه وأهميته التاريخية.

- «الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد»[1] وهو عبارة عن تكملة لكتابه السابق يصل فيه ابن الديبع إلى حوادث سنة 923/1517 (أي تاريخ موت آخر سلاطين بني طاهر ودخول المماليك إلى اليمن).

- «قرة العيون في أخبار اليمن الميمون»[2] وهو كتاب عام في تاريخ اليمن يقع في ثلاثة أبواب:

- **الباب الأول:** في ذكر اليمن ومن ملك صنعاء وعدن ويقع في 10 فصول.

- الفصل الأول: في فضل اليمن وما يتعلق بذلك.
- الفصل الثاني: في ذكر إسلام أهل اليمن وذكر عمال الرسول (ﷺ).
- الفصل الثالث: في ذكر عماله بعد وفاته عليه السلام.
- الفصل الرابع: في ذكر عمال بني أُمية.
- الفصل الخامس: في ذكر عماله في الدولة العباسية.
- الفصل السادس: في ذكر القرامطة باليمن وذكر علي بن الفضل.
- الفصل السابع: في ذكر الأمراء المتغلبين على صنعاء.
- الفصل الثامن: في ذكر ظهور الدولة الصليحية.
- الفصل التاسع: في ذكر ملوك صنعاء بعد الصليحيين.
- الفصل العاشر: في أخبار الدولة الزريعية واستيلاء الزريعيين على عدن.

---

(1) انظر «شذرات»: 8: ص 255، «كشف الظنون» ص 250، «هدية العارفين» ص 545. راجع كذلك مصادر ص 202، مراجع ص 244، الأعلام ص 91. ومما تجدر الإشارة إليه أن لهذا الكتاب نسخا مخطوطة توجد في مكتبات القاهرة وبرلين وصوفيا ولندن وقد قام بتحقيقه حسب ما ذكره لنا أيمن فؤاد سيد في كتابه «مصادر تاريخ اليمن» محمد عيسى صالحية ونال به درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة عين شمس.

(2) انظر نفس المصادر أعلاه خاصة مصادر ص 202 وما بعدها. مراجع ص 251. الأعلام 4 ص 91.

ـ **الباب الثاني:** في ذكر مدينة زبيد وأمرائها وملوكها ووزرائها ويقع في 18 فصلاً.

ـ الفصل الأول: في ذكر اختطاط مدينة زبيد وتملك بني زياد.

ـ الفصل الثاني: في ذكر ملوك الحبشة باليمن من آل نجاح.

ـ الفصل الثالث: في ذكر وزراء آل نجاح.

ـ الفصل الرابع: في قيام ابن مهدي وزوال ملك الحبشة.

ـ الفصل الخامس: في ذكر دولة بني أيوب.

ـ الفصل السادس: في ذكر دولة بني رسول وأولهم الملك الناصر عمر بن علي.

ـ الفصل الثامن: حتى الفصل الثامن عشر: ذكر ملوك بني رسول الواحد بعد الآخر.

ـ **الباب الثالث:** في ذكر الدولة الطاهرية ويقع في 3 فصول:

ـ الفصل الأول: في ذكر دولة الملك المجاهد وأخيه الظافر.

ـ الفصل الثاني: في ذكر الملك المنصور تاج الدين عبد الوهاب بن داود.

ـ الفصل الثالث: في ذكر الظافر الثاني عامر بن عبد الوهاب.

ويعدّ هذا الكتاب[1] من أهم المؤلفات التاريخية عن دولة بني رسول (858ـ1454/626ـ1229) ودولة بني طاهر (923 ـ 1517/850ـ1146)

---

(1) يقع هذا الكتاب في عدة نسخ مخطوطة تمكنا من الاطلاع على نسختين وجدناهما في المكتبة القومية بباريس تحت رقم 5821 و 6058. وتقع النسخة الأولى رقم 5821 في 74 ورقة مكتوبة من الجهتين. طول كل ورقة 29 وعرضها 20cm ولم نجد تاريخاً لهاته النسخة. أما النسخة الثانية رقم 6058 فتقع في 18 ورقة مكتوبة من الجهتين كل ورقة طولها 24cm وعرضها 17cm وقد نسخت 1313/96 ـ 1895: هذا وقد قام بتحقيقه أخيراً والتعليق عليه القاضي محمد بن علي الأكوع الحوالي انظر طبعة القاهرة جزءان 1977.

اللتين حكمتا زبيد وقسماً من اليمن ما بين القرنين السابع والعاشر (القرون الثالث عشر حتى السادس عشر).

ـ «العقد الباهر في تاريخ دولة بني طاهر»(1) وهو كتاب ضائع اختصره المؤلف للملك الظاهر بن عبد الوهاب وذكر فيه دولة جديدة (الظافر الأول عامر بن طاهر والمجاهد علي بن طاهر) ووالده (المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر).

ـ «تاريخ الدولتين الناصرية والظاهرية»(2) وهو عبارة عن كتاب يذكر فيه ابن الديبع دولة الناصر ابن الأشرف المتوفى سنة 827/1424 والظاهر بن الأشرف المتوفى سنة 842/1438.

وهو من الكتب التي لم تصلنا أو على الأقل لم يعثر عليها العلماء إلى حد الآن.

2) القصائد والأراجيز: نذكر من بينها:

ـ «أحسن السلوك في نظم من ولي مدينة زبيد من الملوك»(3) وهي أرجوزة تقع في 119 بيت لها مقدمة في 7 أبيات يليها قسم أول في «ذكر اختطاط زبيد وذكر بني زياد وولايتهم ومن وزر لهم» (24 بيت) ثم قسم ثان في «ذكر وزراء بني نجاح والصليحيين» (19 بيت) وثالث في «ذكر دولة بني مهدي» (6 أبيات) ويذكر لنا ابن الديبع في بقية الأرجوزة «دولة بني أيوب» (10 أبيات) و ـ «دولة بني رسول» (33 بيت)، وهو أطول قسم للأرجوزة وأخيراً «دولة بني طاهر» (20 بيت) وقد اطلعنا على هاته الأرجوزة التي جاءت في آخر مخطوطة

---

(1) انظر «كشف الظنون»: 2: ص 1150، «هدية العارفين»: 2: ص 545. مصادر ص 204. مراجع ص 222.

(2) انظر مصادر ص 205. مراجع ص 77. انظر كذلك الجرافي «تحفة الاخوان بجلية علامة الزمان وحليف السنة والقرآن» (طبعة القاهرة سنة 1361) ص 58.

(3) انظر «كشف الظنون»: 1: ص 311 ـ 310، «هدية العارفين»: 1 ص 15. راجع كذلك مصادر ص 202. مراجع ص 21. الاعلام: 4: ص 91.

كتاب «بغية المستفيد» الموجود في المكتبة القومية بباريس[1] كما وجدنا نفس الأرجوزة في مخطوطة أخرى بنفس المكان[2].

ـ «منظومة في تاريخ مدينة زبيد»[3].

ـ «قصيدة في تفصيل تعزّ وبعض المدن الجبلية»[4].

3) المؤلفات الأخرى:

ـ «فضائل اليمن وأهله»[5] وهي عبارة عن رسالة تقع في ثلاثة فصول وقد ذكر لنا أيمن فؤاد سيد أن مكتبة الامبرزيانا بميلانو تملك نسختين مخطوطتين منها.

ـ «مختصر العطايا السنية»[6] وهو عبارة عن كتاب لخّص فيه ابن الديبع ما جاء في كتاب آخر ألفه الملك الأفضل عباس بن علي بن داود بن رسول اليمني المتوفى سنة 778/1377 وعنوانه الكامل «العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية»[7]. وقد ذكر فيه المؤلف من دخل اليمن من الصحابة كما ترجم للعديد من العلماء والأولياء والوزراء. وهذا الكتاب مرتب على الحروف فرغ منه الأفضل الرسولي سنة 770/1368.

---

(1) انظر مخطوطة رقم 5897 بالمكتبة القومية بباريس وتقع الأرجوزة في الأوراق 95 ـ 98. ثم نفس المخطوطة في نسخة أخرى رقم 6069 وتقع القصيدة في الأوراق 139 ـ 143.

(2) انظر المخطوطة رقم (5832) التي تحتوي على كتاب للخزرجي «تاريخ اليمن» ثم أرجوزة ابن الديبع عن زبيد التي تقع في الأوراق 126 و127 وقد نسخت هاته المخطوطة سنة 1130/1719.

(3) انظر مصادر. . . ص 203. نعتقد أنها الأرجوزة التي ذكرناها.

(4) انظر نفس المصدر ص 203.

(5) انظر نفس المصدر ص 205.

(6) انظر مصادر. . . ص 205. مراجع ص 282.

(7) انظر مصادر ص 148. مراجع ص 220.

- «تمييز الطيّب من الخبيث مما يدور على ألسنة الناس من الحديث»(1) وهو كتاب في الحديث نشر بالقاهرة سنة 1324.

- «تيسير الوصول إلى جامع الأصول»(2) ويقع هذا الكتاب في مجلدين. وقد هذب فيه حسب الغزي(3) جامع الأصول وجمع فيه الكتب الستة وله فيه بعض الأبيات من الشعر:

4) (الطويل):

كتابي تيسير الأصول الذي حوى أصول الحديث الستة عز نظيره
فمن معانيه اعتنى ودروسه وتحصيله استغنى ودام سروره

أما الشوكاني فقد قال عنه أن المؤلف «اختصره اختصاره حسناً وتداوله الطلبة وانتفعوا به»(4) وقد نشر هذا الكتاب في القاهرة سنة 1324(5) في 3 أجزاء. وذكر لنا صاحب هدية العارفين تنقيحاً لهذا الكتاب «تنقيح الوصول وجامع الأصول لأحاديث الرسول»(6).

- «غاية المطلوب وأعظم المنة فيما يغفر الله به من الذنوب ويوجب الجنة»(7) وهو من الكتب التي ذكرها ابن الديبع في ترجمته وقال إنه ألفه بعد سنة 885/1480 عندما كان العلم على الشيخ الشرجي. وقد يكون أول تأليف

(1) انظر «هدية العارفين»: 1: ص 545. راجع كذلك الأعلام 4 ص 91 ـ وE.I (A.E.), III I: 392.
(2) انظر «شذرات»: 8: ص 256 ـ 255، «الكواكب السائرة»: 2: ص 159 ـ 158. انظر كذلك «البدر الطالع»: 1 ص 336 ـ 335، الاعلام: 4: ص 91.
(3) انظر «الكواكب السائرة»: 2: ص 159 ـ 158.
(4) انظر «البدر الطالع» ص 336 ـ 335.
(5) انظر: E.I (A.E), III, 392.
(6) انظر: «هدية العارفين»: 1: ص 545.
(7) انظر: «شذرات»: 8: ص 256 ـ 255، «هدية العارفين»: 1: ص 545.

قام به ابن الديبع وتعلم به «صفة التأليف والتصنيف»[1].

- «كشف الكربة في شرح دعاء الإمام أبي حربه»[2] ذكره لنا ابن الديبع في ترجمته وقال إنه أتم كتابته في مدينة زبيد بعد رجوعه من مكة سنة 897/1491 وهو من الكتب الضائعة التي لم تصلنا -.

ويذكر لنا صاحب شذرات الذهب[3] مؤلفات أخرى من بينها «مصباح المشكاة» وكتاب «المعراج» دون أن يعطينا فكرة واضحة عن محتواها. كما يذكر لنا البعض من أشعاره خاصة ما قاله في صحيحي البخاري ومسلم:

(الطويل):

تنازع قوم في البخاري ومسلم   لدي وقالوا أي ذين يقدم
فقلت لقد فاق البخاري صنعة   كما فاق في حسن الصياغة مسلم

أو قوله فيهما:

قالوا لمسلم سبق   قلت البخاري حلى
قالوا تكرر فيه   قلت المكرر أحلى

وقد نقل لنا يحيى بن الحسين في كتابه «غاية الأماني» بعض الأبيات التي كان قالها ابن الديبع في رثاء السلطان عامر بن عبد الوهاب[4] وأخاه عبد الملك:

(الطويل):

أخلاي ضاع الدين من بعد عامر   وبعد أخيه أعدل الناس بالناس
فمذ فقدا والله والله أننا   عن الأمن والسلوان في غاية اليأس

---

(1) انظر: ما جاء في ترجمة ابن الديبع عن هذا الكتاب.
(2) انظر ما جاء في ترجمة مؤلفنا عن هذا الكتاب.
(3) انظر «شذرات» 8 ص 256. يذكر لنا صاحب «النور السافر» بعضاً من مؤلفات ابن الديبع (انظر ص 220) ومنها «مصباح المشكاة»، «مولد شريف نبوي» «كتاب المعراج».
(4) انظر: «غاية الأماني» ص 653.

وله أيضاً[1]:

تحطم من ركن الصلاح مشيده	وقوض من نيانه كل عامر
فما من صلاح فيه بعد صلاحه	ولا عـامـر والله مـن بعـد عـامـر

أخيراً يمكن القول أن ابن الديبع يمثل حقاً أنموذجاً للمؤرخ اليمني المحلي الذي عاش مخضرماً ما بين القرنين التاسع والعاشر (الخامس عشر والسادس عشر) وأرخ خاصة لدولة بني رسول ودولة بني طاهر التي عاش مدة زمنية في ظل آخر سلاطينها عامر بن عبد الوهاب.

وقد كان ابن الديبع بقطع النظر عن مؤلفاته التاريخية التي نعتبرها هامة جداً لدراسة تاريخ اليمن وزبيد في العهد الرسولي والطاهري خاصة، عالماً ذا شهرة كبيرة ومحدثاً ذاع صيته في كامل اليمن ألف العديد من كتب الحديث والفقه وأفاد الكثير من الطلبة الذين جاءوا إلى زبيد وأخذوا العلم عنه.

وعلى العموم فيعدّ ابن الديبع «مؤرخ اليمن وزبيد» قبل كل شيء.

5) أرجوزة ابن الديبع حول زبيد «أحسن السلوك في نظم من ولي مدينة زبيد من الملوك»[2].

قـال فقيـر الله عبـد الـرحمـان	ابن علي الديبع[3] راجي الغفران
الحمـــد لله العلـــي الأمجـــد	وصـــل يـــا رب علـــى محمـــد
وبعـد فـالتـاريـخ علـم نـافـع	فـاعـن بـه فكـم لـه منـافـع
فـأن مـن يعلـم علـم مـن مضـى	لـدى جميـع العـالميـن مـرتضـى

(1) راجع نفس المصدر.

(2) ننشر هذه الأجوزة كما جاءت في ثلاثة مخطوطات وجدناها في المكتبة القومية بباريس رقم 5897 ـ 6069 و (2) 5832.

(3) جاءت هاته القصيدة على لسان مؤلفنا ابن الديبع.

وهـاك خـذ يـا ذا النهـا مـوقفـا نظمـــا فصيحـــا محققـــا
فيمـن ولـي زبيـد منـذ اختطـت إلـى زمـانـنـا بتسـع المـائـة
فـألـق سمعـا نحـو مـا أقـول والله عـونـي وهـولـي كفيـل

ذكر اختطاط مدينة زبيد[1] وذكر بني زياد[2] وولايتهم بها ومن وزر لهم:

زبيـد بـالتحقيـق يـا أخـا الرشـد اختطهـا فـي شهـر شعبـان وقـد
مضى من الهجرة ضعف المائة وأربـع مـن سنـوات الهجـرة
محمـد نجـل زيـاد الأمـوي[3] مستخلف المأمون ذي البأس القوي
جعلهـا المـذكـور دار ملكـه ولـم يـزل إقليمهـا فـي ملكـه
وعـــام خمســـة وأربعينـــا ومـــائتيـــن مـــات ذا يقينـــا
فخلـف ذا المـذكـور إبـراهيـم[4] سليلـــه المـــوفـــق الحليـــم
وبعـد تسـع وثمـانيـن مضـت ومـائتيـن مـات ذا ثـم ثبـت

---

(1) انظر مقال: R.STROTHMANN في 1249 :E.I(A.E), IV.

(2) تعتبر دولة بني زياد من أول الدول المستقلة باليمن وقد أسست سنة 819/204 واستقرت إلى سنة 1018/409. انظر خاصة ما جاء في كتاب عمارة اليمني عن هاته الدولة «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد» تحقيق حسن سليمان محمود (القاهرة 1957) ومحمد بن علي الأكوع (القاهرة 1976)،

(3) يشير ابن الديبع إلى تأسيس واختطاط زبيد عن طريق محمد بن زياد الذي يدعي أنه من سلالة الأمويين. انظر في هذا الشأن «قرة العيون». مخطوطتا باريس رقم 5821 (الورقة 19 وما بعدها) و 6058 (الورقة 28 وما بعدها). «تاريخ الخزرجي» مخطوطة باريس (1) 5832 (الورقة 23 وما بعدها). راجع كذلك «بغية المستفيد»، مخطوطتا باريس رقم 6069 (الورقة 17) و 5897 (الورقة 12) «تاريخ الجندي»، مخطوطة باريس رقم 2127 (الورقة 29 وما بعدها). راجع أيضاً حسن سليمان محمود «تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي» (بغداد 1969) ص 124 ـ 117 و 1249: E.I (A.E.), IV.

(4) إبراهيم هو ابن محمد بن زياد مؤسس الدولة الزيادية وقد ملك زبيد من سنة 859/245 إلى سنة 901/289. انظر نفس المصادر أعلاه. راجع كذلك: Mohammaden dynasties: *90*.

في الملك نجله زياد[1] ثم لم   تطل به مدته بل انعدم
ثم أبو الجيش[2] أخو ذا إسحاق   نخبة إبراهيم زاكي الأعراق
ودام ملكه ثمانين سنة   ولثلاثمائة ولسنه
من بعد تسعين[3] توفي عن ولد   طفل زياد اسمه هذا أحد
ما قيل بل قيل إبراهيم   وقيل عبد الله[4] يا حليم
ثم تولى أمره رشيد[5]   عبد أبيه البطل الشديد
فضبط الملك له وماتا   غير بعيد فحوى الثباتا
في أمره عبد رشيد الحسين   ابن سلامة[6] الموفق الأمين
كان من الملك له حقيقته   وابن أبي الجيش له تسميته
وكان عند المسلمين مرتضى   وضبط الملك زمانا وقضى
قام ثلاث بعد أربع المائه   فرحمه الله عليه هاميه
ثم أقاموا من بني زياد   طفلاً صغيراً غير ذي رشاد

---

(1) لم تطل مدة زياد بن إبراهيم في الملك لأنه توفي بعد سنتين (291 ـ 290/903 ـ 901). انظر نفس المصادر أعلاه. راجع كذلك تاريخ «ثغر عدن»: 2. 3. الأعلام 3. 89.

(2) هو أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم وقد حكم زبيد من سنة 291/904 إلى سنة 371/983. وهو أخو زياد بن إبراهيم. انظر نفس المصادر. راجع كذلك «ثغر عدن» 2: 16. الأعلام 1: 285.

(3) هذا غلط لأن أبا الجيش حكم كما قلنا ثمانين سنة فتكون وفاته لا سنة 391 بل سنة 371.

(4) لا يذكر لنا ابن الديبع اسم ولد أبي الجيش بصفة دقيقة وهذا يعني أنه لم يكن معروفاً. انظر نفس المصادر أعلاه. وراجع كذلك «تاريخ ثغر عدن» 2: 59. الأعلام 2: 257 «تاريخ اليمن السياسي» ص 117.

(5) هو أستاذ حبشي تكلف بكفالة ولد إسحاق من طرف هند بنت إسحاق. ولم تطل مدته (انظر نفس المصادر أعلاه) ومما يذكر أن رشيد كان وزيراً لبنت إسحاق أبي الجيش.

(6) الحسين بن سلامة هو كذلك عبد حبشي تقلد الوزارة بعد موت رشيد ولعب دوراً كبيراً في توطيد الدولة الزيادية. كما اشتهر باختطاطه لمدينتي الكدراء والمعقر وبناءه للجوامع والمنارات. وقد توفي سنة 403/1012 ـ 1013 ودامت وزاراته ما يقارب الثلاثين سنة. انظر نفس المصادر أعلاه.

واســم هــذا الطفــل عبــد الله[1] كفلــه عبــد الحسيــن الــزاهــي
مـرجـان مقتني نفيس ونجـاح[2] فقتـــل الطفـــل نفيـــس وأزاح
ســنــة سبــع ثــم أربــع مضــت من المائتين وبذا الطفل انقضت
دولـــة الأنجـــاد بنـــي زيـــاد فملكهـــم يكـــون بـــالتعـــداد
مـدتـه بـالضبـط ضعـف المـائـة ثـم ثـلاث مـن سنيـن صحـت

ذكر الوزراء بني نجاح[3] وذكر الصليحيين[4]

ثــم تنــافــس نفيــس ونجــاح على تولي ملك مولاهم فصاح
نفيــس مــن بــاب زبيــد قتــلا وأخــذ الملــك نجــاح سهــلا
وجــازه مــن عــام إثنتــي عشــر وأربــع المــائيــن بعــد الهجــرة
إلى وفـــاتـــه بعـــد إثنتيـــن وأربـع مـن المـائـة وخمسيـن[5]
وثــار بعــده الصليحــي علــى[6] علــى بنيــه بــالبــلا حتــى ولــي

---

(1) هو آخر ملوك بني زياد وقد قتل سنة 407/1017 من طرف عبد لوزيره مرجان اسمه نفيس. انظر نفس المصادر أعلاه.

(2) نفيس ونجاح هما عبدان لمرجان تنافسا على الحكم فقتل نفيس سيده ابن زياد سنة 407/1017 وعمته هند ـ ثم تمكن نجاح من قتل نفيس سنة 412/1021 وبها تنتهي دولة بني زياد. انظر نفس المصادر أعلاه.

(3) جاءت الدولة النجاحية بعد انتهاء دولة بني زياد. وقد أسسها نجاح عبد مرجان سنة 412/1021 واستمرت في الحكم إلى سنة 554/1149. انظر كل المصادر المذكورة أعلاه بالإضافة إلى مقال زاهر رياض «دولة حبشية في اليمن» في المجلة التاريخية المصرية (8) 1959 ص 130 ـ 101 و 93 ـ 92: Mohammaden dynasties.

(4) الصليحيون هو في الواقع حكام صنعاء وذي جبلة (535 ـ 439/1140) وقد قاموا بعدة محاولات للسيطرة على زبيد لذلك جاء ذكرهم مع بني نجاح. انظر ما جاء في المصادر المذكورة عن الدولة الصليحية.

(5) بعد قتل نفيس اضطلع نجاح بمهام الحكم في زبيد وتمكن من البقاء على العرش من سنة 412/1012 إلى سنة 452/1060. انظر نفس المصادر أعلاه.

(6) هو علي بن محمد بن علي الصليحي مؤسس الدولة الصليحية سنة 439/1047. وقد تمكن من السيطرة على زبيد مدة طويلة من سنة 454/1062 إلى سنة 439/1080 (تاريخ قتله من طرف سعيد الأحول بن نجاح). انظر ما جاء عن الدولة النجاحية في =

الملك عام خمسة وخمسين   وأربع من المائين تمضين
ومات بالمهجم قتلا قاتله   سعيد الأحوال[1] فهو صائله
وملك البلاد وولى   الملك قهرا أحمد نجل علي
أعني به المكرم الصليحي[2]   وعاد الأحول بالتصحيح
سنة تسع بعد سبعين وقد   مضت من المائين أربع عدد
فلم يزل مالكها حتى قتل   سنة إحدى وثمانين نقل
فيم استمر بعده أخوه   جياش[3] حتى مات فاعلموه
عام ثمان بعد تسعين وقل   أربع مائة قبل ذلك يا رجل
ثم ابنه الفاتك[4] حين ماتا   من بعد خمسمائة وفاتا
عام ثلاث ثم منصور ابنه   ثم ابنه فاتك[5] كان دفنه

= «بهجة الزمن» مخطوطة باريس 5977 (الورقات 32 ـ 29) «قرة العيون» مخطوطة باريس 5821 (الفصل الثاني من القسم الثاني الورقات 45 ـ 91) «تاريخ الجندي» مخطوطة باريس 2127 (الورقات 186 وما بعدها) «تاريخ الخزرجي» مخطوطة باريس (1) 5832 (الورقات 28 ـ 26). راجع: كذلك ما جاء في هاته المصادر عن الصليحية ثم انظر رسالة حسن سليمان محمود: «الصليحيون وعلاقاتهم بالفاطميين في مصر» القاهرة دون تاريخ.

(1) سعيد الأحول هو ابن نجاح وقد استطاع القضاء على علي واسترداد زبيد في سنة 1060/452 حتى سنة 1089/481.

(2) المكرم أحمد بن علي الصليحي كان على رأس الدولة الصليحية بصنعاء من سنة 1081/473 إلى سنة 1091/484 وقد استرجع زبيد سنة 1082/475 حتى سنة 1086/479 ثم أخذها من جديد سنة 1088/481 قبل أن يفقدها بصفة نهائية سنة 1091/483. انظر نفس المصادر أعلاه.

(3) هو جياش بن نجاح تمكن من استرجاع زبيد بعد القضاء على المكرم الصليحي سنة 1091/483 واستمر في الحكم حتى سنة 1104/498.

(4) هو الفاتك بن جياش ملك زبيد مدة تتراوح بين سنتي (1104/498) و (1109/503) انظر نفس المصادر أعلاه.

(5) بعد موت فاتك تملك ابنه المنصور حتى سنة 1127/521 ثم جاء الفاتك بن المنصور حتى 1137/531. انظر نفس المصادر أعلاه.

سنة إحدى وثلاثين مضت | من بعد خمسمائة قد انقضت
فابن أخيه فاتك[1] بعد ولي | ابن محمد بن منصور انقل
قتله عبيده في سنة | ثلاث وخمسين وخمسمائة
ثم انقضت دولتهم موفيه | إحدى وأربعين من بعد المثيه

ذكر دولة بني مهدي[2]

وقام في الملك ابن مهديّ علي[3] | سنة أربع ولما آن ولي
مات بعامه فقام مهدي[4] | ولده من الملك ثم اردى
بالموت في عام ثمان الخمسين | بعد المئات الخمس بغير تخمين
ثم ولي عبد النبي[5] أخوه | من بعده ومات فاعلموه
لتسع ستين وخمسمائة | قد انقضت من سنوات الهجرة
مدتهم في الملك خمس عشرة | رأى بها دين الهدى ما يكره

---

(1) هو آخر ملوك بني نجاح وقد ملك زبيد بعد موت الفاتك بن منصور من سنة 531/1137 حتى انقراض الدولة النجاحية سنة 553/1158.

(2) جاءت دولة بني مهدي القرمطية إثر زوال دولة بني نجاح وقد استمرت تحكم زبيد مدة تتراوح بين سنتي 553/1158 و 569/1174. انظر في هذا الصدد «بهجة الزمن» (م 5977) الأوراق 46 ـ 42. «قرة العيون» (م 5821) الباب الرابع من القسم الثاني. «تاريخ الجندي» (م 2127) الورقة 188. «تاريخ الخزرجي» (م 5832) 30 ـ 28. راجع كذلك ما جاء في: Mohammaden dynasties: 96.

(3) علي بن مهدي هو مؤسس الدولة وقد حكم زبيد مدة قصيرة من سنة 553/1158 إلى سنة 554/1159. انظر المصادر أعلاه.

(4) هو مهدي بن علي وقد حكم زبيد بعد موت أبيه سنة 554/1159 حتى سنة 558/1163. انظر نفس المصادر أعلاه.

(5) هو عبد النبي بن علي. جاء بعد أخيه مهدي (569 ـ 558/1174 ـ 1163). انظر نفس المصادر أعلاه بالإضافة إلى «تاريخ ثغر عدن» 2: 127. «طبقات فقهاء اليمن» ص 182. «الأعلام» 4: 320. وبموته انقضت دولة بني مهدي.

ذكر دولة بني أيوب[1]

وطلب الدين عزيز النصره — فحازه توران[2] رب الشهرة
وذاك بعد قتله عبد النبي — فاحفظ هدية ما أقول تصب
ثم تولى توران شاه ملك اليمن — ثم أخوه طغتكين[3] ذو المنن
للتسع والخمسين والخمسمائة — ولثلاث وتسعين هيه
من بعد خمسمائة مات وقد — ولي ابنه المعز بعده عدد
سنين ثم مات قتلا في سنة — ثمان وتسعين[4] وفي الملك ثبت[5]
سنة إحدى عشرة مات وقد — وليها المسعود[6] بعده وسد

---

(1) فتح بنو أيوب اليمن سنة 569/1174 ونحن نعلم أنهم كانوا يملكون كل من مصر والشام والعراق وقد تمكنوا بعد ذلك من السيطرة على كامل اليمن والقضاء على الدولة المستقلة هناك كدولة بني مهدي في زبيد ودولة بني همدان في صنعاء والدولة الزريعية بعدن وقد استمرت سيطرة بني أيوب على اليمن حتى سنة 625/1227. انظر في هذا الصدد «بهجة الزمن» (م5977) الأوراق 50-46. «قرة العيون» (م5821) الباب الخامس في القسم الثاني. «تاريخ الجندي» (م 2127) الورقة 189. «تاريخ الخزرجي» (م5832) الأوراق 39 - 31. راجع كذلك: R.STROTHMANN و .Mohammaden dynasties: 98.

(2) هو: توران شاه بن أيوب ولي زبيد واليمن من سنة 569/1174 إلى سنة 577/1181 انظر نفس المصادر أعلاه. «الأعلام 2: 74.

(3) السلطان طغتكين بن أيوب جاء بعد أخيه سنة 577/1181 حتى سنة 593/1196. انظر نفس المصادر أعلاه. الأعلام 4: 327.

(4) ولي المعز إسماعيل بن طغتكين بن أيوب الحكم سنة 593/1197 ومن الملاحظ أنه خرج عن المذهب السني واتبع مذهب الإسماعيلية وقد ادعى الخلافة قبل أن يقتل في زبيد سنة 598/1202. انظر نفس المصادر أعلاه. بالإضافة إلى «تاريخ ثغر عدن» 2: 29. الأعلام: 1: 372.

(5) تولى الملك الناصر أيوب بن طغتكين بن أيوب الأمر باليمن بعد قتل أخيه المعز وبقي في الحكم حتى سنة 611/1214. انظر نفس المصادر أعلاه. «تاريخ ثغر عدن» 2: 24. الأعلام: 1: 372.

(6) يعتبر المسعود يوسف بن الكامل محمد آخر من تولى أمر اليمن من الأيوبيين وقد استقر حكمه من سنة 612/1214 إلى سنة 626/1228. انظر نفس المصادر بالإضافة إلى الأعلام: 9: 328.

خللهـا مـن إثنتـي عشـر إلـى	سنـة خمـس مـع عشـريـن ولا
أو التـي تلـي وكـان آخـرا	ملـك بنـي أيـوب عنـه آخـرا

ذكر دولة بني رسول (بنو غسّان)[1]

ثم ولي منصورها الرسولي[2]	نيـابـة الملـك فحقـق قـولـي
ثـم استقـل لثـلاثيـن سنـة	بعـد المـائة السّتة وكـان حسنـه
مـن حسنـات الـدهـر ثـم مـات	سنـة سبـع الأربعيـن فـاتـا
ثـم ولـي ولـده المظفـر[3]	ودام ملكـه القـوي القـاهـر
لأربـع التسعيـن والستمـائـة	مـات وقـد أقـام فيمـا وليـه
ولـده الأشـرف[4] ثـم مـاتـا	لسـت تسعيـن ولمـا فـاتـا
ولي أخـوه الملـك المـؤيـد[5]	وبعـد سبعمـائـة تعـدد
مـات سنة إحدى مع العشرينا	وقـد وليـه بعـده سنينـا

(1) بانتهاء سيطرة بني أيوب على اليمن تولى بالأمر الرسوليون من بني غسان. ومن الملاحظ أن مؤسس الدولة الرسولية المنصور عمر بن علي بن رسول هو ابن والي مكة من طرف آخر ملوك بني أيوب المسعود. وقد استمر بنو رسول في الحكم أكثر من القرنين من سنة 626/1229 إلى سنة 858/1454. انظر في هذا الصدد «بهجة الزمن» (م باريس 5977) الأوراق 122 ـ 50. «قرة العيون» (م باريس 5821). انظر القسم الثاني من باب السادس حتى الثامن عشر. «تاريخ الخزرجي» (م باريس (1) 5832) الأوراق 125 ـ 38. انظر كذلك الخزرجي «العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية». (جزءان ـ تصحيح محمد بسيوني عسل القاهرة 1911) و Mohammaden dynasties: 99.

(2) استمر المنصور عمر بن علي في الحكم حتى سنة 647/1249. انظر المصادر المذكورة أعلاه. بالإضافة إلى «تاريخ ثغر عدن» 2: 174.

(3) تولى المظفر يوسف بن عمر الأمر بعد أبيه وبقي على رأس الدولة الرسولية مدة طويلة (694 ـ 647/1295 ـ 1249). انظر نفس المصادر. الأعلام: 9: 321.

(4) الأشرف الأول عمر بن يوسف لم تدم فترة ملكه السنتين (96 ـ 694/1297 ـ 1295). انظر نفس المصادر أعلاه. الأعلام: 5: 232.

(5) ولي بعده أخوه المؤيد هزبر الدين داود بن يوسف مدة تتراوح بين سنتي 696/1297 و721/1322. انظر نفس المصادر أعلاه. بالإضافة إلى الأعلام: 3: 12.

سليله المجاهد الرسولي[1] ... وقام في مقامه علانيه
ولده الأفضل[2] مات لثمان ... من بعد سبعين وفي الملك استبان
الأشرف ابن الأفضل الغساني[3] ... ومات بالتحقيق والبيان
عام ثلاث وثماني مائه ... ثم ابنه الناصر[4] عالي الهمة
مات لسبع ولعشرين مضت ... بعد الثمان المائة التي خلت
ثم ابنه المنصور[5] حتى ماتا ... عام ثلاثين وبعده أتى
أخوه إسماعيل ثم الظاهر[6] ... وكان ملكه العظيم الفاخر
سنة إحدى وثلاثين كما ... حققه المؤرخون القدما
ومات يحيى الظاهر بن الأشرف ... سنة إثنتين وأربعين في
آخر شهر رجب ثم ولي ... سليله الأشرف[7] ما كان ولي

---

(1) يعتبر المجاهد علي بن المؤيد داود خامس سلاطين بني رسول باليمن وذلك من سنة 1322/721 إلى سنة 1363/764. انظر نفس المصادر أعلاه بالإضافة إلى «تاريخ ثغر عدن»: 2: 139. الأعلام: 5: 97.

(2) بقي الأفضل عباس بن علي بن داود في الحكم إلى سنة 1367/778. انظر نفس المصادر أعلاه.

(3) الأشرف (الثاني) إسماعيل بن الأفضل هو سابع سلاطين بني رسول وقد دامت مدة حكمه 25 سنة (803 ـ 1400/778 ـ 1376). انظر نفس المصادر أعلاه. «تاريخ ثغر عدن»: 2: 20.

(4) الناصر أحمد بن الأشرف ولي الأمر سنة 1376/803 إلى سنة 1424/827. انظر نفس المصادر أعلاه. الأعلام: 1: 93.

(5) لم يبق المنصور عبدالله بن الناصر أحمد إلا مدة قصيرة على رأس الدولة الرسولية (830 ـ 27/827 ـ 1424). انظر نفس المصادر أعلاه. الأعلام: 1: 304.

(6) الأشرف (الثالث) إسماعيل بن الناصر أحمد لم يتول الأمر إلا بعض الأشهر وذلك لصغر سنه ولكثرة الاختلاف والفساد في البلاد. انظر نفس المصادر أعلاه بالإضافة إلى «غاية الأماني» ص 567. وقد جاء بعده يحيى بن إسماعيل بن العباس الملقب بالملك الظاهر الذي حكم اليمن ما بين سنتي 1428/831 و 1438/842. انظر غاية الأماني ص 68ـ 567.

(7) بعد موت الظاهر قام بالأمر ابنه إسماعيل بن يحيى الملقب بالملك الأشرف (الرابع) إلى=

ومات عام خمس وأربعينا   بعد ثماني مائة سنينا
ثم وليها بعده المظفر[1]   سليل عمه وذاك عمر
ابن المليك الأشرف الغساني   ولتعز كان ذا استيطان
فخرج الأتراك في زبيد   عن طاعة المظفر السعيد
وملكوا محمد بن عثمان[2]   ابن المليك الأفضل بن غسان
أول عام ست وأربعين   ثم العبيد ملكوا المسكينا
أحمد نجل الطاهر بن يوسفا   سليل عبد الله فيما عرفا
ابن المجاهد الرسولي علي   فلم يكن أهلا لماله ولي
وملكوه في جمادي الآخر   ولقبوه بالمليك الناصر
ونهبت زبيد في أيامه   فلقب الخاسر[3] لاستشئامه
خلعوه في ربيع الأول   سنة سبع الأربعين فانقل
ملكوا المسعود[4] نجل الأشرف   ابن المليك الناصر بن الأشرف

= سنة 1442/845. انظر: «غاية الأماني» ص 578.

(1) قام المظفر ويسمى يوسف بن المنصور الرسولي بالأمر سنة 1442/845 وقد لبث بمدينة تعز. وفي سنة 1443/846 أقام عبيد زبيد ملكاً آخر يسمى محمد بن إسماعيل ابن عثمان ولقبوه بالملك الأفضل (انظر في هذا الصدد «غاية الأماني» ص 580).

(2) جاء عن ابن الديبع حسن ما ذكره يحيى بن الحسين أن الأمور تعقدت خلال هاته المدة وذلك لأن المظفر بعث من قبض على الأفضل ولم يقبل أن يسلم للعبيد نفقتهم كما طلبوا منه ذلك فخرجوا إلى حيس وأقاموا أحمد بن الناصر من ولد المجاهد الرسولي على رأسهم ودخلوا به إلى زبيد ولكنهم أخرجوا فيما بعد سنة 1443/847 أحمد الناصر وأقاموا لهم رجلاً من بني رسول لقبوه بالملك المسعود. انظر «غاية الأماني» ص 81 ـ 80.

(3) لم يبق الملك الناصر عبد الله إلا مدة وجيزة وقد خلفه الجند في سنة 1443/847 وملكوا مكانة المسعود أبا القاسم بن إسماعيل بن أحمد: انظر «غاية الأماني» 581 وما بعدها.

(4) مما يذكر أن في سنة 1451/855 استفحل أمر العبيد في زبيد فأقاموا حسين بن الطاهر الرسولي ولقبوه بالمؤيد ولكن هذا الأخير وقع القبض عليه سنة 1454/858 من طرف بني طاهر فاضطر العبيد إلى موالاة السلطان المسعود. وانقرضت نهائياً دولة بني رسول =

من ذلك التاريخ حتى خلعا لتسع خمسين وفيها ودعا
فمائتان وثلاثون سنة وأربع دولتهم مبينه

ذكر دولة بني طاهر الأمويين[1]

وإذا أراد الله رحمة الورا أقام شبلي طاهر[2] ويسرا
عليهما عسيره فقاما وأحرزا الذي عليه حاما
وملكا البلاد ثم أخذا زبيد عام تسع وخمسين ذا
من بعد أخذ عدن لعام وكم نالنا من الأنعام
علي المجاهد بن طاهر[3] وصنوه عامر خير ظافر
وملكا البلاد والعبادا وقهرا وحسما الفسادا
وكم لهم يا صاحبي مآثر وعام سبعين توفي عامر
وعاش بعده علي وقضا عام ثلاث وثمانين مضى
ثم ولي المنصور عبد الوهاب[4] ابن أخيهما الحليم الأواب

= سنة 1454/858 وجاءت بعدها دولة بني طاهر. انظر «غاية الأماني» ص 585 وما بعدها.

(1) تقلد بنو طاهر الأمر باليمن سنة 1454/858 وبقيت دولتهم ما يقارب 75 سنة أي حتى سنة 1526/933. انظر في هذا الخصوص «قرة العيون» (م باريس 5821) الأوراق 45 _ 57. «غاية الأماني» ص 586 وما والاها، راجع كذلك: - E.I(N.E), I,453 Mohammaden dynasties: 101.

(2) ترجع نسبة الطاهريين إلى طاهر بن معوضة بن تاج الدين الأموي القرشي. وأول من استقل منهم بملك اليمن الأخوان علي بن طاهر وأخوه عامر، انظر نفس المصادر أعلاه.

(3) تلقب علي بن طاهر بالملك المجاهد وكان دخوله إلى زبيد في سنة 1455/859 قادماً من عدن. أما أخوه عامر الأول فلقبه الملك الظافر. وقد تواصل حكمهما الأول في عدن والثاني في زبيد إلى سنة 1466/870 أثر وفاة عامر وتولى كامل أمر اليمن من طرف المجاهد وذلك إلى سنة 1479/833. انظر نفس المصادر أعلاه.

(4) بعد موت المجاهد سنة 1479/883 جاء بعده المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر وقد استمر في الحكم سنة 1489/894. انظر نفس المصادر أعلاه. بالإضافة إلى الأعلام: 4: 332.

داود ذي الأبـد سليـل طـاهـر أعظـم بـه مـن مـالـك وقـاهـر
وكـــم مـــآثـــر حميـــدة كثيـــرة شهيـــرة عـــديـــدة
ومـــات لـــلأربـــع والتسعيـــن ثـــم ولـي ابنـه صـلاح الـديـن
عـامـر الظـافـر[1] خيـر مـالـك نجـا بـه الله مـن المهـالـك
فهـو خيـار مـن خيـار ولـم تـزل دولتـه تسمـو علـى كـل الـدول
فـاق الملـوك بـالتقـى والـديـن ورحمـة الضعيـف والمسكيـن
يمطـي الجـزيـل ويـزيـل الفقـرا ويبـذل الـدنيـا ويبقـي الآخـرا
لله كـــم أحيـــا بيـــوت الله لا زال محـــروســـا بعيـــن الله
وعـــونـــه مـــؤيـــدا منصـــورا مظفـرا طـول المـدى مسـرورا[2]
والحمـــد لله علـــى مـــا ألهمـــا وبعـــد صلـــى الله ثـــم سلمـــا
على محمـــد أجـــل شـــافـــع وآلـــه وصحبـــه والتـــابـــع

---

(1) عامر بن عبدالوهاب الملقب بالظافر الثاني يعتبر آخر ملوك بني طاهر وقد ولي الأمر بين سنتي 894/1489 و 923/1517. ومن الملاحظ أن ابن الديبع أقدم في بلاطه مدة وجيزة وأهدى إليه كتاباً عن تاريخ بني طاهر. انظر ما جاء أعلاه ـ وراجع فيما يتعلق بدولة الظافر المصادر المذكورة أعلاه بالإضافة إلى الأعلام: 4: 22 و E.I(N.E.), I,453.

(2) نلاحظ من ناحية أخرى أن الأرجوزة تنتهي إلى عهد الملك الظاهر عامر بن عبد الوهاب وقد وضعها ابن الديبع قبل نهاية حكم هذا الأخير أي قبل انقراض الدولة الظاهرية. انظر أعلاه ما جاء في هذا الخصوص. وجاء في مقدمة هاته القصيدة أنها تنتهي في بداية القرن العاشر. انظر البيت السادس.

FACULTE DE LETTRES ET SCIENCES HUMAINES DE TUNIS

من مصادر تاريخ اليمن في العهد الاسلامي

المصادر التاريخية لدراسة تاريخ مدينة زبيد اليمنية في الفترة الإسلامية الوسيطة

EXTRAIT DES
CAHIERS
DE TUNISIE
TOME XXVIII/1980
NUMEROS 113 - 114

من مصادر تاريخ اليمن في العهد الإسلامي
«المصادر التاريخية لدراسة تاريخ مدينة زبيد اليمنية في الفترة الإسلامية الوسيطة»

تعد مدينة زبيد ـ التي تقع في تهامة اليمن ـ من أشهر المدن اليمنية وترجع أهميتها إلى الدور الرئيسي الذي قامت به سواء في المجال السياسي ـ حيث كانت عاصمة لعدة دول مستقلة نذكر من بينها الدولة الزيادية (409 ـ 204/1018 ـ 829) دولة بني نجاح (553 ـ 412/1158 ـ 1021) دولة بني مهدي (569 ـ 554 ـ 1179 ـ 1159) لعل آخره. . . أو في المجال الثقافي والديني إذ كانت مركزاً هاماً من مراكز الشافعية في اليمن الذي لا يخضع للمذهب الزيدي الشيعي.

ومما يؤكد لنا ذلك ما جاء على لسان ابن الديبع مؤرخ تلك المدينة الذي يقول في كتابه المسمى «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد»[1] (الذي سنرجع إليه عند الحديث عن المصادر اليمنية لتاريخ زبيد): «وهي بلاد العلم والعلماء والفقه والفقهاء والإثبات. هذا مع قلة أهلها وأرزاقهم الدقيقة. فهم أهل السعادة في الدارين حقيقة. وهي أم قرى اليمن ومحط رحال العلماء في كل فن»[2].

إن إشارة ابن الديبع ـ الذي ولد سنة 866/1461 بزبيد وتوفي بها سنة

(1) انظر مخطوطتي باريس رقم 5897 و 6069 وسنرجع للحديث عن محتوى هذا الكتاب فيما بعد وقد حققه أخيراً عبد الله الحبشي ونشره مركز الدراسات اليمنية ـ صنعاء 1979 ـ 235 ص.

(2) مخطوطة باريس رقم 6069 الورقة 16 ظهر ـ و 5897 الورقة 11 ظهر.

944/1537 لا تستغرب من رجل نشأ وترعرع في هذه المدينة وأرخ لها فيما بعد[1]. فنلاحظ أنه حاول إظهار فضائل مسقط رأسه قبل كل شيء لا سيما وأن المنافسة شديدة آنذاك بين زبيد «قصبة تهامة اليمن» المسماة ببغداد اليمن «وعاصمة اليمن الشافعي» ـ وبقية المدن وخاصة منها صنعاء ـ «قصبة نجد اليمن» وعاصمة الدولة الزيدية فيما بعد.

إن هذا التنافس بين زبيد وصنعاء ليس نتيجة وضع جغرافي وديني وسياسي فقط بل أنه مبني كذلك على واقع فكري وحضاري معين. فزبيد مدينة حديثة العهد أسسها محمد بن زياد سنة 204/814 طبقاً لتعاليم الخليفة العباسي المأمون ـ الذي كان يريد من وراء هذه العملية وضع حد لاضطراب قبائل عك والأشعريين ثم القضاء على ثورة العناصر المناوئة للحكم العباسي في تهامة من جراء الدعوة الطالبية[2]، بينما تعد صنعاء من المدن اليمنية العريقة القدم حيث يرجع تأسيسها إلى زمان بعيد جداً وقد جاء في بعض الروايات التي نقلها لنا الرازي في كتابه «تاريخ مدينة صنعاء اليمن» أنها أسست من طرف سام بن نوح و«أنها كانت تسمى في الجاهلية أزال ـ (نسبة لأزال بن يقطر بن غابر) حتى دخلها الحبشي وكان كلامهم يقولون صنعت وصنعت فلزمها اسم صنعاء من يومئذ»[3].

ومما يذكر عن مدينة زبيد وفضائلها ما جاء كذلك على ألسنة المقدسي وابن المجاور وابن بطوطة.

يقول المقدسي ـ الذي توفي في أواخر القرن الرابع ـ في كتابه «أحسن

---

(1) انظر مقالنا عن ابن الديبع مؤرخ اليمن وزبيد ـ تحت النشر ـ (مجلة حوليات الجامعة التونسية عدد 18، 1980).

(2) جاءت هاته الرواية عند أغلب المؤرخين اليمنيين وسنتحدث عنها فيما بعد. انظر مقال: STROTHMAN عن زبيد في .E.I,IV, P. 1249(A.Ed).

(3) انظر مخطوطة باريس رقم 1643 الورقة 5 ظهر. راجع أيضاً طبعة صنعاء 1974. تحقيق حسين عبد الله العمري. عبد الجبار زكار.

التقاسيم في معرفة الأقاليم» متحدثاً عن زبيد:[1] «زبيد قصبة تهامة وهو أحد المصرين لأنه مستقر ملوك اليمن. بلد جليل حسن البنيان يسمونه بغداد اليمن لهم أدنى ظرف وبه تجار كبار وعلماء وأدباء مفيد لمن دخله مبارك على من سكنه. آبارهم حلوة وحماماتهم نظيفة. عليه حصن من الطين بأربعة أبواب... بنيانهم الآجر ومنازلهم فسحة طيبة... وهو بلد نفيس ليس باليمن مثله...».

أما ابن المجاور الذي زار مدينة زبيد نحو ثلاث مرات سنة 610 و 624 و 1222/626 و 1226 و 1228 فيصفها لنا في كتابه «صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز» المسمى «تاريخ المستبصر» على النحو التالي معرفاً بظروف تأسيسها وطريقة بنائها وفضائل أهلها...[2] «بها ستمائة ألف عين والأصح ستمائة عين ويقال ستين عيناً سائحة على وجه الأرض كلها عذب وفرات فمن نداوة الأرض رجعت الأرض مخضرة دائماً ذات رياض وأشجار ووحش وكان بها وخم من كثرة نداوة الأرض والمياه. أما أهل زبيد فأنهم مائلون إلى الأكل والشراب والملابس النظاف والمركوب الوطيء وشم الطيب وميل طباعهم إلى النساء أكثر من ميل طباعهم إلى الرجال...».

وقد جاء على لسان ابن بطوطة الذي زار اليمن بعد مقامه بمكة وحجه سنتي 728 و 1320/729 ـ فيما يتعلق بزبيد في كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» ما يلي[3]: «مدينة زبيد مدينة عظيمة باليمن، بينها وبين صنعاء أربعون فرسخاً. وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها، واسعة البساتين، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره، وهي برية لا شطية، إحدى قواعد بلاد اليمن. مدينة كبيرة، كثيرة العمارة، بها النخل والبساتين والمياه، أصلح بلاد اليمن وأجملها ولأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور ولنسائها الحسن الفائق الفائت. ولأهل هذه المدينة

---

(1) انظر المقدسي. طبعة ليدن 1906 ص 84.
(2) انظر ابن المجاور طبعة ليدن 1951: ص 64.
(3) انظر ابن بطوطة طبعة بيروت 1975: 1: 272.

سبوت النخل المشهورة، وذلك أنهم يخرجون في أيام البسر والرطب في كل سبت إلى حدائق النخل ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء. ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلويات، وتخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل، ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائت والأخلاق الحسنة والمكارم... وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق...».

يظهر لنا من خلال كل هذه الشهادات الصادرة عن كل من المقدسي وابن المجاور وابن بطوطة وابن الديبع أن مدينة زبيد كانت مشهورة بحسن موقعها وكثرة مياهها واخضرار أرضها وحسن بنيانها بقطع النظر عن أهميتها من الناحية السياسية والثقافية.

إن دراسة تاريخ هذه المدينة المدورة الشكل والواقعة بين واديين زبيد ورمع يستدعي منا الرجوع قبل كل شيء إلى المصادر التاريخية «الكلاسيكية» التي تحدثت ولو بصفة وجيزة عن زبيد في الفترة الإسلامية الوسيطة. ثم هناك بدون شك المصادر اليمنية وخاصة منها المصادر المحلية مخطوطة كانت أم مطبوعة. أخيراً لا ننسى كذلك المراجع الحديثة المكتوبة باللغة العربية أو بلغات أجنبية أخرى لا سيما الدراسات الأكاديمية عن اليمن وزبيد.

كل هذه المصادر ـ برغم تفاوتها من حيث غزارة المادة التاريخية أو ضآلتها وأهمية المعلومات التي تهم زبيد ـ تكون المصادر الأساسية لدراسة تاريخ هذه المدينة في العهد الإسلامي الوسيط، لا من الناحية السياسية أو الحربية فقط بل من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كذلك.

وقبل تناول هذه المصادر بالدرس ـ نود أن نشير إلى وجود مصادر أخرى ـ غير المصادر التاريخية المكتوبة ـ لا يمكننا تجاهلها بتاتاً وأن كان بحثنا سوف يتعرض فقط إلى هذا النوع المعين من المصادر: نعني بطبيعة الحال: نتائج الحفريات ثم دراسة النقود وما عسى أن تمدنا به من معلومات لسد بعض الفراغ الناتج ـ في أغلب الأحيان ـ عن قلة المادة التاريخية في المصادر المكتوبة.

ما هي إذن أهم المصادر التاريخية التي يمكننا الاعتماد عليها لدراسة تاريخ زبيد في العهد الإسلامي الوسيط؟ وما هي نوعية المادة التي تمدنا بها لتغطية كل فترات هذا التاريخ؟

1 ـ المصادر التاريخية العامة:

يمكن تقسيم المصادر التاريخية العامة إلى قسمين متفاوتين من حيث الأهمية: المصادر العامة وهي ثانوية بالنسبة لزبيد ـ كما سنرى ذلك بعد حين ـ ثم المصادر اليمنية وهي أكثر فائدة.

ـ المصادر العامة:

يمكن تقسيمها إلى نوعين: التواريخ العامة للإسلام وللبلدان الإسلامية ـبما فيها اليمن ومدنه ـ ثم كتب الرحلات والجغرافيين العرب بقطع النظر عن المعاجم.

نشير قبل كل شيء إلى أن المادة التاريخية التي تحتوي عليها هذه المصادر شحيحة جداً لا بالنسبة لمدينة زبيد فقط بل لكل بلاد اليمن بصفة عامة. لكن رأينا من الصالح أن نستعرض بعجالة أهم هذه المؤلفات. مع الإشارة إلى نوعية المعلومات التي تمدنا بها فيما يتعلق بتاريخ زبيد «الوسيط».

أ) التواريخ العامة:

يعتبر تاريخ الطبري[1] المصدر الرئيسي لدراسة الفترة الأولى للإسلام لكنه لا يذكر البتة زبيد إلا في ثلاث مناسبات مع العلم أن الإشارة تتعلق بالوادي ـوادي زبيد ـ أو بالقبيلة ـ برفع الزاي وفتح الباء وسكون الياء ـ أما المدينة في حد ذاتها التي يرجع تأسيسها إلى سنة 814/204 ـ كما كنا تعرضنا لذلك منذ حين ـ فلا يذكرها الطبري بتاتاً ـ إن سكوت الطبري يعتبر من الأمور المدهشة لا سيما وأن زبيد ستصبح منذ ذلك العهد عاصمة مشهورة لعدة دول مستقلة.

---

(1) انظر الطبري، طبعة دار المعارف مصر: 3: 228 و 318 و 427.

لكن هذا السكوت الغريب ينطبق كذلك على كل من البلاذري (المتوفى في سنة 279/854) في كتابه «فتوح البلدان» وابن خياط (المتوفى سنة 240/854) في «تاريخه» و«طبقاته». نشير فقط إلى أن هذا الأخير ذكر زبيد مرة واحدة ولكنه يعني الوادي لا المدينة التي لم يذكر ظروف تخطيطها في حوادث سنة 204/814[1].

أما اليعقوبي (المتوفى سنة 292/904) فقد جاء في تاريخه ذكر بعض الحوادث الخاصة باليمن الإسلامي.

أما زبيد في حد ذاتها فلم يتعرض لها إلا أثناء حديثه عن مخاليف اليمن. فقد جاء في تعداد الأربع وثمانين مخلافاً باليمن ذكر مخلاف زبيد[2].

لم يتعرض المسعودي من ناحيته في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» إلى تأسيس مدينة زبيد في حديثه عن خلافة المأمون[3].

ومهما يكن من أمر، فإن سكوت هذه المصادر الأساسية عن ذكر تأسيس مدينة زبيد ثم تطورها، في عهد الزياديين خاصة، من الأمور التي يصعب تفسيرها. فربما يرجع ذلك إلى أن الحدث لم يكن بارزاً في نظر كل من الطبري وابن خياط والبلاذري والمسعودي وهذا احتمال أول يصعب قبوله لا سيما وأن هؤلاء المؤرخين قد تعرضوا في تواريخهم إلى أحداث أقل أهمية من تخطيط زبيد. أما الاحتمال الثاني المتوقع في نظرنا، فهو أن المدينة لم تؤسس كما جاء في المصادر اليمنية في بداية القرن الثالث بل كانت موجودة قبل ذلك تحت اسم الحصيب فيكون تاريخها مرتبطاً إذاً بواديها وبقبيلة زبيد.

لكن الشيء المدهش هو أن زبيد جاء ذكرها في التواريخ المتأخرة. فهذا أبو الفداء (المتوفى سنة 732/1331) في كتابه«المختصر في تاريخ البشر»

(1) انظر ابن خياط: تاريخ - طبعة دمشق 1968: 1: 72.
(2) انظر اليعقوبي: تاريخ، طبعة دار بيروت 1970/1: 201.
(3) انظر المسعودي: مروج الذهب، طبعة دار الفكر بيروت 1973: 2 وما بعدها: «خلافة المأمون».

يتعرض لأخبار اليمن بصفة عامة بما فيها زبيد معتمداً على عمارة اليمني[1]. فهو يحدثنا عن ذكر ابتداء دولة بني زياد ملوك اليمن ثم عن استيلاء بني نجاح على زبيد وصراعهم ضد بني الصليحي، ثم يأتي إلى ذكر أخبار بني مهدي وصراعهم ضد بني نجاح كما يذكر لنا فيما بعد قيام دولة بني أيوب باليمن قبل أن يصل إلى نقل أخبار دولة بني رسول.

جاء كذلك في تاريخ ابن الوردي المسمى «تتمة المختصر في أخبار البشر»[2] ذكر بعض الأخبار المتعلقة باليمن بصفة عامة وزبيد بصفة خاصة: دولة بني زياد ـ دولة بني نجاح ـ أخبار بني مهدي وبني أيوب. والملاحظ أن أغلب هذه المعلومات نقلها لنا ابن الوردي معتمداً على ما جاء في تاريخ أبي الفداء الذي اعتمد بدوره على تاريخ عمارة اليمني ـ كما أشرنا إلى ذلك منذ حين ـ.

أما ابن خلدون فينقل لنا في تاريخه فصلاً عن «أخبار اليمن والدول الإسلامية» التي كانت فيه للعباسيين وللعبيديين وسائر ملوك العرب «ابتداء ذلك وتصاريفه على الجملة ثم تفصيل ذلك على مدنه وممالكه واحدة بعد واحدة»[3] وقد جاء في هذا الفصل المهم ذكر دولة بني زياد التي أسسها محمد بن زياد في زبيد سنة 204، فيقول ابن خلدون في هذا الصدد: «ولما وفد وجوه أهل اليمن على المأمون كان فيهم محمداً بن زياد من ولد عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان فاستعطف المأمون وضمن له حياطة اليمن من العلويين فوصله وولاه على اليمن وقدمها سنة ثلاث ومائتين وفتح تهامة اليمن وهي البلد الذي على ساحل البحر الغربي واختط بها مدينة زبيد ونزلها وأصارها كرسياً لتلك المملكة. . .».

ويواصل ابن خلدون حديثه عن الدول اليمنية فيذكر دولة بني يعفر في

---

(1) راجع: أبو الفداء. . . المختصر 2: ص 26 و 160 ـ 3: 33 وما بعدها. 57 و 67 و 107 و 122 و 192. 4: 93 و 95.

(2) ابن الوردى: تتمة. . دار المعرفة بيروت 1970: 1: 320 و 505 ـ 2: 94 و 126.

(3) ابن خلدون في H.C.KAY كتاب تاريخ اليمن طبعة 1968 ص 103 وما بعدها.

صنعاء ثم دولة الزيدية في صعدة ودولة بني الصليحي التي يقدم لنا أخبارها بأكثر تفصيل. ثم يأتي للحديث عن دولة بني نجاح بزبيد وما قام بينهم وبين الصليحيين من معارك وحروب إلى انتهاء هذه الدولة سنة 1158/553. ثم ينتقل إلى ذكر أخبار الزريعيين بعدن وبني مهدي بزبيد قبل أن يختم حديثه عن قواعد اليمن ومدنه.

ويقول متحدثاً عن زبيد التي تهمنا في هذه الدراسة: «وهي من مملكة اليمن شمالها الحجاز وجنوبها البحر الهندي وغربها بحر السويس (البحر الأحمر) اختطها محمد بن زياد أيام المأمون سنة أربع ومائتين وهي مدينة مسورة تدخلها عين جارية جلبها الملوك وعليها غيطان نخل يسكنونها أيام الغلة وهي الآن من ممالك ابن رسول وبها كان ملك بني زياد ومواليهم ثم غلبها عليهم بنو الصليحي وقد مر ذكرهم»[1].

نلاحظ أن ابن خلدون استعرض بسرعة أهم حقب تاريخ زبيد السياسي دون أن يذكر مصادره لكن لا ننسى أن هذا المؤرخ الكبير من أصل يمني وهذا ربما يفسر اهتمامه بدول اليمن بعكس مؤرخي القرون الأولى للإسلام.

نصل الآن إلى ما جاء عن زبيد في المعاجم. فهذا ياقوت (الذي توفي سنة 1228/626) يتعرض لزبيد في معجم البلدان كما يلي:[2] «زبيد ـ بفتح أوله وكسر ثانيه ـ وهو اسم وادٍ به مدينة يقال له الحصيب ثم غلب عليها اسم الوادي فلا تعرف إلا به وهي مدينة مشهورة باليمن أحدثت أيام المأمون. . .».

ثم ينتقل ياقوت فيما بعد إلى الحديث عن ظروف تأسيس هذه المدينة وهي رواية سنجدها مسرودة في كل تواريخ اليمن مؤكداً خاصة على اضطراب الأحوال في تهامة اليمن من جراء خروج الأشاعر (لا الأعاشر كما قال ياقوت) على ممثلي النظام العباسي مما أدى بالمأمون إلى إرسال كل من ابن زياد

(1) المصدر نفسه ص 121.

(2) ياقوت: معجم البلدان، بيروت 1957 ـ انظر 3: 131.

ومحمداً بن هارون التغلبي وابن هشام إلى اليمن لتدارك الوضع والقضاء على الفتن والثورات.

وقد جاء من ناحية أخرى في «تاج العروس» للإمام الواسطي الزبيدي (المتوفى سنة 1790/1205) ذكر لزبيد بطن في مذحج وذكر لبعض الأنفار الذين قدموا في وفد زبيد إلى المدينة كما تعرض المؤلف لزبيد المدينة[1] التي اختطها ابن زياد ـ مولى المهدي في زمن الرشيد العباسي. ونلاحظ أن هذه الرواية فريدة في نوعها حيث تختلف عن كل الروايات الأخرى فيما يتعلق بمؤسس زبيد وتاريخ ذلك التأسيس ـ فابن زياد لم يكن مولى المهدي ولم يبعث إلى اليمن من طرف الرشيد بل من طرف ابنه المأمون. فرواية الواسطي الزبيدي خاطئة بدون شك.

خلاصة القول أن كل هذه المصادر التاريخية العامة لا تعطينا إلا فكرة مقتضبة عن زبيد ـ وفي أغلب الأحيان نجد أنفسنا أمام صمت تام مثل ما هو الأمر بالنسبة للطبري ـ كذلك الشأن بالنسبة لابن الأثير «في كامله» والقزويني[2] (متوفى سنة 1283/682) في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد». فرغم أنه خصص قسماً هاماً من أخباره للعديد من مدن اليمن التي يضعها في الأقليم الأول والثاني من أقاليمه السبعة فلم يرد شيء عن زبيد.

نلاحظ من جهة أخرى أن زبيد لم يرد ذكرها في كتب الأنساب والفهارس. فابن دريد[3] اكتفى بالكلام عنها كموضع باليمن دون تفصيل ذلك. كذلك الأمر بالنسبة لمؤلفين آخرين كالبكري في كتابه «معجم ما استعجم» والأصفهاني في «الأغاني»[4] الذي هو موسوعة أدبية وتاريخية في نفس الوقت.

---

(1) الواسطي الزبيدي: تاج العروس. . . 2: 361 وما بعدها.

(2) انظر القزويني: آثار البلاد. . . دار صادر بيروت 1969. أخبار اليمن ومدنه: 15 و 18 و 40 و 50 و 61. . و 69 ـ 65.

(3) ابن دريد ـ كتاب الجمهرة ـ 4 أجزاء، حيدر آباد 1344 ـ 1352 ـ انظر: 1: 343.

(4) الأصفهاني: الأغاني. . . VI: 63.

ب) كتب الرحالة و الجغرافيين:

نأتي الآن إلى كتب الرحالة والجغرافيين العرب فنشير باديء ذي بدء إلى أن ابن جبير (متوفى سنة 1217/614) لم يذكر زبيد في رحلته بل اكتفى بذكر تهامة.

أما ابن بطوطة فقد جاء في بداية بحثنا هذا أنه زار مدينة زبيد وأثنى عليها الثناء الكبير عندما تحدث بإسهاب عن فضائلها وفضائل أهلها. ومما لا شك فيه أن شهادة (Témoignage) ابن بطوطة لها وزنها حيث تعطينا فكرة عن غنى المدينة في القرن الثامن ثم عن كثرة عمارتها وتعدد نخيلها وبساتينها ووفرة مياهها مما يدل على الدور الرئيسي الذي اضطلعت به آنذاك في اليمن.

أما فيما يتعلق بالجغرافيين فنلاحظ أنهم ذكروا زبيد بصفة متفاوتة. فابن خرداذبه[1] واليعقوبي اكتفيا بذكر مخلاف زبيد ضمن مخاليف اليمن الأربعة وثمانين ـ هذا وقد أضاف اليعقوبي في «كتاب البلدان» فقرة تحدث فيها عن تسمية كل من سكن كل بلد من قبائل العرب باليمن ـ فقال أن الحصيب أهلها زبيد ـ بضم الزاي ـ والأشعريون[2].

أما ابن الفقيه الهمذاني فقد خصص فصلاً كاملاً لبلاد اليمن في كتابه «مختصر كتاب البلدان» دون أن يتعرض ـ ولو بكلمة ـ لزبيد[3]. هذا وقد عثرنا في «التنبيه والإشراف» للمسعودي[4] عن إشارة لساحل زبيد (غلافقة) وهي على حد قوله «من أعمال ابن زياد في هذا الوقت» (يعني القرن الرابع).

وبالنسبة لابن رسته صاحب «الأعلاق النفيسة»[5] فلم يذكر زبيد وهذا أمر غريب حيث أنه تحدث عن عدة مدن يمنية مثل صنعاء وشبام وسبأ... شأنه

---

(1) ابن خرداذبه ـ كتاب المسالك والممالك ـ طبعة ليدن 1889 ص 141 وما بعدها.

(2) اليعقوبي: كتاب البلدان. طبعة ليدن 1891 ص 318 و 320.

(3) انظر «مختصر كتاب البلدان» ـ طبعة ليدن 1885 ص 33 وما بعدها.

(4) المسعودي: «التنبيه والإشراف» المكتبة العصرية بغداد 1938 ص 226.

(5) ابن رسته: «الاعلاق النفيسة» ـ طبعة ليدن 1891 ص 109و 113.

في ذلك شأن الأصطخري[1] الذي تعرض لليمن ولمدنه التهامية (المذيخرة ـ عدن. . .) والنجدية (صنعاء) دون أن يتعرض لزبيد.

إن الجغرافي الوحيد تقريباً الذي خصص فقرة كاملة لزبيد هو المقدسي في كتابه المشهور «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم». فقد قسم الجزيرة العربية إلى أربع نواح (الأحقاف ـ الأشحار ـ اليمامة ـ قرح) وأربع كور (الحجاز ـ اليمن ـ عمان ـ هجر). وفيما يتعلق بصفة خاصة باليمن فقد قسمها ـ مثل بقية الجغرافيين العرب ـ إلى قسمين: تهامة وقصبتها زبيد ونجد وقصبته صنعاء[2]. ومما تجدر ملاحظته الوصف الشيق الذي تركه لنا عن زبيد ومنازلها وبنيانها وهو ما ذكرناه في بداية البحث.

يقول المقدسي عن زبيد: «زبيد بلد نفيس ليس باليمن مثله غير أن أسواقه ضيقة والأسعار بها غالية والثمار قليلة أكثر طعامهم الدخن والذرة»[3]. ومما يذكر كذلك أن المقدسي تحدث عن العديد من المدن اليمنية مثل صنعاء التي كانت قصبة نجد اليمن. . . «أجل من زبيد وأعمر وكان الاسم لها. . . وأما اليوم فقد احتلت، غير أن بها مشايخ. . .»[4].

إن هذا الوصف يتناقض مع ما ذكره ابن المجاور وابن بطوطة حول نفس الموضوع ولعل ذلك ناتج عن تطور مدينة زبيد منذ القرن الرابع ـ حيث كانت أقل شهرة وثراء وغنى من صنعاء ـ وقد أصبحت زبيد بعد ذلك ـ أي في القرنين السابع والثامن ـ عندما زارها كل من ابن المجاور وابن بطوطة، ثرية وذات فضائل عديدة.

نشير كذلك إلى أن أبا الفداء الذي تحدثنا عنه كمؤرخ قد ترك لنا من جهته بعض المعطيات عن مدينة زبيد وذلك في كتاب «تقويم البلدان» في معرض

(1) الإصطخرى «كتاب صور الأقاليم» ـ طبعة ليدن 1927 ص 14و 23.
(2) المقدسي ـ سبق ذكره ص 83.
(3) المصدر نفسه ص 85.
(4) المصدر نفسه ص 85.

حديثه عن الجزيرة العربية ومدنها يقول عن زبيد[1]: «وزبيد قصبة التهائم وهي في مستوى من الأرض عن البحر أقل من يوم. وماؤها آبار ولها نخيل كثير وعليها سور وفيه ثمانية أبواب. قال البيروني وهي فرضة اليمن وفرضة زبيد يسمى غلافقة وبينها أربعون ميلاً. . .».

لا ننسى كذلك أن العمري صاحب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» قد ذكر لنا مملكة اليمن في الباب السابع من كتابه وذلك ضمن حديثه عن الممالك ـ واشتمل هذا الباب ـ كما أكده لنا أيمن فؤاد سيد الذي وضع مقدمة لباب اليمن في كتاب العمري وقام بتحقيقه[2] على بعض المعلومات التي تهم بصفة خاصة دولة بني رسول وعلاقاتها مع دولة المماليك في مصر.

ومهما يكن من أمر فإن المصادر التاريخية والجغرافية العامة من تواريخ وكتب رحالة وجغرافيين ومعاجم تعتبر ثانوية جداً بالنسبة لدراسة تاريخ زبيد في العصر الوسيط. وهذا يرجع إلى شحها من حيث المادة. إلا أننا عثرنا على بعض الإشارات الهامة في كتب أبي الفداء وابن خلدون وياقوت وابن بطوطة والمقدسي.

2 ـ المصادر التاريخية اليمنية:

تعتبر المصادر اليمنية المرجع الأساسي لدراسة تاريخ زبيد في الفترة الإسلامية الوسيطة. وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى أن المؤرخين اليمنيين قد اهتموا بصفة خاصة بتاريخ بلدهم ـ اليمن ـ وجمعوا له كل المعلومات الممكنة بما فيها المادة المتعلقة بمدن اليمن مثل مدينة زبيد.

غير أن هذه المصادر اليمنية ـ باستثناء أقلية منها ـ ظهرت في أواخر العصر «الوسيط». وهذا ما يفسر لنا ضآلة المادة التاريخية المتعلقة بالقرون الأولى

(1) أبو الفداء «تقويم البلدان» طبعة باريس 1840 ص 88.

(2) انظر أيمن فؤاد سيد. «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» ـ القسم الخاص بمملكة اليمن لابن فضل الله العمري ـ دار الاعتصام، القاهرة 1974 ـ لم نطلع عليه مع الأسف.

للإسلام بالنسبة لكل بلاد اليمن[1]. ثم أن هذه المصادر تقدم لنا معلومات خاصة بالجانب السياسي والحربي. أما الجوانب الأخرى كالحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فإن على الباحثين الرجوع إلى المؤلفات اليمنية الأخرى في الشعر والأدب والفقه والفتاوى لعلهم يعثرون فيها على ما يمكنهم من سد الفراغ وتلافي النقص في هذا الموضوع[2].

نقسم المصادر اليمنية إلى نوعين مختلفين من ناحية المادة والأسلوب التاريخي:

- المصادر العامة التي تهم تاريخ اليمن وجغرافيته بصفة شاملة.

- المصادر المحلية المتعلقة بزبيد ـ موضوع دراستنا هذه ـ بوجه خاص.

أ) تواريخ اليمن العامة:

نشير قبل كل شيء إلى مؤلفات الهمداني مؤرخ اليمن المشهور وخاصة كتابي الإكليل وصفة جزيرة العرب.

يعد الإكليل عشرة أجزاء وقع تحقيق الأجزاء الأول والثاني والثامن والعاشر منها[3]. ويهم هذا الكتاب الجليل معارف اليمن وأنسابه وعجائبه خاصة في الفترة القديمة أي قبل الإسلام. فلا نجد فيه معلومات حول زبيد[4] وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى حداثة عهد المدينة. لكننا نجد مادة قيمة في كتاب «صفة جزيرة العرب» الذي يعد بحق أوفى مرجع عن البلاد اليمنية وأسمائها

(1) انظر راضي دغفوس: مصادر تاريخ الجزيرة العربية. ملاحظات حول بعض المخطوطات التاريخية المخزونة في المكتبة القومية بباريس. **المؤرخ العربي** ـ العدد 10 ـ السنة 1979 ـ ص 115 وما بعدها.

(2) انظر سلطان ناجي. مصادر تاريخ الحضارة اليمنية القديمة والإسلامية وبعض الملاحظات عليها. **المؤرخ العربي** ـ العدد 2 ـ السنة 1975 ـ انظر ص 129.

(3) نشرت هذه الأجزاء الأربعة من الإكليل سنة 1931 (ج 8)، 1963 (ج 1)، 1966 (ج 2) و 1978 (ج 10). انظر مصادر... سبق ذكره ص 69 وما بعدها.

(4) انظر **الإكليل**: 10: 29 ـ 198 (زبيد من عواصم تهامة اليمن) و 8: ص 118.

ومخاليفها وأنهارها وجبالها. . .

يقول الهمداني متحدثاً عن زبيد: «زبيد نسبت إلى الوادي الحصيب وهو وطن الحصيب بن عبد شمس وهي كورة تهامة وسواحلها غلافقة. والمندب ومخا ساحلا بني مجيد، والفرسان، وعمران جزيرة. . .» ثم يعدد لنا قرى زبيد التي من بينها المعقر والقحمة. ويطلعنا أن بزبيد الشراحيون «وهم الرأس من الجميع» والقحمة ـ على حد قوله ـ للأشاعرة وفيها من خولان وهمدان».

كما يحدثنا الهمداني عن وادي زبيد ورمع[1] ومخلاف زبيد. لكنه لا يمدنا بمعلومات تاريخية عن زبيد في عهد بني زياد مثل ما هو الشأن بالنسبة لابن المجاور في مؤلفه «تاريخ المستبصر» الذي يعتبر من أهم المراجع لمعرفة جغرافية بلاد العرب بما فيها اليمن ومدنه ودوله خاصة دولة بني أيوب ودولة بني رسول[2].

والجدير بالذكر أن ابن المجاور ليس بيمني. فقد زار زبيد ثلاث مرات وخصص لها عدة فصول في كتابه: فصل في بناء زبيد، فصل آخر في خلق أهل زبيد ـ قصة آل زياد وملوك زبيد ـ فصل في صورة زبيد وصفة زبيد إلى غير ذلك من الفصول المتعلقة بالمسالك والطرق القادمة من زبيد والمؤدية إليها (عدن ـ غلافقة ـ حجة. . .).

ومن أهم الفصول عن زبيد ما جاء به ابن المجاور ـ وقد انفرد تقريباً في هذا المجال ـ عن اسم هذه المدينة العريقة. فقد ذكر لنا ما لا يقل عن أربع روايات أو احتمالات[3]: «حدثني أحمد بن علي بن عبد الله الجماعي الواسطي قال: ملك اليمن ملك من التتابعة يسمى الزبا فسأل رجل آخر فقال ما فعل الله بزبا؟ فقال بيد أي هلك فسمى البلد زب بيد. وقال آخرون: إنما سميت زبيد زبيد لأن لها وادياً يسمى زبيد. فسميت البلد باسم الوادي».

---

(1) انظر الهمداني: صفة جزيرة العرب، طبعة الرياض 1974 ص 120 و 132.

(2) انظر مصادر. . . سبق ذكره: ص 123 و 124.

(3) ابن المجاور ـ صفة بلاد اليمن، طبعة ليدن 1951 ص 70.

و«قال آخر: بل كانت الإبل ترعى في العقدة وفي جمع الإبل ناقة تسمى زبيد عضت الناقة في العقدة فعرف الموضع باسم الناقة. وقال آخرون: بل كانت امرأة تسكن رأس وادي زبيد تسمى زبيدة وقال ابن المجاور: ما أظنها إلا زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور. فإن محمد المنصور بن زياد بنى لها داراً ما بين وادي زبيد ورمع وهي التي سعت في بناء المكان في دولة أمير المؤمنين الأمين».

نلاحظ من خلال هذا النص الفريد من نوعه أن الروايات الأربع المتعلقة بأصل اسم المدينة غير متناقضة تماماً فيما بينها. غير أن الرواية الأخيرة تشير إلى أن المدينة أسست قبل خلافة المأمون بينما تؤكد الروايات الأخرى على قدم المدينة (وخاصة الرواية الأولى).

هذا وقد أشار كذلك ابن المجاور إلى بناء زبيد وظروف تأسيسها فنقل لنا روايتين مختلفتين في هذا الشأن ـ تفيد الرواية الأولى أن المدينة أسست من طرف ابن زياد في عهد الخليفة المأمون وذلك لوضع حد لخروج الأشاعرة عن طاعة العباسيين[1]. أما الرواية الثانية فيسردها لنا ابن المجاور كما يلي[2]: «ولى (الخليفة محمد الأمين) محمداً بن زياد بن محمود بن منصور اليمن فجاء محمد بن زياد إلى أرض الحصيب فوجد قوماً يقتتلون في كل يوم إلى ضحوة نهار ويفترقوا فدخل بينهم وأصلح بينهم وبنى قصراً على باب غلافقة فسكن فيه واشترى ألف عبيد. ويقال بل جاء بعساكر عظيمة من العراق.

وقال لهم: إذا دخل القوم للضيافة فالسيف عليهم.. ونادى في مشايخ البلاد وكبار القبائل من الأشاعر وقدم لهم طعاماً قد أحضر. فلما اشتغلوا بالأكل والتناول لبست العبيد وركبوا السيف من حضر. فلم ينج منهم أحد. وركب على من كان حولهم من العربان من أهل القرى والعمارات. ولا زال على حاله إلى أن رجعت الخلق تستجير به وكل من كان في طاعته كان يترك على رأسه أثر

(1) المصدر نفسه ص 65 وما بعدها.

(2) المصدر نفسه ص 68.

وهو قلنسوة من خوص النخيل، ويعطيه زوج بقر ومهار يعنى لحرث الأرض فحرثت الخلق وعمر المكان».

وهناك رواية ثالثة لا تناقض الأولى تجعل من ابن زياد مؤسس المدينة[1]: «... ويقال لما تعدى ابن زياد مكة صار كل منزل ينزله يأخذ تراب أرضه يشمه ويبني في ذلك المنزل قرية ولا زال على حاله إلى أن قدم أرض الحصيب فأخذ من أرضه كف تراب فشمه وقال لأهل الدولة: أقيموا بناها هنا! قالوا: ولما؟ قال: لأن هذه الأرض أرض نزه زبدة هذه البلاد.

قالوا: وبم صح عندك ذلك؟ قال: لأنها طيبة بين واديين يعني وادي زبيد ووادي رمع. فلما سكن المكان بناه مدينة سماها زبيدا وما اشتق زبيد إلا أنها الزبدة على ما جرى في اليوم الأول».

إن هذه المعطيات تكتسى أهمية بالغة بالنسبة لمعرفة ظروف تأسيس مدينة زبيد لا سيما وأن ابن المجاور هو الوحيد من بين كل المؤرخين الذي تطرق للحديث عن ذلك وقدم روايات عديدة لم نجد لها أثراً في المصادر الأخرى - باستثناء الرواية الأولى - التي نقلها عمارة وبقية الذين جاؤوا من بعده كابن عبد المجيد والخزرجي وابن الديبع على سبيل المثال.

هذا ويفيدنا ابن المجاور بتفاصيل ممتعة عن أخلاق أهل زبيد حيث يقول عن زبيد[2]: «ما وضعت بين واديين إلا كرجل يسكن بين امرأتين يميل إلى من مالت نفسه وسكنت جوارحه إليها». كما يورد لنا أخباراً نفيسة عن طقوس العرس في زبيد قائلاً[3]: «ونساء أهل هذه البلاد لم يأخذن من أزواجهن المهر وأخذ المهر عندهم عيب عظيم. وكل امرأة تأخذ المهر من زوجها يسمونها مفروكة أي أن زوجها أعطاها مهرها وفركها أي طلقها».

... » - ثم يتحدث بإسهاب عن مأكولات أهل زبيد مما يعطينا فكرة عن

(1) المصدر نفسه ص 70.

(2) المصدر نفسه ص 70.

(3) المصدر نفسه ص 85.

منتوجاتهم الزراعية. ثم لا ننسى كذلك صورة زبيد المدورة الشكل التي رسمها في كتابه[1].

خلاصة القول يعتبر كتاب ابن المجاور من أهم المراجع لمعرفة تاريخ مدينة زبيد خاصة في عهد بني زياد وبني نجاح.

أما بقية تواريخ اليمن العامة فتحتوي هي بدورها على معلومات تهم بصفة خاصة تاريخ زبيد السياسي والحربي فضلاً عن المادة المتعلقة بعلماء المدينة من فقهاء ومؤلفين. . .

نذكر مؤلفات ابن سمرة الجعدي: «كتاب طبقات فقهاء اليمن» والجندي: «السلوك في طبقات العلماء والملوك» وابن عبد المجيد «بهجة الزمن في تاريخ اليمن» والخزرجي «الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملوك الاسلام»[2] ثم عماد الدين إدريس «عيون الأخبار» وابن الديبع «قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون» و بامخرمة «تاريخ ثغر عدن» ويحيى ابن الحسين «أخبار الزمن في تاريخ اليمن» و«غاية الأماني في تاريخ القطر اليماني». إلى غير ذلك من المؤلفات الأخرى[3].

غير أن المادة التاريخية الثمينة التي وردت في هذه المؤلفات تهم خاصة الفترات الإسلامية المتأخرة التي عاصرها أغلب المؤرخين الذين ذكرناهم وهي فترة بني رسول وفترة بني طاهر بالنسبة لمؤرخي القرنين العاشر والحادي عشر.

فقد جاء على سبيل المثال في كتاب ابن عبد المجيد «بهجة الزمن» بعض

---

(1) المصدر نفسه ص 77.

(2) انظر راضي دغفوس. اليمن في عهد الولاة. تحقيق للفصول الخمسة الأولى من «الكفاية والأعلام» لأبي الحسن الخزرجي. Cahiers de Tunisie عدد 107 ـ 108 ـ 1979 ـ ص 1 ـ 162.

(3) انظر مصادر. . . سبق ذكره ـ وعبد الله حبشي ـ مراجع تاريخ اليمن دمشق 1972.

الفصول الخاصة بزبيد ودولها: دولة آل زياد[1] ثم دولة بني نجاح[2]. فصل في دولة علي بن مهدي[3] ثم فصل في دولة بني أيوب[4] وفصل أخير فيه ذكر للدولة الرسولية[5].

أما الخزرجي فقد خصص لزبيد الباب الخامس من كتابه «الكفاية والأعلام» وهو يشتمل على إثنى عشر فصلاً فيه ذكر لزبيد وأمرائها وملوكها ووزرائها[6].

- الفصل الأول: في ذكر اختطاط زبيد وتملك بني زياد.
- الفصل الثاني: في ذكر ملوك الحبشة باليمن من آل نجاح.
- الفصل الثالث: في ذكر الوزراء من آل نجاح.
- الفصل الرابع: في ذكر قيام السيد علي بن مهدي.
- الفصل الخامس: في ذكر دولة بني أيوب.
- الفصل السادس: في ذكر الدولة الرسولية الزهراء وذكر قيام السلطان نور الدين أبي الفتح عمر.
- الفصل السابع: في ذكر التبع الأكبر السلطان الملك المظفر.
- الفصل الثامن: في ذكر دولة الملك الأشرف ممهد الدين عمر بن يوسف ابن عمر بن علي.
- الفصل التاسع: في ذكر دولة السلطان المؤيد.
- الفصل العاشر: في ذكر دولة السلطان الملك المجاهد سيف الإسلام أبي الحسن بن داود.

---

(1) انظر مخطوطة باريس رقم 5977 الورقات 7 ظهر ـ 12 ظهر.
(2) نفس المصدر. الورقات 29 ظهر ـ 32 ظهر.
(3) نفس المصدر. الورقات 42 وجه. 46 ظهر.
(4) نفس المصدر. الورقات 46 ظهر 50 ظهر.
(5) نفس المصدر. الورقات 50 ظهر إلى آخر المخطوطة (الورقة 122).
(6) انظر مخطوطة باريس رقم (1) 5832 ـ الورقات 23 وجه. 125 ظهر. راجع راضي دغفوس الخزرجي ـ تحقيق الفصول الخمسة الأولى من كتابة الكفاية «في Cahiers de Tunisie عدد 107 ـ 108 السنة 1979 ص 1 ـ 162.

ـ الفصل الحادي عشر: في ذكر قيام الدولة الأفضلية.
ـ الفصل الثاني عشر: في ذكر الدولة الأشرفية الكبرى.

هذا وقد جاء ذكر زبيد ودولها في القسم الثاني من كتاب ابن الديبع «قرة العيون». ويحتوي هذا القسم على ثمانية عشر فصلاً وهي نفس الفصول التي أوردها الخزرجي بالإضافة إلى ستة فصول أخرى تنتهي بنهاية دولة بني رسول. ثم أن ابن الديبع خصص القسم الثالث من كتابه لتاريخ بني طاهر وفيه ثلاثة فصول[1].

أما يحيى ابن الحسين فقد جاء تاريخه العام «غاية الأماني» مدوناً حسب أسلوب الحوليات وفيه أخبار مهمة عن مدينة زبيد ودولها إلى حد سنة 1635/1045[2].

وعلى العموم فإن تواريخ اليمن العامة تحتوي على مادة قيمة وغزيرة لا سيما بالنسبة لتاريخ زبيد في عهد بني رسول وبني طاهر.

ب) تواريخ زبيد المحلية:

نذكر في مقدمة هذه التواريخ كتاب عمارة (متوفى سنة 1173/569) المسمى «المفيد في أخبار صنعاء، وزبيد»[3] ويعد هذا الكتاب المرجع الأساسي لأغلب ـ بل قل ـ لكل مؤرخي اليمن.

والجدير بالملاحظة أن «المفيد» فيه ذكر لتاريخ زبيد منذ تأسيسها سنة 204 إلى حد دولة بني مهدي. وقد اعتمد عمارة في وضعه على كتاب جياش بن نجاح الذي عنوانه «المفيد في أخبار زبيد»[4]. وكان جياش المتوفى سنة 1105/498 ثالث ملوك بني نجاح من أشهر الأدباء والمؤرخين آنذاك ـ

---

(1) انظر طبعة القاهرة ـ 1977 تحقيق علي الأكوع جزءان. راجع كذلك مخطوطتي باريس رقم 6058 و 5821. هذا وقد قمنا ببحث عن ابن الديبع مؤرخ اليمن وزبيد (تحت النشر) حوليات الجامعة التونسية عدد 18 سنة 1980.
(2) انظر طبعة القاهرة 1968 ـ تحقيق عبد الفتاح عاشور ـ جزءان.
(3) انظر طبعة القاهرة 1976 تحقيق علي الأكوع راجع مصادر . . . سبق ذكره ص 109.
(4) المصدر نفسه ص 96.

لكن كتابه لم نعثر عليه إلى حد الآن.

ومهما يكن من أمر فإن كتاب عمارة اليمني يعد من المؤلفات الثمينة لكل من يريد دراسة تاريخ اليمن الوسيط.

هذا ولنا تواريخ أخرى تتعلق ببعض دول زبيد خاصة كتاب الخزرجي «العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية»[1] ثم كتاب مجهول المؤلف عنوانه «تاريخ بني رسول»[2].

لكن المؤرخ الذي يعتبر بدون شك أنموذج المؤرخ المحلي هو ابن الديبع الذي ترك لنا العديد من المؤلفات التاريخية المتعلقة بموطنه زبيد.

ومن بينها كتاب «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد»[3] الذي أرخ فيه لزبيد منذ تأسيسها سنة 204 إلى نهاية القرن التاسع (عهد الملك الطاهري عامر بن عبد الوهاب: 923 ـ 894/1517 ـ 1489).

ويقع هذا الكتاب في مقدمة وعشرة أبواب ولا مجال هنا لتفصيلها إذ أننا أعددنا بحثاً حول ابن الديبع وتحدثنا فيه بإسهاب عن محتويات هذا الكتاب[4]. كما قمنا بتحقيق ونشر قصيدته «أحسن السلوك في نظم من ولي مدينة زبيد من الملوك»[5] وتتألف هذه الأرجوزة من 119 بيتاً وفيها ذكر لملوك زبيد منذ تولى ابن زياد سنة 204 إلى عهد الملك الطاهري الذي عاصره ابن الديبع عامر بن عبد الوهاب.

---

(1) انظر طبعة مصر ـ سنة 1911 ـ تحقيق محمد بسيوني عسل. جزءان.

(2) انظر طبعة طوكيو 1976 ـ تحقيق: H.YAJIMA - A Chronicle of the rasūlīd dynasty of Yemen from the unique manuscript of Paris, N° 4069.

(3) المصدر نفسه ص 201 راجع كذلك مخطوطتي باريس رقم 6069 و 5897. راجع طبعة صنعاء ـ تحقيق عبد الله الحبشي 1979 ص 253.

(4) انظر دراستنا عن «ابن الديبع مؤرخ اليمن وزبيد» (الحاشية رقم3 من حواشي هذا البحث).

(5) مصادر... سبق ذكره ص 202 ـ وانظر كذلك مخطوطتي باريس رقم (2) 5832 و 6069.

ولابن الديبع كتاب آخر عنوانه «الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد» وهو عبارة عن ذيل للكتاب السابق أرخ فيه للحوادث الواقعة في الفترة بين 901 و 923[1].

وعلى العموم فأن هذه التواريخ المحلية الخاصة بزبيد مفيدة جداً لكنها تهم القرون المتأخرة وفيها مادة متنوعة يغلب عليها الطابع السياسي والحربي.

3 ـ الدّراسات الحديثة:

نلاحظ أن الدراسات الحديثة عن تاريخ مدينة زبيد في العصور الإسلامية تكاد تكون منعدمة.

أ) بالنسبة للدراسات باللغة العربية:

أغلبها يتعلق بتاريخ اليمن العام ـ وقد أفرد أصحاب هذه المؤلفات بعض الفصول لزبيد ودولها. لكنها معلومات عامة لا تشفي الغليل وتتناول بالدرس خاصة الجانب السياسي والحربي.

ونذكر على سبيل المثال كتب الأساتذة المحامي وترسيسي وشرف الدين والثور إلى جانب مؤلفات علي الأكوع وسليمان محمود وصالح محمد أمين وصلاح بن حامد العلوي...[2].

---

(1) مصادر... ص 202 هذا ونشير إلى أن الأستاذ محمد عيسى صالحية قام بتحقيق هذا الكتاب ونال به درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة عين شمس لكننا لم نطلع عليه مع الأسف.

(2) انظر كمال المحامي: **اليمن ـ شمالها وجنوبها وعلاقاتها الدولية** بيروت 1968 ـ انظر الفصول المتعلقة بزبيد ص 150 ـ 161 ـ 184 ـ 192 ـ 197. عدنان ترسيسي ـ **اليمن وحضارة العرب** ـ بيروت 1964 ـ انظر ص 85 ـ 104.

أحمد شرف الدين. **اليمن عبر التاريخ** ـ القاهرة 1963.

عبد الله أحمد الثور. **هذه اليمن**. صنعاء 1969 ـ انظر ص 267 ـ 270 و 294 و301 و 307.

محمد بن علي الأكوع ـ **اليمن الخضراء مهد الحضارة**، القاهرة 1971. =

نشير كذلك إلى وجود بعض الدراسات «الأكاديمية» عن زبيد سواء في شكل مقالات مثل:

- مظفر العميد: بناء مدينة زبيد في اليمن[1].
- زاهر رياض: دولة حبشية في اليمن[2].

أو دراسات جامعية (ماجستير أو دكتوراه) لم نتمكن مع الأسف من الاطلاع عليها:

- نصارى فهمي غزالي: الدولة الزيادية في اليمن[3] (1971).
- صابر محمد دياب حسين: تطور الحالة السياسية في بلاد اليمن خلال القرنين الثالث والرابع الهجري[4] (1969).
- محمد عبد العال أحمد علي: دولة بني أيوب في اليمن[5] (1968).
- محمد عبد الفتاح عليان: الحالة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول باليمن[6] (1973)...

ب) أما الدراسات باللغات الأجنبية:

فنشير خاصة إلى المقالات الموجودة في دائرة المعارف الإسلامية

= حسن سليمان محمود. تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي. بغداد 1969.
صلاح محمد أمين. تاريخ اليمن في القرون الثلاثة الأولى للهجرة القاهرة 1975. لم نطلع عليه إلى حد الآن.
صالح بن محمد العلوي. تاريخ حضرموت. جزءان جدة 1968.

(1) انظر مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد. عدد 13 سنة 1970: ص 340 ـ 360.
(2) انظر: المجلة التاريخية المصرية عدد 8 ـ سنة 1959 ـ ص 101 ـ 130.
(3) انظر: الدليل البيبليوغرافي للرسائل الجامعية في مصر (ج 1) القاهرة 1976 ص 1359: باب اليمن.
(4) المرجع نفسه.
(5) المرجع نفسه.
(6) المرجع نفسه.

بالفرنسية عن زبيد ودولها (بنو زياد ـ بنو نجاح ـ بنو مهدي ـ بنو رسول ـ بنو طاهر)[1].

لكن الدراسات «الأكاديمية» منعدمة تماماً باستثناء رسالة فون أروندنك VAN ARENDONK عن الإمامة الزيدية وفيها بعض المعلومات عن زبيد[2].

لا ننسى كذلك كتب الرحالة الأوروبيين الذين زاروا اليمن في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بصفة خاصة ودونوا بعض مذكراتهم عن تلك الرحلات[3].

ختاماً لهذه الدراسة عن مصادر تاريخ مدينة زبيد في اليمن في العهد الإسلامي «الوسيط» يمكن لنا أن نذكر بأن المادة التاريخية الموجودة في كتب التاريخ العامة قليلة. لكن المعطيات الدسمة نجدها في تواريخ اليمن وخاصة التواريخ المحلية المتعلقة بزبيد.

إن هذه المصادر عموماً تمكننا ـ رغم تفاوتها من حيث حجم المعلومات عن زبيد ـ من الاطلاع على أهم حقب تاريخ مدينة زبيد، وبالتالي من سد بعض الفراغ في تاريخ اليمن الإسلامي.

---

(1) انظر مقال: STROTHMANN عن زبيد: E.I, IV pp. 12 - 49 -50 وعن بني زياد E.I., IV, p. 1303 - 1304...

(2) انظر: - (VAN ARENDONK) Les débuts de l'Imamat Zaîdite au Yemen Leyde-1961.

(3) انظر في هذا الشأن مصادر... ص 372 وما بعدها STROTHMANN سبق ذكره وفيه ذكر لأهم الرحالة الأوروبيين الذين زاروا اليمن.

أوراق

مجلة ثقافية يصدرها

المعهد الإسباني العربي للثقافة

1981/4

العوامل الاقتصادية لهجرة
بني هلال وبني سليم
من مصر إلى إفريقية

إنّ مشكلة هجرة بني هلال وبني سليم من مصر إلى إفريقية في منتصف القرن الخامس الهجريّ (منتصف القرن الحادي عشر الميلادي) قد شغلت بال المؤرّخين - وخاصة المستشرقين منهم - منذ القرن التاسع عشر. وقد حظي هذا الموضوع بعدّة أبحاث ودراسات[1] غير أن أغلب المستشرقين - وخاصّة الفرنسيين منهم - قد عالجوا قضيّة هذا الغزو «invasion» أو «الهجرة immigration» من زاوية معيّنة ألا وهي التأكيد على أسبابه السياسيّة والدّينية والأيديولوجيّة من ناحية. ثمن إنهم بالغوا في تحميل قبائل هلال وسليم كلّ ما لحق بإفريقية من خراب وانحطاط في أواخر القرن الخامس من ناحية أخرى.

إنّ النظريّة القديمة التي دافع عنها كلّ من «مرسي» G. Marçais [2] و «إدريس» H.R.Idris [3] وغيرهما من المستشرقين الفرنسيين تؤكد على هجرة بني هلال وبني سليم إلى إفريقية جاءت نتيجة للقطيعة بين الفاطميين في مصر

(1) انظر دراستنا عن «مراحل تاريخ الهلاليّة في المشرق» (المؤرخ العربي - عدد 11 ص 203 - 235) وقد ذكرنا فيها بإسهاب عدداً من الأشغال والدراسات التي وضعها المستشرقون الفرنسيون لمشكلة هجرة بني هلال إلى إفريقية.

(2) انظر : G.Marçais, Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe S. Paris. 1913.

(3) انظر : Idris. H. R., La Berbérie orientale sous les Zirides aux Xe - XIII^e Siécles, 2 Vols. Paris, 1962, I, 143.

والزّيريين في إفريقية - فهي على حدّ تعبيرهم عمليّة انتقام قام بها الخليفة الفاطميّ المستنصر بالله على حليفه وتابعه «Vassal» المعز بن باديس الصنهاجي[1] الذي كان خلع طاعة - صاحب مصر - وأقام البيعة لمنافسة الخليفة العبّاسي.

إنّ مثل هذا التّفسير يعتمد خاصّة على عوامل مختلفة أهمّها الدّيني (رجوع بني زيري إلى السنّة بينما كانوا تابعين للشّيعة) ثمّ السياسي (معاقبة حليف قطع صلته الرسميّة بسيّده «Suzerain» ومولاه)، والأيديولوجيّ (الصراع بين الشّيعة والسّنة على مستوى العالم الإسلامي أو الصراع بين الفاطميين في مصر وبني العبّاس في العراق). غير أنّه تفسير غير كاف في نظرنا لإدراك الغاية التي من أجلها انتقل بنو هلال وبنو سليم من الصّعيد إلى إفريقية ومعرفة أبعاد تلك النّقلة.

هنالك نظريّة جديدة تناقض الأولى جاء بها «بونسي» J.Poncet تقول بأن قدوم الهلاليين إلى إفريقية في منتصف القرن الخامس هو مجرّد «حافز» (catalyseur) عجّل في انهيار إفريقية الزّيرية التي كانت على «حافّة هاوية» (au bord d'un gouffre)[2]. إن هذه النظرية رغم أنّها لا تخلو من ذكاء فهي لا تهتم - مع الأسف - إلا بما حدث في إفريقية في العهد الزّيري ولا تعالج مشكلة الهجرة الهلاليّة في نطاق أوسع يشمل كلّ العالم الإسلامي بما فيه مصر الفاطميّة كما أشار إلى ذلك المؤرخ الفرنسي كلود كاهين (C. Cahen)[3].

ثم إنّ بونسي لم يثبت في مقالاته أنّ الدولة الصّنهاجية كانت - قبل قدوم بني هلال - في حالة انحلال وتدهور كما أنّه لم يدرس بصفة خاصّة الظّروف

---

(1) انظر: Idris, H.R., «De la réalité de la catastrophe hilalienne», Annales E.S.C., XXIII, 2, 1968, p. 390 - 6; «L'invasion hilalienne et ses conséquences», Cahiers de civilisation médiévale, 11, 1968, p. 353 - 17.

(2) انظر: Poncet, J., «L'évolution des genres de vie en Tunisie», Cahiers de Tunisie, 2, 1954, p. 315 - 23; «Le mythe de la catastrophe hilalienne» Annales E.S.C., 5, 1967, p. 1099 - 1120.

(3) انظر: Cahen, C., «Quelques mots sur les hilaliens et le nomadisme», J.E.S.H.O., Mars 1968, p. 130 - 33.

التي لم يتعرض لها المؤرّخون من قبل ثم تحليلها وربطها بالهجرة الهلالية.

ولحسن حظّنا فإنّ لدينا مصدر تاريخي هامّ جدّاً لم يقع استغلاله في هذا المضمار إلى حدّ الآن وهو كتيب صغير ألّفه المقريزي سنة 808/1405 عنوانه «إغاثة الأمّة بكشف الغمّة»[1]. وهو عبارة عن تاريخ عامّ للمجاعات التي عرفتها البلاد المصرية «منذ آدم إلى بداية القرن التاسع الهجري» ـ يحلّل فيه المؤلّف ـ أعني المقريزي ـ أسباب تلك المجاعات ثم يقترح في نفس الوقت الحلول التي يراها صالحة لتداركها.

إنّ هذا المصدر يعطينا فكرة واضحة عن الحالة الاقتصادية في مصر في عهد المستنصر الفاطمي لا سيما وأنّ المجاعات التي تحدّث عنها المقريزي بإسهاب تهمّ الفترة الفاطميّة فهي إذن معاصرة للمستنصر وللهجرة الهلاليّة.

إنّ تلك المجاعات ـ التي سنتعرّض إليها بعد حين ـ تدل بكل وضوح على تدهور الحالة الاقتصادية في مصر المستنصرية، تدهور أكده لنا من جهة أخرى ابن تغري بردى في تاريخه المسمّى «النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة» الذي يعالج تاريخ مصر منذ سنة 20/641 إلى سنة 799/1397ـ[2] حيث يذكر لنا العديد من الأحداث التي حصلت في خلافة المستنصر: أوبئة ـ مجاعات ـ عدد وفيّات كبير...

وقد وجدنا أيضاً مؤشّرين يدلاّن على شدّة الأزمة آنذاك:

ـ أولاً: انحدار وزن الدّينار المصري في عهد المستنصر[3].

---

(1) انظر المقريزي: «كتاب إغاثة الأمّة بكشف الغمّة»، تحقيق جمال الدّين الشيّال. (القاهرة 1940) ترجمة إلى الفرنسية .Wiet,G تحت عنوان «Traité des famines»، ونشره في .J.E.S.H.O., Février 1962

(2) ابن تغري بردى: النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ طبعة دار الكتب المصريّة، 12 جزء، انظر 5: ص 142 ـ 1.

(3) انظر: Lavoix, H., Catalogue des monnaies musulmanes t.3, L'Egypte - La Syrie, Paris, 1896, p. 102 - 152.

حسن إبراهيم: تاريخ الدّولة الفاطميّة. (القاهرة، 1964) ص 605.

ـ ثانياً: تقلبات مياه النّيل في نفس الفترة[1] وما كان لها من انعكاسات في الميدان الاقتصادي والاجتماعي. ستتمحور إذن دراساتنا حول ثلاث نقاط أساسيّة:

ـ الحالة الاقتصادية في مصر على ضوء ما جاء في «إغاثة الأمّة بكشف الغمّة» للمقريزي.

ـ تدهور تلك الحالة من خلال دراسة مؤشّرين: تطوّر أوزان الدّينار ثم تقلّبات مياه النّيل.

ـ العلاقة الضّمنية بين تأزم الوضع الاقتصادي في مصر المستنصريّة وهجرة بني هلال إلى إفريقية.

1) الحالة الاقتصادية في مصر في عهد المستنصر بالله (427 ـ 487/ 1036 ـ 1094) على ضوء كتاب «إغاثة الأمّة بكشف الغمّة» للمقريزي:

ليس في نيّتنا معالجة كل جوانب الحياة الاقتصاديّة في مصر في عهد الخليفة الفاطميّ المستنصر بالله وإنّما هدفنا هو التّركيز على ذكر بعض الأحوال الاقتصاديّة «Conjoncture économique» التي اتّسمت بها البلاد المصرية آنذاك خاصّة الأزمة الكبيرة التي ترجع جذورها في الحقيقة إلى العهد الأخشيديّ.

فقد ذكر لنا المقريزي في «إغاثة الأمّة» أنّ مصر اجتاحتها مجاعات عديدة أهمّها مجاعة سنة 338/949[2]. ثم مجاعتا سنة 341/952 وسنة 352/963[3]. وقد أكد المقريزي في وصفه لتلك المجاعات على النّقاط التالية: قلّة الحبوب التي انتهكتها الفئران، ثمّ قلّة المياه ـ مياه النّيل الصّالحة للرّي ـ، ارتفاع الأسعار

---

(1) «النجوم» 5، 142 ـ 1 ـ المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، (القاهرة، 1324) 4 أجزاء. انظر 1، 109 ـ 102 ابن عبد الحكم، فتوح مصر إفريقية والأندلس، طبعة ليدن 1929، 150 ـ 149 ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة ليبزيق، 1866، 4: 870 ـ 861.

(2) إغاثة الأمّة: 13.

(3) المصدر نفسه.

الذي انجرّ عن ذلك والصّعوبة التي لاقاها المصريّون للحصول على الخبز.

أمّا في العصر الفاطميّ فإنّ حلقة «Cycle» المجاعات لم تنقرض بل تواصلت مدّة سنوات عدّة: مثلاً مجاعة سنة 358/969[1] ثم مجاعة سنة 387/997[2] ومجاعات أواخر القرن الرّابع: 395/1005[3] و 398/1008[4].

وممّا يذكر أنّ خلافة المستنصر ـ التي تهمّنا بدرجة أولى ـ قد تخلّلتها مجاعات أعنف وأشدّ نذكر من بينها مجاعة سنة 444/1052 ثم مجاعة سنة 447/1055 و مجاعة سنة 457/1065. غير أنّ الحدث البارز في نظرنا يتمثّل في مجاعة سنة 444/1052[5] التي دامت عدّة سنوات وعاصرت الغزو الهلاليّ لإفريقية.

وقد وصفها لنا المقريزي بكل دقّة مبيّناً خاصّة أسبابها ومميزاتها ونتائجها.

أمّا فيما يتعلق بالأسباب فالمقريزي يذكر خاصّة قصر مياه النّيل[6] منذ سنة 444 ثم قلّة الغلاّت في المخازن التجارية آنذاك. وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ خلّو المخازن من الغلاّت يرجع في نظر المقريزي ـ إلى انخفاض الأسعار وإلى قرار السّلطان ـ بإيعاز من وزيره اليازوري[7] ـ بإخراج ما في خزائنه من الغلات

(1) المصدر نفسه.
(2) المصدر نفسه: 14.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه.
(5) إغاثة الأمّة: 18 ـ نلاحظ في هذا الصّدد أنّ المقريزي ـ في وصفه للمجاعات التي اجتاحت مصر في العصر الفاطميّ ـ يطلق عليها اسم «غلاء» «disette».
(6) إنّ قصر مياه النّيل كثيراً ما جاء ذكره عند المقريزي كسبب أساسي للمجاعات في مصر ـ وهذا ممّا يؤكّد الدّور الكبير الذي يلعبه النّيل كمصدر رخاء مصرا أو كسادها آنذاك.
(7) اليازوري هو أحد وزراء المستنصر بالله ـ انظر ترجمته وأخباره المفصّلة في السّيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، طبعة بولاق (القاهرة 1905)، 2: 116.

وبيعها خوفاً من بوارها وانحطاطها.

يقول المقريزي في هذا الصّدد: «ثم وقع غلاء في خلافة المستنصر ووزيره النّاصر لدين الله أبي محمّد الحسن بن علي بن عبد الرّحمان اليازوريّ وسببه قصر النّيل في سنة 444 وليس بالمخازن السّلطانيّة شيء من الغلاّت، فاشتدّت المسغبة. وكان سبب خلوّ المخازن أنّ الوزير لمّا أُضيف إليه القضاء في وزارة أبي البركات كان ينزل إلى الجامع بمصر في يومي السّبت والثلاثاء من كلّ جمعة، فيجلس في الزيادة منه للحكم على رسم ما تقدّمه، وإذا صلى العصر رجع إلى القاهرة. وكان في كلّ سوق من أسواق مصر على أرباب كلّ صنعة من الصّنائع عريف يتولّى أمرهم، والأخبار بمصر في أزمنة المساغب متى بردت لم يرجع منها إلى شيء لكثرة ما يغشّ بها. وكان لعريف الخبّازين دكّان يبيع الخبز بها، ومحاذيها دكّان آخر لصعلوك يبيع الخبز بها أيضاً. وسعره يومئذ أربعة أرطال بدرهم وثمن[1]. فرأى الصّعلوك أنّ خبزه قد كان يبرد فأشفق من كساده فنادى عليه أربعة أرطال بدرهم ليرغّب النّاس فيه فانثال النّاس عليه حتّى بيع كلّه لتسامحه، وبقي خبز العريف كاسداً فخنق العريف لذلك، ووكّل به عونين من الحسبة أغرماه عشرة دراهم.

ثم يواصل المقريزي حديثه عن أسباب مجاعة سنة 444 مشيراً بصفة خاصة إلى ما اتّخذه الوزير اليازوري من قرارات:[2] «فلمّا مرّ قاضي القضاة أبو محمّد اليازوري إلى الجامع استغاث به فأحضره المحتسب وأنكر عليه ما فعل بالرّجل فذكر المحتسب أنّ العادة جارية باستخدام عرفاء في الأسواق على أرباب البضائع ويقبل قولهم فيما يذكرونه فحضر عريف الخبّازين بسوق كذا واستدعى عونين من الحسبة فوقع الظنّ أنّه أنكر شيئاً اقتضى ذلك فأحضر الوزير الخبّاز وأنكر عليه ما فعله وأمر بصرفه عن العرافة ودفع إلى الصّعلوك ثلاثين

---

(1) يساوي الرّطل 450 غراماً أو 12 وقيّة. انظر: Wiet,G. سبق ذكره 90:
Hinz, W., Islamische Masse und Gewischte, (Leiden, 1970) p. 20.

(2) إغاثة الأمّة...، 18.

رباعياً من الذّهب فكاد عقله يختلط من الفرح. ثمّ عاد الصّعلوك إلى حانوته فإذا عجنته قد خبزت فنادى عليها خمسة أرطال بدرهم فمال الزّبون إليه وخاف من سواه من الخبّازين برد أخبازهم فباعوا كبيعه فنادى ستة أرطال بدرهم فأدّتهم الضرورة إلى اتّباعه. فلمّا رأى اتّباعهم له قصد نكاية العريف الأوّل وغيظه بما يرخص من سعر الخبز فأقبل يزيد رطلا رطلا والخبّازون يتبعونه في بيعه خوفاً من البوار حتّى بلغ النّداء عشرة أرطال بدرهم وانتشر ذلك في البلد جميعه وتسامع النّاس به فتسارعوا إليه. فلم يخرج قاضي القضاة من الجامع إلاّ والخبز في جميع البلد عشرة أرطال بدرهم».

ويعرّج المقريزي بعد ذلك على ما كان يقوم به السّلطان ـ أي الخليفة الفاطميّ آنذاك ـ من مضاربات[1] حيث أنّه يشتري الغلاّت بقدر مائة ألف دينار كلّ سنة ويضعها في مخازنه ثم يتّجر بها عندما ترتفع الأسعار. وطبعاً إنّ مثل هذه العمليّات تؤثّر على حركة الأسعار بالإضافة إلى ما تؤدي إليه من سخط الرعيّة وحنقهم على السّلطان.

يقول المقريزي في هذا الشأن: «وكان يبتاع للسّلطان في كلّ سنة غلّة. بمائة ألف دينار وتجعل متجراً. فلمّا رجع اليازوري إلى القاهرة وداره بها مثل بحضرة السّلطان وعرّفه ما منّ الله به في يومه من إرخاص السعر وتوفّر النّاس على الدعاء له وأنّ الله جلّت قدرته فعل ذلك وحلّ أسعارهم بحسن نيته في عبيده ورعيّته وأنّ ذلك بغير موجب ولا فاعل له، بل بلطفه تعالى واتّفاق غريب وأنّ المتجر الّذي يقام بالغلّة فيه مضرّة على المسلمين وربّما انحط السّعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها فتتغيّر بالمخازن وتتلف، وأنّه يقيم متجراً لا كلفة على النّاس فيه ويفيد أضعاف فائدة الغلّة ولا يخشى عليه من تغيّر ولا انحطاط سعر وهو الخشب والصّابون والحديد والرصاص والعسل وشبه ذلك. فأمضى السّلطان له ما رآه واستقر ذلك ودام الرّخاء مدّة سنتين».

يمتاز هذا النص القيّم بالحيويّة والطّرافة بقطع النظر عمّا يحتوي عليه من

(1) المصدر نفسه.

إشارات دقيقة عن الحياة الاقتصادية في مصر في منتصف القرن الخامس: نظام الأسواق، العرفاء، الحسبة، الحرف، حركة الأسعار، طبيعة البضاعات المتبادلة، عمليّة المضاربة بين التّجار.

ثمّ لا ننسى أن المقريزي هو الوحيد تقريباً من بين المؤرّخين الّذين تحدّثوا عن مجاعة سنة 444 المعاصرة للغزو الهلاليّ.

وقد نقل لنا كذلك نبأ المجاعات الأخرى التي اكتسحت البلاد المصريّة في عهد المستنصر بالله خاصّة مجاعة سنة 447 ومجاعة سنة 457.

أمّا مجاعة سنة 447/1055[1] فسببها ـ على حدّ تعبير المقريزي ـ قصر النّيل وقلّة الحبوب ممّا أدّى إلى ارتفاع الأسعار (التّليس[2] بثمانية دنانير) واشتداد الأمر على النّاس.

يصف لنا المقريزي[3] هذه المجاعة كما يلي:

«ثم قصر النيل بعد خمس سنين من نظره في سنة 447 وليس في المخازن جرايات ما في القصور ومطبخ السّلطان وحواشيه لا غير. فورد على الوزير أبي محمّد ما كثر به فكره ونزع السّعر إلى ثمانية دنانير[4] التّليس واشتدّ الأمر على الناس وصار الخبر طرفة فدبر الوزير البلد بما أمسك به رمق الناس: وهو أنّ التّجار حين إعسار المعاملين وضيق الحال عليهم في القيام للدّيوان بما يجب

---

(1) إغاثة الأمّة: 20 وما بعدها.

(2) يساوي التّليس 8 ويبات أو ما يعادل إردب وربع الأردب هو كيل البلاد المصرية مقداره 90 لتراً أو 36 مدّاً. انظر: Wiet, G.، سبق ذكره: 90؛ Hinz سبق ذكره: 51.

(3) إغاثة الأمة: 20 وما بعدها.

(4) تغيّرت قيمة الدينار حسب الفترات ـ ففي العهد الفاطمي كان يساوي عشرين درهماً تقريباً. انظر Wiet,G. سبق ذكره: 90 ـ مقال دينار في دائرة المعارف الإسلامية: 2: 328.

انظر كذلك:

Sauvaire, H., «Matériaux pour servir à l'histoire de la numismatique et de la métrologie musulmane», J.A., 1879 - 82.

عليهم من الخراج ومطالبة الفلاّحين بالقيام به صاروا يبتاعون منهم غلاتهم قبل إدراكها بسعر فيه ربح لهم. ثم يحضرون إلى الدّيوان ويقومون للجهبذ عنهم بما عليهم ويثبت ذلك في روزنامج الجهبذ مع مبلغ الغلّة وما قاموا به فإذا صارت الغلال في البيادر حملها التّجار إلى مخازنهم. فمنع الوزير أبو محمّد من ذلك وكتب إلى عمّال عامّة النّواحي باستعراض روزنامجات الجهابذة وتحرير ما قام به التّجار عن المعاملين ومبلغ الغلّة التي وقع الابتياع عليه وأن يقوموا للتّجار بما وزنوه للدّيوان ويربحونهم في كلّ دينار ثمن دينار تطييباً لنفوسهم. وأن يضعوا ختومهم على المخازن ويطالعوا بمبلغ ما يحصل تحت أيديهم فيها. فلمّا حصل عنده علم ذلك جهّز المراكب وحمّل الغلال من النّواحي إلى المخازن السلطانية بمصر وقرّر ثمن التلّيس ثلاثة دنانير بعد أن كان بثمانية دنانير. وسلّم إلى الخبّازين ما يبتاعونه لعمارة الأسواق ووظّف ما يحتاج إليه البلدان القاهرة ومصر وكان ألف تلّيس دوار في كلّ يوم، لمصر سبعمائة وللقاهرة ثلاثمائة. فقام بالتدبير أحسن قيام مدّة عشرين شهراً إلى أن أدركت غلّة السنة الثانية فتوسّع النّاس بها وزال عنهم الغلاء وما كادوا يتألمون لحسن التّدبير».

إنّ نص المقريزي هذا يركز بصفة خاصّة على الدور الرئيسي الّذي قام به الوزير اليازوريّ حيث استطاع أن يضع حدّاً لعمليّات المضاربة التي كان يقوم بها التّجار على حساب الفلاّحين. ولا شكّ أن حسن تدبيره وقراره بأن يكون التلّيس بثلاثة دنانير عوض ثمانية دنانير ثمّ تسليمه الغلّة للفلاّحين: كلّ هذا ينمّ عن حنكة سياسيّة ودهاء ـ وكانت نتيجة ذلك زوال الغلاء وتحسّن أحوال الرعيّة.

غير أن المقريزي يعتبر أنّ السّبب الرّئيسي لهذه المجاعة ولغيرها من المجاعات هو قصر النّيل الذي تنتج عنه قلّة الحبوب ومن ثمّة ارتفاع في الأسعار فغلاء فمجاعة. فقد أكد لنا في العديد من المرات أهميّة العوامل الطبيعيّة في انطلاق الغلوات سواء في مصر (قصر النّيل أو فيضانه) وفي الحجاز (الجفاف وقلّة المياه)، أو في العراق والشّام[1]. لكنّنا نعتقد أنّ هذا العامل الطبيعي ـ رغم

(1) إغاثة الأمّة: 41.

أهميته ـ ليس إلاّ أحد العوامل التي تقف وراء الغلوات أو المجاعات ـ فالمقريزي[1] نفسه يشير إلى ذلك عندما يحلّل الوضع العامّ في البلاد المصريّة بعد موت اليازوري: «فلمّا قتل الوزير أبو محمّد لم تر الدولة صلاحاً ولا استقام لها أمر وتناقضت عليها أمورها ولم يستقرّ لها وزير تحمد طريقته ولا يرضى تدبيره وكثرت السعاية فيها فما هو إلاّ أنّ يستخدم الوزير حتّى يجعلوه سوقهم ويوقعوا به الظّن حتى ينصرف ولم تطل مدّته». هذا إذن عامل سياسّي له وزنه في استفحال الوضع في مصر وهو يتمثّل في عدم استقرار الحالة السياسيّة في مصر بعد موت اليازوري. ولا أدّل على انحلال السّلطة آنذاك إلاّ ما ذكره لنا المقريزي عن تغلّب الرّجال والعبيد على السّلطان. يقول في هذا الصّدد[2]: «. . .وخالط السّلطان النّاس وداخلوه بكثرة المكاتبة فكان لا ينكر على أحد مكاتبته فتقدّم منهم كل سفساس وحظي عنده عدّة أوغاد وكثروا حتى كانت رقاعهم أرفع من رقاع الرّؤساء والجلّة وتنقّلوا في المكاتبة إلى كلّ فنّ حتّى أنّه كان يصل إلى السلطان في كلّ يوم ثمانمائة رقعة. فتشبّهت عليه الأمور وانتقضت الأحوال ووقع الاختلاف بين عبيد الدّولة وضعفت قوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدّتهم وأنّ الوزير منذ يخلع عليه إلى أن ينصرف لا يفيق من التحرّز ممّن يسعى عليه عند السّلطان وتقف عليه الرّجال فما يكون فيه فضل عن الدّفاع عن نفسه. فخربت أعمال الدّولة وقلّ ارتفاعها وتغلّب الرّجال على معظمها واستصفوا نواحي ارتفاعها حتى انتهى ارتفاع الأرض السّفلى إلى ما نسبة له من ارتفاعها الأوّل. وكان قبل سني هذه الفتنة ستّمائة ألف دينار تحمل دفعتين في غرّة رجب وغرّة محرّم فاتّضح الارتفاع وعظمت الواجبات». . .

ثمّ يواصل المقريزي حديثه عن خاصيّات هذه الفتنة التي عرفتها مصر فيشير بإطناب إلى الأزمات الوزاريّة[3]، وتكاثر الوزراء، والصّراعات بين

(1) المصدر نفسه: 23.
(2) المصدر نفسه: 24.
(3) إغاثة الأمّة: 24.

الأتراك والعبيد، وقسور السلطان عن إيجاد حلّ ملائم للوضع.

جاء في نصّه ما يلي(1): «ووقع اصطلاح الأضداد على السّلطان وواصلوا اقتضاءه قيوضهم فيوفيهم واجباتهم ولازموا بابه ومنعوه لذاته وتجرأوا على الوزراء واستخفّوا بهم وجعلوهم عرضاً لسهامهم فكانت الفترات بعد صرف من ينصرف منهم أطول من مدّة نظر أحدهم. فطغى الرّجال وتجرّأوا حتّى خرجوا من طلب الواجبات إلى المصادرة فاستنفدوا أموال الخليفة وأخلوا منها خزائنه وأحوجوه إلى بيع أعراضه فاشتراها النّاس بالقيم العادلة».

«وكان النّاس يعترضون ما يباع فيأخذ من له درهم واحد ما يساوي عشرة دراهم ولا يمكن مطالبته بالثّمن. ثمّ زادوا في الجرأة حتّى صاروا إلى تقويم ما يخرج من الأعراض فإذا حضر المقوّمون أخافوهم فيقوّمون ما يسوّى ألف بمائة ودونها ويعلم المستنصر وصاحب بيت المال بذلك ويتمكنون من استيفاء الواجب عليهم. فتلاشت الأمور واضمحل الملك وعلموا أنّه لم يبق ما يلتمس إخراجه لهم فتقاسموا الأعمال وأوقعوا التباسهم على ما زاد عن الارتفاع وكانوا ينتقلون فيها بحكم غلبة من تغلّب صاحبه عليها. ودام ذلك بينهم سنوات خمساً أو ستاً. ثمّ قصر النّيل فانتزعت الأسعار نزوعاً بدّد شملهم وفرّق ألفهم وشتّت علمتهم وأوقع الله العداوة والبغضاء بينهم فقتل بعضهم بعضا حتّى أباد خضراءهم وعفّى آثارهم فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا».

بصفة إجمالية يتجلّى لنا من خلال هذا النّص ـ عن مجاعة سنة 447 وخاصّياتها ـ أن الوضع في مصر في عهد المستنصر بالله كان متشعّباً من الناحيتين السياسيّة (انحلال السّلطة، وانهيار الملك وانخرام النّظام) والاقتصاديّة (المضاربات التي كان يقوم بها كلّ من السّلطان والتّجار الكبار على حساب الفلاّحين الصّغار والمستهلكين).

إنّ مثل هذا الوضع السّيء كانت له ـ بدون شك ـ نتائج وخيمة خاصّة في

(1) إغاثة الأمة: 24.

الميدان الاجتماعي والاقتصادي ـ حيث ارتفعت الأسعار وانخفض دخل النّواحي وأقفرت الأرياف وتكاثرت المجاعات. . .

لكن الشّيء الذي نؤكّد عليه هو علاقة هذا الوضع بهجرة بني هلال إلى إفريقية في منتصف القرن الخامس الهجري، ذلك لأن القبائل العربية القاطنة آنذاك في الصّعيد المصري كانت تعيش في ظروف متدهورة جدّاً كما أشار إلى ذلك المقريزي في كتاب «البيان»[1] ثم إنّ الخليفة المستنصر ـ نظراً لاضطراب الوضع ـ قد يكون شجّع عمليّة انتقال بني هلال وبني سليم إلى إفريقية لتخفيف الشّدائد على سكّان تلك المنطقة لا سيّما وأنّ الغلوات أو المجاعات تواصلت في النّصف الثاني من القرن الخامس وأهمّها ـ بدون شك ـ «الشّدة الكبرى» التي اجتاحت مصر ـ سنة 457/1065 ودامت ما لا يقل عن سبع سنين. وكان من نتائجها الخطيرة هبوط كبير في عدد السّكان من جرّاء تكاثر الموتى، وإقفار الأرياف وتعطّل النشاط الاقتصادي إلى غير ذلك. . .

إنّ هذا الغلاء الفاحش وصفه لنا العديد من المؤرّخين مثل السّيوطي وابن تغري بردى وابن أبي دينار[2]. لكنّ المقريزي لم يكتف بوصف عاجل لتلك «الشدّة الكبرى» بل حاول تحليل أسباب انطلاقها ثمّ انتشارها في مصر كما درس ميزاتها وتطوّرها.

أمّا الأسباب فالمقريزي حصرها فيما يلي: ضعف السّلطنة، اختلال أحوال المملكة، استيلاء الأمراء على دواليب الدّولة، اتصال الفتن بين الأعراب، قصور النّيل، تعدّد الصّراعات بين الولاة والرعيّة: فهي كما نرى عوامل ذات صبغة سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة إلى جانب العامل الطّبيعي المعهود (قصر النّيل).

---

(1) انظر المقريزي: البيان والإعراب عمّن نزل مصر من الأعراب تحقيق السيد عابدين، (القاهرة 1961) ص 27.

(2) انظر النّجوم: 5: 2 وما بعدها ـ السّيوطي، حسن المحاضرة: 2: 116 وما بعدها، ابن أبي دينار: كتاب المؤنس في إفريقية وتونس طبعة تونس، 1869، 67.

ومن ميزات هذا الغلاء يذكر لنا المقريزي ارتفاع الأسعار وخاصّة سعر الخبز إلى درجة أنّ الرغيف أصبح يساوي خمسة عشرة دينار، انتشار الوباء في كلّ الجهات من جرّاء قلّة المواد الغذائيّة، إهمال الأراضي المزروعة النّاتج عن تكاثر الموتى من جرّاء الجوع، أكل القطط والكلاب وحتّى البشر.

فلنستمع إلى نصّ المقريزي عن هذه الشدّة الكبرى[1]: «ثمّ وقع في أيّام المستنصر الغلاء الّذي فحش أمره وشنع ذكره وكان أمده سبع سنين. وسببه ضعف السّلطنة واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء على الدّولة واتّصال الفتن بين العربان وقصور النّيل وعدم من يزرع ما شمله الرّي. وكان ابتداء ذلك في سنة 457 فنزع السّعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتّى تعطّلت الأراضي في الزّراعة وشمل الخوف وخيفت السّبل برّاً وبحراً وتعذّر السّير إلى الأماكن إلاّ بالخفارة الكثيرة وركوب الغرر. واستولى الجوع لعدم القوت حتّى أبيع رغيف خبز في النّداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطّرف بخمسة عشر ديناراً وأبيع الأردب من القمح بثمانين ديناراً. وأكلت الكلاب والقطط حتّى قلّت الكلاب فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير. وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا وتحرّر النّاس فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب فإذا مرّ بهم أحد لقوها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه».

إنّ تعدّد أعمال الأدامة (anthropophagie) وأكل الحيوانات كالكلاب والقطط هو نتيجة طبيعيّة لشدّة الأزمة وقد أكد لنا ابن تغري بردى ما جاء به المقريزي في هذا المضمار فسرد لنا في كتابه «النّجوم الزّاهرة»[2] كثيراً من الأقاصيص الطّريفة التي نذكر منها ما يلي: «هذا والغلاء بمصر يتزايد، حتّى إنّه جلا من مصر خلق كثير لما حصل بها من الغلاء الزّائد عن الحد. والجوع الّذي لم يعهد مثله في الدّنيا، فأنّه مات أكثر أهل مصر، وأكل بعضهم بعضا، وظهروا

(1) إغاثة الأمّة: 24 وما بعدها.
(2) النّجوم الزّاهرة: 5: 16 وما بعدها.

على بعض الطبّاخين أنّه ذبح عدّة من الصبيان والنساء وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها. وأكلت الدّواب بأسرها، فلم يبق لصاحب مصر ـ أعني المستنصر ـ سوى ثلاثة أفراس بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وحمل ودابّة. وبيع الكلب بخمسة دنانير، والسّنور بثلاثة دنانير، ونزل الوزير أبو المكارم وزير المستنصر على باب القصر عن بغلته وليس معه إلاّ غلام واحد، فجاء ثلاثة وأخذوا البغلة منه، ولم يقدر الغلام على منعهم لضعفه من الجوع فذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصلبوا، فأصبح النّاس فلم يروا إلاّ عظامهم، أكل النّاس في تلك الليلة لحومهم». «ودخل رجل الحمّام فقال له الحمّامي: من تريد أن يخدمك سعد الدولة أم عزّ الدولة أم فخر الدّولة؟ فقال له الرّجل: أتهزأ بي فقال: لا والله انظر إليهم، فنظر فإذا أعيان الدّولة ورؤساؤها صاروا يخدمون النّاس في الحمّام لكونهم باعوا جميع موجودهم في الغلاء واحتاجوا إلى الخدمة»... «وباع رجل داراً بالقاهرة كان اشتراها قبل ذلك بتسعمائة دينار بعشرين رطل دقيق. وبيعت البيضة بدينار، والأردب القمح بمائة دينار في الأوّل، ثمّ عدم وجود القمح أصلاً. وكان السّودان يقفون في الأزقة يخطفون النّساء بالكلاليب ويشترحون لحومهن ويأكلونها، واجتازت امرأة بزقاق القناديل بمصر وكانت سمينة، فعلّقها السّودان بالكلاليب وقطعوا من عجزها قطعة، وقعدوا يأكلونها وغفلوا عنها، فخرجت من الدّار واستغاثت، فجاء الوالي وكبس الدّار فأخرج منها ألوفاً من القتلى، وقتل السّودان...».

وفيما يتعلق بالخليفة المستنصر نفسه يعلمنا المقريزي[1] «أنّه باع كلّ ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس على حصير وتعطّلت دواوينه وذهب وقاره وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهنّ تصحن «الجوع الجوع» تردن المسير إلى العراق فتسقطن على المصلّى وتمتن جوعاً. واحتاج المستنصر حتّى باع حليّة قبور آبائه وجاءه الوزير يوماً على بغلته فأكلتها العامّة فشنق طائفة منهم فاجتمع عليهم النّاس فأكلوهم. وأفضى

(1) إغاثة الأمّة: 24.

الأمر إلى أن عدم المستنصر القوت».

أما ابن تغري بردى(1) فقد أكد من جهته أنّ. . . «المستنصر الخليفة. . . باع جميع موجوده وجميع ما كان في قصره حتى أخرج ثياباً كانت في القصر من زمن الطّائع الخليفة العبّاسي، لمّا ذهب بهاء الدولة دار الخليفة في إحدى وثمانين وثلاثمائة، وأشياء أُخر أخذت في نوبة البساسيري، وكانت هذه الثياب التي لخلفاء بني العبّاس عند خلفاء مصر يحتفظون بها لبغضهم لبني العبّاس فكانت هذه الثّياب عندهم بمصر بسبب المعيرة لبني العبّاس. فلمّا ضاق الأمر على المستنصر أخرجها وباعها بأبخس ثمن لشدّة الحاجة. وأخرج المستنصر أيضاً طستاً وإبريقاً بلوراً يسع الابريق رطلين ماء، والطّست أربعة أرطال، وأظنّه بالبغدادي فبيعا باثني عشر درهما فلوسا، ثمّ باع المستنصر من هذا البلور ثمانين ألف قطعة. وأمّا ما باع من الجواهر واليواقيت والخسروانّي فشيء لا يحصى. وأحصى من الثّياب التي أبيعت في هذا الغلاء من قصر الخليفة ثمانون ألف ثوب، وعشرون ألف درع، وعشرون ألف سيف محلّي، وباع المستنصر حتّى ثياب جواريه تخوت المهود، وكان الجند يأخذون ذلك بأقل ثمن». «. . . واحتاج المستنصر في هذا الغلاء حتّى إنّه أرسل فأخذ قناديل الفضّة والسّتور من مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام». ومن جملة النّوادر الطّريفة التي ذكرها المقريزي(2) ـ في وصفة لانتشار «الشدّة الكبرى» ـ التي أصابت تقريباً كل الطبقات الاجتماعية ـ لا بدّ لنا أن نتعرّض «لقصة الشّريفة بنت صاحب السّبيل التي كانت تبعث إلى المستنصر كل يوم بقعب من فتيت من جملة ما كان لها من البرّ والصدقات في تلك الغلوة حتّى أنفقت مالها كلّه، وكان يجلّ عن الاحصاء في سبيل البرّ. ولم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعث به إليه وهو مرّة واحدة في اليوم والليلة». نشير كذلك إلى قصّة المرأة التي باعت عقداً قيمته

(1) النّجوم الزّاهرة: 5: 16 ـ 17. نلاحظ من خلال هذه الأقاصيص الطّريفة أنّ الخليفة المستنصر كان في وضع متدهور جدّاً. لكن هذا لا يعني أنّ كلّ ما قيل في شأنه يقبله العقل بدون تساؤلات!

(2) إغاثة الأمّة: 24 وما بعدها.

ألف دينار بتلّيس من الدّقيق: «ومن غريب ما وقع أنّ امرأة من أرباب البيوتات أخذت عقداً لها قيمته ألف دينار، وعرضته على جماعة في أن يعطوها به دقيقاً وكلّ يعتذر إليها ويدفعها عن نفسه إلى أن رحمها بعض النّاس وباعها به تلّيس دقيق بمصر وكانت تسكن القاهرة فلمّا أخذته أعطت بعضه لمن يحميه من النّهابة في الطريق فلمّا وصلت إلى باب زويلة تسلّمته من الحماة له ومشت قليلاً فتكاثر النّاس عليها وانتهبوه نهباً. فأخذت هي أيضاً مع النّاس من الدّقيق ملأ يديها لم ينبها غيره ثمّ عجنته وشوته فلمّا صار قرصة أخذتها معها وتوصّلت إلى أحد أبواب القصر ووقفت على مكان مرتفع ورفعت القرصة على يدها بحيث يراها النّاس ونادت بأعلى صوتها: يا أهل القاهرة! ادعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد الله النّاس بأيّامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتّى تقوّمت عليّ هذه القرصة بألف دينار». نستنتج من كلّ هذه النّوادر والأقاصيص التي يزخر بها كتاب ابن تغري بردى بصفة خاصّة أنّ مجاعة سنة 457 كانت أشدّ وأعنف من كلّ المجاعات التي سبقتها وأنّ النّاس كانوا في ضيق أدّى بهم إلى النّهب وأكل القطط و الكلاب وحتّى لحوم البشر. ثمّ إنّ الخليفة المستنصر لم يكن في وسعه وضع حدّ للأزمة.

غير أن المقريزي أشار في نهاية وصفه لتلك المجاعة إلى ردّ فعل المستنصر الصّارم ـ بعد سماعه لقصّة المرأة المذكورة آنفاً ـ وهو ردّ فعل أقلّ ما يقال فيه أنّه يتناقض مع السلطة الفعليّة والنّفوذ السياسّي اللذين كان يملكهما الخليفة آنذاك.

يقول المقريزي[1]. . . «فلما اتّصل به ذلك امتعض له وقدح فيه وحرّك منه وأحضر الوالي وتهدّده وتوعّده وأقسم له بالله جلّت قدرته أنّه إن لم يظهر الخبز في الأسواق وينحلّ السّعر وإلاّ ضرب رقبته وانتهب ماله. فخرج من بين يديه وأخرج من الحبس قوماً وجب عليهم القتل وأفاض عليهم ثياباً واسعة وعمائم مدوّرة وطياً ليس سابلة وجمع تجّار الغلّة والخبّازين والطحّانين وعقد

(1) المصدر نفسه.

مجلساً عظيماً وأمر بإحضاره واحد من القوم فدخل في هيئة عظيمة حتّى إذا مثل بين يديه قال له: «ويلك ما كفاك أنّك خنت السّلطان واستوليت على مال الدّيوان إلى أن أخربت الأعمال ومحقت الغلال. فأدّى ذلك إلى اختلال الدّولة وهلاك الرعيّة؟ اضرب رقبته» فضربت في الحال وتركه ملقى بين يديه ثم أمر بإحضار آخر منهم فقال له: «كيف جسرت على مخالفة الأمر لمّا نهي عن احتكار الغلّة وتماديت على ارتكاب ما نهيت عنه إلى أن تشبّه بك سواك. فهلك النّاس! اضرب رقبته!» فضربت في الحال. واستدعى آخر فقام إليه الحاضرون من التّجار والطحّانين والخبّازين وقالوا: «أيّها الأمير في بعض ما جرى كفاية ونحن نخرج الغلّة وندير الطّواحين ونعمّر الأسواق بالخبز ونرخص الأسعار على النّاس ونبيع الخبز رطلا بدرهم». فقال «ما يقنع النّاس منكم بهذا». فقالوا: «رطلين» فأجابهم بعد الضرّاعة ووفّوا الشّرط. وتدارك الله الخلق وأجرى النيل وسكنت الفتن وزرع النّاس وتلاحق الخير وانكشفت الشدّة وفرجت الكربة. وخبر هذه الغلوات مشهور وفي هذا القدر كفاية من التّعريف والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون».

يظهر جليّاً على ضوء هذا النّص أنّ الغلاء ناتج عن الوضع السياسي المتدهور الذي كان يتخبّط فيه المستنصر وأنّ تماديه مدّة سبع سنين يرجع إلى المضاربات التجاريّة وسياسية الاحتكار التي يقوم بها بعض التّجار إلى جانب الطحّانين والخبّازين.

أمّا نهاية الأزمة فالمقريزي يفسرها ـ بقطع النظر عن تدخّل القوّة الإلهيّة ـ بضبط الأسعار من طرف الوالي وجريان النّيل ممّا أدّى بعد ذلك إلى سكون الفتن ومواصلة الزّراعة. . .

هذا وقد أكد ابن تغري بردى[1] في حديثه عن غلاء سنة 457 على المقابلة بين قصر النّيل من ناحية، والحروب التي كانت تخاض آنذاك ضدّ بني حمدان ثمّ الصرّاع بين الأتراك والعبيد من ناحية أخرى.

---

(1) النّجوم الزّاهرة: 5: 13 و17 وبعدها.

ومهما يكن من أمر فإنّ كلّ الغلوات التي اجتاحت مصر في عهد المستنصر تدلّ بكلّ وضوح على أنّ البلاد المصريّة كانت فعلاً تتخبّط في أزمة اقتصادية شديدة من جرّاء قصر النّيل وقلّة الحبوب وارتفاع أسعار الغلاّت بالإضافة إلى سياسة الاحتكار وعمليات المضاربة التي كان يقوم بها التّجار والخبّازون والطحّانون على حساب الفلاحين والرعيّة:

وقد استطعنا أن نثبت احتداد تلك الأزمة الاقتصادية بالاستناد إلى مؤشّرين أساسيين: تطوّر وزن الدينار الذهبي في اتجاه الانحدار في عهد المستنصر، ثم تقلّبات مياه النّيل الفجئيّة في نفس المدّة وما كان لها من انعكاسات على السكّان.

2) الوضع الاقتصادي في مصر في عهد المستنصر من خلال دراسة تطوّر وزن الدّينار الذّهبي وتقلّبات مياه النّيل:

أ ـ تطوّر وزن الدّينار الذهبي: (1)

إنّ دراسة تطوّر قيمة النّقود من أهمّ الدّلائل لتمييز الوضع الاقتصادي في بلد ما نظراً لأنّ معرفة الدّينار أو الدّرهم تساهم بقسط وافر في إلقاء الأضواء على ذلك الوضع بكلّ أبعاده.

ولوزن الدّينار الذهبيّ ـ الذي يهمّ دراستنا ـ أهميّة كبرى. فكلّما زاد وزنه فذلك يدلّ على رفاهية الدّولة وغناها ثمّ عنايتها بالعملة حتّى تكسب ثقة الرّعية وتصبح واسعة الرّواج. وأمّا إذا نقص الوزن فذلك دليل على تدهور الحالة الاقتصاديّة في البلاد. إذ يعمد الخليفة في هذه الصورة إلى إنقاص وزن العملة حتّى يقلّل من نفقات الدّولة فتنخفض رواتب الموظّفين ويزيد مقدار الضّرائب(2).

---

(1) انظر: Lavoix, H. سبق ذكره، 3، 102 ـ 15. حسن إبراهيم حسن: سبق ذكره، 605 ـ انظر كذلك: Ashtor, E., Histoire des prix et des salaires dans l'orient médiéval (Paris, 1969), p. 119 - 122.

(2) انظر Sauvaire ـ سبق ذكره، و Ashtor, E. سبق ذكره، 119 وما بعدها. حسن إبراهيم حسن: سبق ذكره: 605.

كيف كان إذن تطوّر الدّينار الذّهبي في عهد المستنصر؟ إنّ المتفحص للخطّ التّطويري للدّينار في العصر الفاطمي بصفة عامّة وفي خلافة المستنصر بصفة خاصّة[1] يلاحظ أنّه بلغ حده الأقصى الذي مقداره 4,39 غرامات سنة 451/1059 وحدّه الأدنى الذي بلغ 2,90 غرامات سنة 429/1037. ومن ناحية أخرى فأنّ وزنه انحطّ إلى مستوى 3,88 غرامات سنة 444/1052 وهو وزن ضعيف بالنسبة للمعدلّ العامّ. وممّا يسترعي الانتباه كذلك أنّ تلك السنة هي سنة المجاعة التي اكتسحت مصر آنذاك وهي في نفس الوقت سنة انطلاق هجرة بني هلال إلى إفريقيّة.

إنّ وضع رسم بيانـيّ (Graphique)[2] لأوزان الدّينار أثناء المدّة الواقعة بين سنتي 428/1036 و 484/1092 يمكننا من استنتاج ما يلي:

(1) انظر الجدول في الصّفحة الموالية.

(2) انظر الرّسم في أسفله، وفيه ذكر السّنوات من ناحية ووزن الدّينار بالغرامات من ناحية ثانية (الإحداثيّات).

1) لوحة رقمية تبرز تطوّر وزن الدّينار الذّهبي
في عهد المستنصر بالله الفاطمي(*)

(487 - 427/ 1090 - 1036)

السّنوات		الوزن بالغرامات	السّنوات		الوزن بالغرامات
428/	1037 - 1036	4,12	451/	1060 - 1059	4,39
429/	1038 - 1037	2,90	452/	1061 - 1060	4,20
430/	1039 - 1038	3,90	454/	- 1062	4,22
432/	1041 - 1040	4,14	456/	1064 - 1063	3,94
435/	1044 - 1043	4,30	461/	1069 - 1068	4,03
436/	1045 - 1044	4,00	462/	1070 - 1069	4,05
437/	1046 - 1045	4,00	469/	1077 - 1076	4,05
438/	1047 - 1046	4,10	473/	1081 - 1080	4,11
440/	1049 - 1048	4,08	474/	1082 - 1081	4,25
442/	1051 - 1050	4,10	475/	1083 - 1082	3,94
443/	1052 - 1051	4,00	478/	1086 - 1085	4,38
445/	1054 - 1053	3,88	481/	1089 - 1088	4,25
446/	1055 - 1054	4,30	483/	1091 - 1090	4,23
447/	1056 - 1055	4,28	484/	1093 - 1092	4,03
448/	1057 - 1056	4,18			

* انظر H. Lavoix سبق ذكره 3، 152 - 102

أوّلاً: ارتفاع في وزن الدّينار يتبعه نوع من الاستقرار من سنة 1040/432 (4,41 غرامات) إلى حدّ سنة 1051/443 (4 غرامات).

- **ثانياً**: إنخفاض سنة 1053/445 (3,88 غرامات) يعقبه استقرار في وزن الدّينار إلى حدّ سنة 1059/451 (4,39 غرامات) حيث ينحدر الوزن من جديد بداية من سنة 1063/456 (3,94 غرامات).

ثالثاً: استقرار نسبي من سنة 1068/461 (4,03 غرامات) إلى حدّ سنة 1081/474 (4,25 غرامات) يليه انخفاض سنة 1082/475 (3,94 غرامات) ثمّ ارتفاع سنة 1085/478 (4,38 غرامات).

لكنّ دراسة دقيقة للفترة الممتدّة من سنة 1043/435 إلى سنة 1063/455 - وهي المدّة التي حدثت فيها القطيعة بين الفاطميين في مصر وحلفائهم بني زيري في إفريقية وجاءت إثرها الهجرة الهلاليّة - تثبت لنا تطابقاً يكاد يكون كاملاً بين الثّلاثة أحداث الآتية:

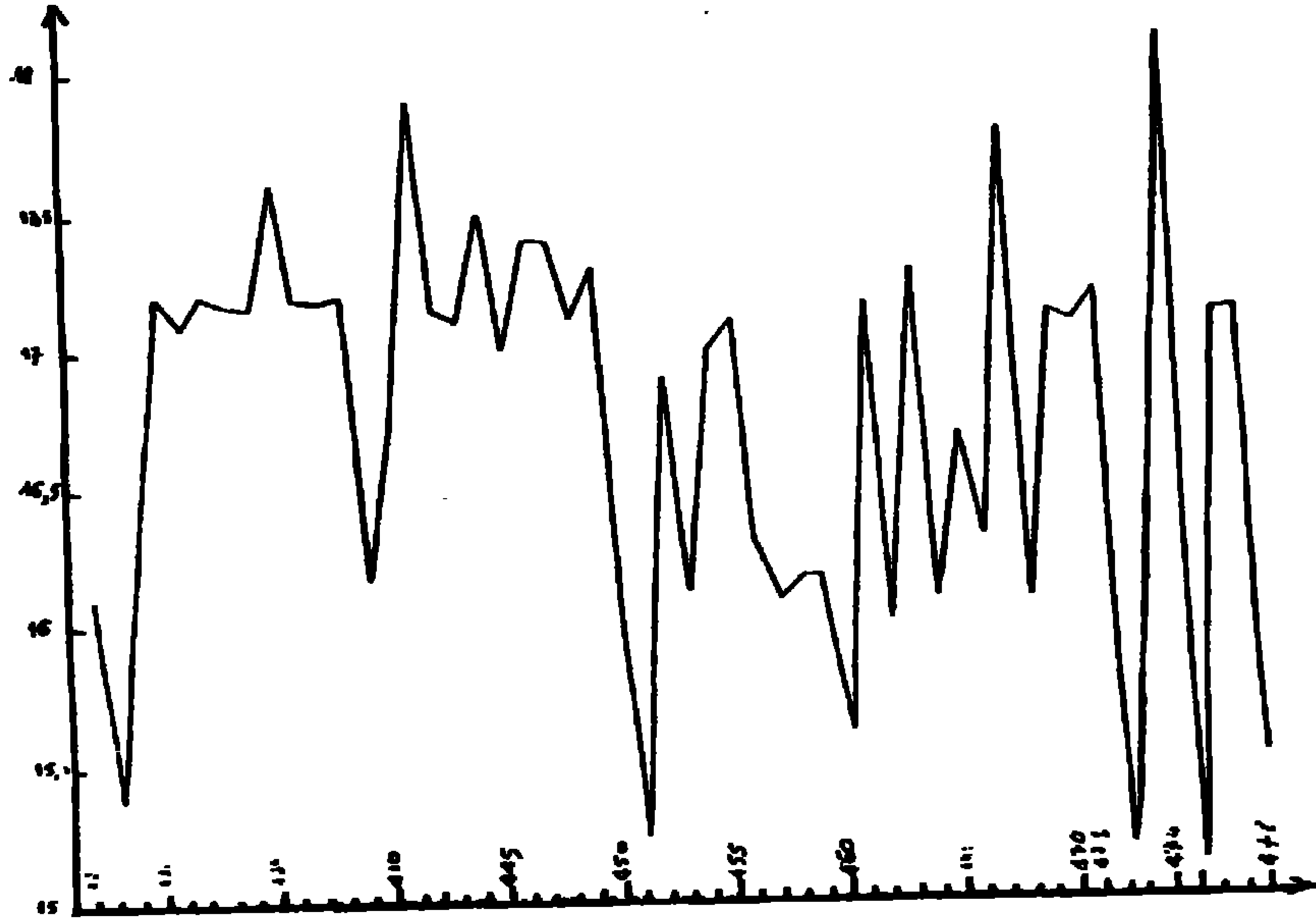
- انخفاض وزن الدّينار سنة 1053/445 (3,88 غرامات) ثمّ سنة 1064/456 (3,94 غرامات).

- شدّة المجاعات في البلاد المصريّة خاصّة سنة 1053/445 وسنة 1065/457.

- وأخيراً تدفّق بني هلال وبني سليم على إفريقيّة بداية من سنة 444/ 1053.

أليس هذا دليل صارخ على تدهور الحالة الاقتصادية وحدّة الأزمة التي اكتسحت البلاد المصريّة في عهد المستنصر؟

2) رسم تخطيطيّ (Graphique) يمثّل تطوّر
وزن الدّينار الذّهبي في عهد المستنصر(*)



* ذكرنا في الإحداثيّات (Coordonnées) السّنوات في ناحية ووزن الدينار بالغرامات من ناحية أخرى.

ب) دراسة تقلّبات مياه النّيل: (1)

نودّ أن نشير قبل كلّ شيء إلى ما أورده ابن بطّوطة في رحلته(2) عن النّيل وخاصيّاته: «... ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق، واتّساع قطر، وعظم منفعة، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلها، ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النّيل وليس في الأرض نهر يسمّى بحراً وغيره».

(1) انظر الخطط، 1: 109 ـ 102 ـ النّجوم الزاهرة، 5: 142 ـ 1، حيث يذكر لنا كلّ من المقريزي وابن تغري بردى نسبة ارتفاع أو انخفاض مياه النّيل أثناء خلافة المستنصر.
(2) ابن بطّوطة: رحلة، دار صادر (بيروت 1964)، 40، وما بعدها.

«ومن عجائبه أنّ ابتداء زيادته في شدّة الحرّ عند نقص الأنهار وجفوفها، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها. . . وأوّل ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه، فإذا بلغت زيادته ستّة عشر ذراعا تمّ خراج السّلطان، فإن زاد ذراعا كان الخصب في العام والصّلاح التّام، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضرّ بالضياع. . وأعقب الوباء، وإن نقص ذراعا عن ستّة عشر نقص خراج السّلطان، وإن نقص ذراعين استسقى النّاس وكان الضّرر الشّديد».

يتّضح من خلال هذا النّص أنّ تقلّبات مياه النّيل هي التي تحدّد رخاء مصر أو كسادها. وهذا ممّا يفسّر لنا اهتمام الحكام ـ ومن بينهم الفاطميين ـ بمقاييس النّيل التي هي أشبه «بميزان الرخاء أو الكساد»[1] بالنسبة للبلاد المصريّة.

وقد كانت في مصر عدّة مقاييس للنّيل نذكر من جملتها مقياس أسوان ودندرة وحلوان والرّوضة. والمقياس[2] (Nilomètre) هو عبارة عن عمود رخام أبيض مثمن الأضلاع، في موضع يصل إليه الماء عند انسيابه، وهو مقسّم إلى إثنين وعشرين ذراعا، والذّراع مقسّم إلى أربع وعشرين إصبعا.

ويعلمنا المقريزي[3] أنّ المقياس الّذي كان يشرف عليه عامل جرت العادة أن تذاع نتائجه على النّاس عن طريق المنادي في طرقات القاهرة وسائر مدن مصر. «غير أنّ الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله (365 ـ 341/975 ـ 952) أمر بكتمان أمر المقياس لأنّ النّاس إذا شعروا بانخفاض النّيل، تسرّب القلق إلى نفوسهم، فأخفوا الغلال، وامتنعوا عن بيعها حتّى يرتفع السّعر، ويعمل الأغنياء على اختزان الغلال، فيحدث الغلاء. وإذا أحسّ الناس بزيادة النّيل هبطت الأسعار هبوطاً فاحشاً وأصيب كبار التّجار بأفدح الأضرار. لذلك كان في كتمان

---

(1) حسن إبراهيم حسن: سبق ذكره، 572 وما بعدها.

(2) انظر: Popper, W., The Cairo Nilometer (Berkeley, 1951) P.102 - 5.

(3) الخطط، 1: 102 وما بعدها.

الزّيادة عن العامّة فائدة كبرى»[1].

وهكذا فإنّ رخاء البلاد المصريّة ورفاهيّتها مرتبطان شديد الارتباط بمنسوب مياه النّيل مع العلم أنّ المعدّل المثاليّ ـ كما أكده كلّ من ابن بطّوطة والمقريزي ـ قدره ستّة عشر ذراعا[2].

كيف كانت إذن تقلّبات مياه النّيل في أيّام المستنصر؟

يظهر من خلال الثّبت الذي يسجّل نسبة ارتفاع النّيل وانخفاضه في عهد المستنصر[3] أنّ هناك سنين (440 ـ 430) بلغ فيها منسوب النّيل بالاذرع والأصابع أعلى مداه (أكثر من 17 ذراعا) وسنين أخرى (مثلاً 429 ـ 451 ـ 460 ـ 472) انخفض فيها ماء النّيل انخفاضاً فاحشاً كانت له انعكاسات سيئة على الضيّاع والرعيّة (ما يعادل 15,20 ذراعا).

إنّ دراسة مدقّقة لهذه الأرقام المتوفّرة عند المقريزي وابن تغري بردى[4] تكشف لنا عن التقلّبات الآتية لمياه النّيل:

(1) حسن إبراهيم حسن: سبق ذكره، 572. وما بعدها.

(2) الذراع عبارة عن «وحدة قياس» مقدارها 4 قبضة أو 6 إصبعا ـ أمّا الأصبع فيساوي 6 شعيرة. انظر: دائرة المعارف الإسلامية 2، 238 (Hinz, W.).

(3) انظر الجدول في الصّفحة الموالية.

(4) الخطط، 1: 102 وما بعدها. النّجوم الزاهرة، 5: 142 ـ 1.

3) جدول يسجّل نسبة ارتفاع النّيل أو انخفاضه في عهد المستنصر(*)

	السّنوات	القياس بالأذرع
/427	1035 _ 1036	16,15
/428	1036 _ 1037	15,39
/429	1037 _ 1038	15,20
/430	1038 _ 1039	17,20
/431	1039 _ 1040	17,10
/432	1040 _ 1041	17,20
/433	1041 _ 1042	17,17
/434	1042 _ 1043	17,16
/435	1043 _ 1044	17,60
/436	1044 _ 1045	17,20
/437	1045 _ 1046	17,20
/438	1046 _ 1047	17,19
/439	1047 _ 1048	16,17
/440	1048 _ 1049	16,70
/441	1049 _ 1050	17,90
/442	1050 _ 1051	17,16
/443	1051 _ 1052	17,12
/444	1052 _ 1053	17,50
/445	1053 _ 1054	17,00
/446	1054 _ 1055	17,40
/447	1055 _ 1056	17,40
/448	1056 _ 1057	17,13
/449	1057 _ 1058	17,30
/450	1058 _ 1059	16,12
/451	1059 _ 1060	15,23
/452	1060 _ 1061	16,90
/453	1061 _ 1062	16,18
/454	1062 _	17,00
/455	1063 _	17,12
/456	1063 _ 1064	16,30
/457	1064 _ 1065	16,10
/458	1065 _ 1066	16,17
/459	1066 _ 1067	16,17
/460	1067 _ 1068	15,60
/461	1068 _ 1069	17,18
/462	1069 _ 1070	16,00
/463	1070 _ 1071	17,30
/464	1071 _ 1072	16,10
/465	1072 _ 1073	16,70
/466	1073 _ 1074	16,30
/467	1074 _ 1075	17,80
/468	1075 _ 1076	16,14
/469	1076 _ 1077	17,13
/470	1077 _ 1078	17,20
/471	1078 _ 1079	17,20
/472	1079 _ 1080	15,18
/473	1080 _ 1081	16,15
/474	1081 _ 1082	18,13
/475	1082 _ 1083	15,10
/476	1083 _ 1084	17,13
/477	1084 _ 1085	17,13
/478	1085 _ 1086	15,50
/479	1086 _ 1087	17,15
/480	1087 _ 1088	17,70
/481	1088 _ 1089	18,40
/482	1089 _ 1090	16,90
/483	1090 _ 1091	18,00
/484	1091 _ 1092	16,22
/485	1092 _ 1093	16,11
/486	1093 _ 1094	16,30
/487	1094 _ 1095	16,21
/488	1095 _ 1096	17,12
/489	1096 _ 1097	13,17
/490	1097 _ 1098	17,10

* انظر الخطط، 1 ، 109_102؛ النجوم الزاهرة، 5 ، 142_1.

ـ أولاً: ارتفاع نسبي للنّيل أثناء المدّة الواقعة بين سنتي 430 و 440 حيث بلغت المياه ما يعادل 17 ذراعاً ـ ما عدا سنتي 439 و 440.

ـ ثانياً: ارتفاع فادح حيث بلغت المياه ما بين سنة 444 و 447 ـ المعاصرة للغزو الهلاليّ لافريقية ـ أكثر من 17 ذراعاً.

ـ ثالثاً: انخفاض سنة 451 (15,23 ذراعاً).

ـ رابعاً: استقرار نسبيّ من سنة 452 (16,90 ذراعاً) إلى سنة 459 (16,17 ذراعاً) حول معدّل يتراوح بين 16 و 17 ذراعاً.

ـ خامساً: ارتفاع فاحش خلال السّنوات 467 (17,80 ذراعاً) و 474 (18,13 ذراعاً) و 481 (18,40 ذراعاً).

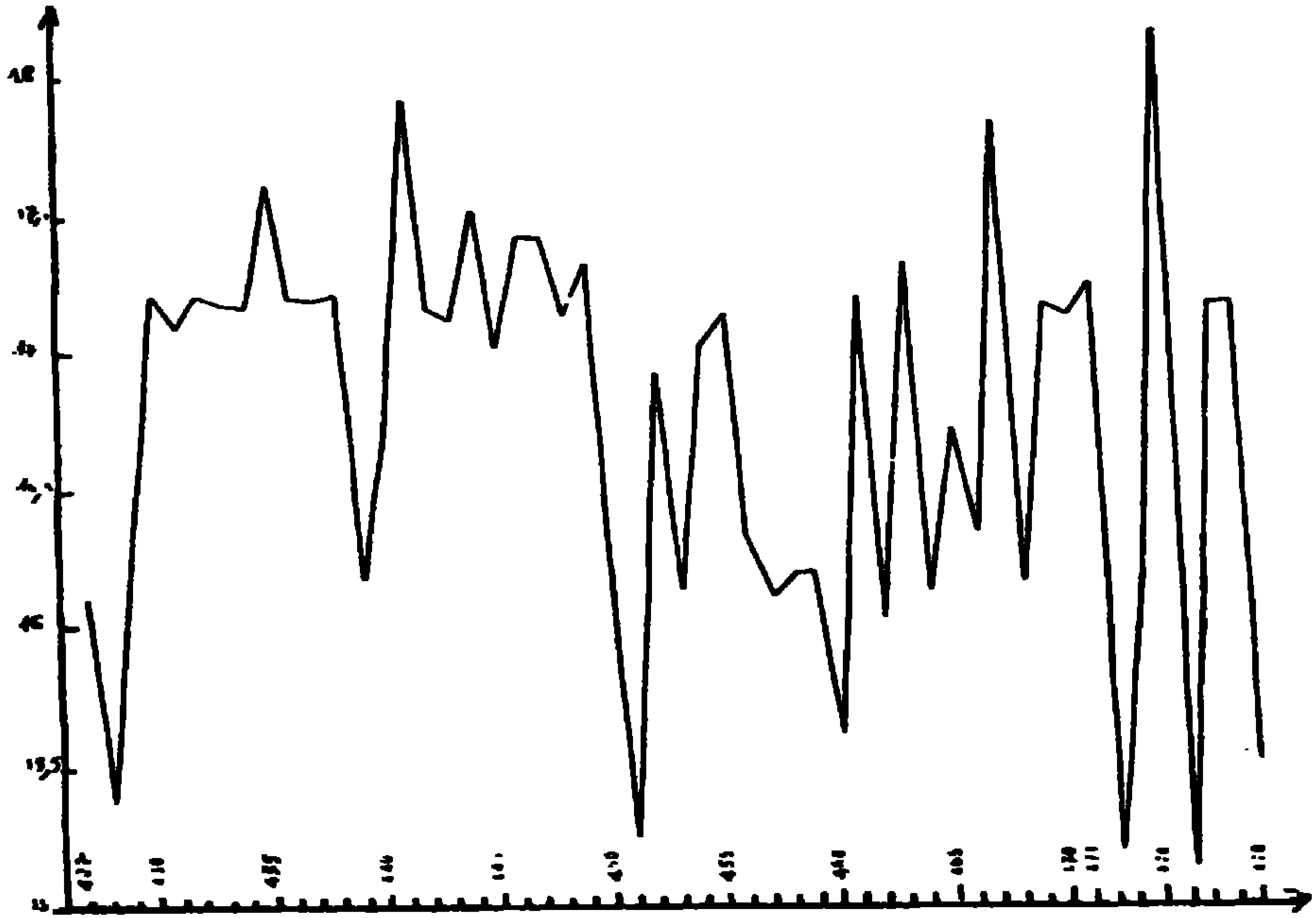
إنّ رسم خطّ بيانيّ[1] لتقلّبات مياه النّيل يدلّنا على مدى التغيّرات الفجئيّة للنّيل (Oscillations): ارتفاع مشّط خلال السّنوات 441 (17,90 ذراعاً)، 444 (17,50 ذراعاً)، 446 (17,40)، و 467 (17,80 ذراعاً)، ثمّ انخفاض فادح سنة 451 (15,23 ذراعاً)، 460 (15,60 ذراعاً) وخاصّة سنة 472 (15,18 ذراعاً) و 489 (13,17 ذراعاً). . .

هنالك إذن تواقت بين سنوات فيضان النّيل (441 و 444 و 446) وسنوات الغلوات في مصر من ناحية وسنوات انطلاق هجرة بني هلال إلى إفريقية من ناحية أخرى.

كذلك نلاحظ أنّ الدّينار انحدر خلال نفس هذه السّنوات ممّا يجعلنا نتساءل عن العلاقة بين الأزمة الاقتصادية التي اكتسحت مصر في عهد المستنصر والهجرة الهلاليّة إلى إفريقية.

(1) إغاثة الأمّة، 24 وما بعدها.

4) رسم بياني يمثّل تقلّبات مياه النّيل في عهد المستنصر(*)



3) العلاقة بين الحالة الاقتصادية المتدهورة في مصر في عهد المستنصر والهجرة الهلاليّة إلى إفريقية:

كلّ الإشارات تدل بصفة جليّة لا يتسرّب إليها الشك أنّ الوضع الاقتصادي في مصر كان فعلاً في تدهور أقلّ ما يقال فيه أنّه مريع. ولنا في الأحداث التّالية ما يثبت ذلك:

- أوّلاً: قلّة المواد الغذائيّة ولا سيما الحبوب.
- ثانياً: ارتفاع الأسعار وبصفة خاصّة سعر الخبز.
- ثالثاً: تكاثر المجاعات والأوبئة الذي جعل الرعيّة تتهافت على أكل القطط والكلاب وحتّى البشر.

---

* ذكرنا في الأحداثيّات (Coordonnées) السّنوات من جهة ونسبة ارتفاع مياه النّيل أو انخفاضها بالأذرع والأصابع من جهة أخرى.

ـ رابعاً: انخفاض في أوزان الدّينار الذّهبي.

ـ خامساً: فيضان مياه النّيل وقصرها وما لذلك من نتائج سيّئة على حالة السكّان.

وقد أكد لنا المقريزي[1] أنّ تأزّم الوضع الاقتصاديّ في مصر آنذاك وتكاثر المجاعات والأوبئة في عهد المستنصر انجزّ عنهما انحسار ديموغرافي كبير، وتوقّف للحركة التجاريّة بقطع النّظر عن تعطّل الزراعة وانتشار الخوف والفزع في صفوف الرعيّة...

غير أنّ النظام الفاطمي ـ في تلك الفترة ـ لم يكن في مستوى الوضع حيث أنّ المستنصر وجد صعوبات جمّة لتدارك تلك الحالة واجتثاث جذور الأزمة.

وهكذا انجرّت عن الأزمة الاقتصادية أزمة سياسيّة حادّة في منتصف القرن الخامس الهجري.

والمهمّ هو أنّ تلك الأزمة الحادّة على المستويين الاقتصادي والسّياسي عاصرت الهجرة الهلاليّة إلى إفريقية.

فهل كانت المطابقة الزمنيّة بين الحدثين من باب الصّدفة؟ أمْ هل أنّ تغريبة بني هلال لها علاقة ضمنيّة بالوضع الدّاخلي في مصر في عهد المستنصر؟

إنّنا نميل بدون شكّ إلى الافتراض الثّاني وسنعلّل ذلك بعد حين.

فالنظريّة التقليديّة[2] التي ذكرناها آنفاً والّتي تفسّر الهجرة بأسباب سياسيّة وإيديولوجية بحتة غير كافية في نظرنا لأنّها تهمل كلّ الإهمال العامل الاقتصادي الذي لعب دوراً كبيراً في تلك الحركة.

ثمّ إنّ العامل السّياسي الذي لا يمكن لنا التّغافل عنه قد لا يكون في نهاية الأمر سبباً في حدّ ذاته بل مجرّد تعلّة (Prétexte) بالنّسبة للمستنصر الذي كان يتخبّط في صعوبات جمّة. فهو إذن عامل ثانوي لا سيما وأنّ القبائل الهلالية بدورها كانت في وضع مادّي خانق نظراً لوجودها في منطقة جدباء عرفت

(1) انظر الخطّ البيانيّ في الصّفحة الموالية.

(2) انظر Idriss, H.R. ـ سبق ذكره، 1: 203 وما بعدها.

بجفاف مناخها وقلّة مراعيها وهي الصّعيد، ممّا شجّعها على توجيه نظرها إلى إفريقية والخروج من الصّعيد بحثاً عن ظروف عيش ملائمة.

وممّا يدلّ على ذلك ما جاء في «سيرة بني هلال»[1] من ذكر حثيث للمجاعات الّتي أدّت بالّسلطان حسن بن سرحان إلى إرسال أبي يزيد الهلاليّ إلى إفريقية ـ المعروفة بغناها ورفاهيّتها ـ لاستطلاع أحوال البلاد.

هذا وقد تعرّض ابن خلدون في حديثه عن خروج بني هلال من الصعيد إلى إفريقية إلى الأسباب التي تكمن وراء ذلك.

يقول في هذا الصّدد[2]: «فبعث المستنصر وزيره[3] على هؤلاء الأحياء[4] سنة إحدى وأربعين، وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامّتهم بعير ودينار لكلّ واحد منهم، وأباح لهم إجازة النّيل. وقال لهم: «قد أعطيتكم المغرب ملك المعزّ بن بلكين الصنهاجيّ العبد الآبق فلا تفتقرون».

نلاحظ من خلال هذا النّص المشهور الذي اعتمد عليه كلّ المؤرخّين ـ وخاصّة المستشرقين منهم ـ لتعليل هجرة هلال وإكسابها طابعاً سياسيّاً ـ ألا وهو نقمة المستنصر على الخليفة المعزّ لدين الله الصّنهاجيّ الذي قطع الخطبة له وخطب لخصمه العبّاسي ـ نلاحظ إذن وجود جملة كثيراً ما وقع إهمالها «فلا تفتقرون» وهي تدلّ في نظرنا على تدهور وضع بني هلال آنذاك في الصّعيد.

ويضيف ابن خلدون قائلاً: «وكتب اليازوريّ إلى المعزّ: «أمّا بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فطمعت العرب إذ ذاك وأجازوا النّيل إلى برقة، ونزلوا بها وافتتحوا أمصارها واستباحوها، وكتبوا لإخوانهم بشرقيّ النّيل يرغبونهم في البلاد، فأجازوا

(1) انظر عبد الرّحمان قيـقة ـ سبق ذكره. راجع أيضاً «سيرة بني هلال» مخطوط بالمكتبة الوطنيّة بتونس رقم 13557 و 13306.

(2) ابن خلدون: تاريخ، 4: 31.

(3) الوزير المقصود هو اليازوريّ.

(4) الأحياء يعني بها بنو هلال وبنو سليم.

إليهم بعد أن أعطوا لكلّ رأس دينارين، فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه[1].

يكشف لنا هذا النّص على تشجيع الفاطميين لبني هلال لاجتياز النّيل والذّهاب إلى إفريقية. وقد أصبح من المؤكد أنّ هذه العملية مكّنت الخزانة الفاطميّة لا فقط من استرجاع الأموال التي كانت أسندت للعناصر الهلاليّة في بادىء الأمر من طرف المستنصر لعبور النّيل بل درّت عليها كذلك أرباحاً وفيرة كانت في أشدّ الحاجة إليها آنذاك[2].

أليس هذا إذن دليل إضافي على مدى أهميّة العنصر الاقتصادي المادّي لتفسير الهجرة الهلاليّة!

بقي لنا سؤال أخير يتعلّق بالحالة الاقتصاديّة والاجتماعيّة في إفريقية في العصر الصّنهاجي ـ وبصفة خاصّة في عهد المعزّ بن باديس ـ: فهل كانت في أوجها كما تكشف عن ذلك قراءة البيان المغرب لابن عذاري[3] وكما أكده كلّ من «مرسي» و«إدريس»؟ بحيث يكون الهلاليّون هم المتسبّبون في انهيار البلاد وانحطاط المدن فيها وبالتّالي في تغلّب الحياة البدويّة عليها.

أم هل كان هذا الوضع في صدد التدهور كما أشار إليه «بونسي»؟ بحيث لم «يزد الهلاليّون إلاّ الطّين بلّة» حينما دخلوا إلى إفريقية و «عاثوا فيها فساداً» على حدّ تعبير ابن خلدون.

ومهما يكن من أمر فأنّ العوامل الاقتصاديّة لعبت دوراً كبيراً في انتقال الهلاليّين من الصّعيد إلى إفريقية عبر طرابلس وبرقة. وممّا لا يتسرّب إليه الشك أن تلك القبائل العربيّة البدويّة قد ساهمت في نشر اللّغة العربيّة حيث تواجدت كما ساهمت ـ بمقدار لا نستطيع أن ننكره ـ في إحلال حياة البادية في مواضع كانت مزدهرة ويغلب عليها الطّابع المدني ونعني بصفة خاصّة إفريقيّة.

(1) ابن خلدون: تاريخ، 4: 31.

(2) انظر المقريزي إغاثة الأمّة، 22 بحيث يعلمنا أنّ الخزانة كانت خالية من الأموال نتيجة استفحال الأزمة وشدّة الغلوات في البلاد المصريّة آنذاك.

(3) البيان المغرب، دار الثّقافة (بيروت 1948)، 1، 1، 367 وما بعدها.

المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة
تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي
العدد 34 ـ السنة الثالثة عشرة 1409 هـ 1988م.

تصدر عن
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغـــداد

نابل من الفتح الإسلامي
إلى سقوط الدولة الحفصية

(25/646 ـ 645ـ 981/1574)

تقع نابل في سهل بين البحر وجبل سيدي عبد الرحمان، في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة الرأس الطيب (Cap Bon) المسماة حالياً الوطن القبلي والتي كان يطلق عليها العرب الفاتحون «جزيرة أبي شريك».

واسم مدينة نابل مشتق من الاسم الإغريقي القديم لها «نيابوليس» ومعناه «المدينة الجديدة» Néapolis ويرجّح جون بول درمون «J.Paul Darmon» في دراسته عن نابل القديمة[1] أن كلمة نابل ما هي إلا تعريف لاسم «نيابوليس» القديم عند العامة.

ومما يلاحظ أن مدينة نابل لم تحظ ـ في العهد الإسلامي الوسيط ـ باهتمام العرب المسلمين الذين فتحوا إفريقية والمغرب بكامله بعد عناء كبير ومحاولات عديدة دامت ما لا يقل عن سبعين سنة.

فتح العرب لأفريقية:

إذن شرع العرب ـ في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان ـ بتوجيه الغارات والسرايا على أطراف أفريقية وقام بهذه المهمة عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي عيّنه عثمان سنة 25/46 ـ 645 على ولاية مصر والمغرب[2].

---

(1) انظر: J.P. DARMON: Les Pavements de la maison de Nymphes à Néapolis.

(2) انظر ابن عبد الحكم ـ فتح مصر وأخبارها ـ ليدن 1920 ـ ص 183 وما بعدها ابن أعثم=

لكن انتصار الجيش العربي الإسلامي على «جرجير» قائد المقاطعة الإفريقية آنذاك ـ في معركة «عقوبة» (قرب سبيطلة) سنة 648/28 لم تؤدّ مباشرة إلى فتح البلاد وفرض السيطرة العربية عليها ذلك لأن الحملة أوقفت ـ بعد عزل ابن أبي سرح وبقيت أفريقية على حالها ما يقارب عشرين سنة. وهي المدة التاريخية التي دخلت خلالها الخلافة الإسلامية في المدينة في فترة اضطراب وفوضى أدّت إلى قيام ما يسمى بالحرب الأهلية الأولى في الإسلام. وتوقفت إثر ذلك حركة الفتوح[1].

وفي سنة 666/45 م أسند الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان قيادة الجيش إلى معاوية بن حدّيج لمواصلة الفتح في اتجاه إفريقية. وبعد سلسلة من العمليات العربية ضدّ البيزنطيين تمكّن خلالها ابن حدّيج من الحصول على مغانم كثيرة ونشر السرايا في البلاد عاد هذا الأخير قافلاً إلى مصر سنة 49 هـ/ 669 م دون أن يخلّف عاملاً في أفريقيّة أو حامية عربية[2].

إنّ الفتح العربي الدائم لأفريقيّة لم يتم في الحقيقة إلاّ في عهد عقبة بن نافع الذي شيّد سنة 50 هـ/ 670 مدينة القيروان ـ ولكنّه عزل سنة 675/55 نتيجة سياسته المتشدّدة إزاء البربر ـ ثم في عهد خليفته أبو المهاجر دينار (55 ـ 655/62 ـ 682) الذي سلك سياسة مرنة إزاء البربر تعتمد الانسجام وتأليف القلوب مع تطبيق مبدأ التقريب بينهم وبين العرب[3].

ومما يذكر أن أبا المهاجر وجّه السّرايا نحو قرطاجنة سنة 59 هـ/ 678 وتونس وفتح من ناحية أخرى «جزيرة شريك» ـ أي الوطن القبلي ـ وإذ يشير

= الكوفي ـ كتاب الفتوح 2 ـ حيدر آباد الدّكن 1969 ـ ص 131. . . حسن حسني عبد الوهاب ـ ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية. 1، تونس 1972، ص 43 وما بعدها.

(1) انظـر: H.DJAIT - La Conquête arabe.., «Histoire Générale de la Tunisie, II, Le Moyen âge Tunis, STD, p. 16.

(2) انظر ابن عبد الحكم ـ المصدر نفسه: ص 193 وما بعدها.

(3) سعد زغلول عبد الحميد ـ تاريخ المغرب العربي ـ الإسكندرية 79 ـ ص 175 وما بعدها.

المؤرخ خليفة بن خياط في حوادث سنة 59[1] إلى أنّ أبا المهاجر «نزل على قرطاجنة» والتقى مع الجيش البيزنطي فكثر القتل والجراح في الفريقين وحجز الليل بينهم وانحاز المسلمون في ليلتهم فنزلوا جبلاً في قبلة تونس ثم عاودوهم القتال فحاكوهم على أن يخلوا لهم الجزيرة» - يعني جزيرة أبي شريك التي تهمنا. يذكر لنا المالكي[2] الحدث بأكثر تفصيل: «خرج أبو المهاجر من مصر سنة 55 هـ بجيوش أهل الشام ومصر إلى إفريقية فوصل إلى قرطاجنة، وفيها مجتمع الروم، ويقال «نزل بفحص تونس، ويقال نزل سبخة وبنى بها، ومنها حارب أهل قرطاجنة وصالحهم، ووجه حنش بن عبد الله الصنعاني بجيش إلى الجزيرة فافتتحها، وكتب إلى أبي المهاجر بذلك، فرحل إليه واجتمع معه وقسم الفيء هنا بين جميع الجيش».

إذن فتحت «الجزيرة» سنة 59 هـ في عهد أبي المهاجر دينار عن طريق حنش بن عبد الله الصنعاني أحد التابعين الذي شارك في حركة فتح المغرب وشهد فتح الأندلس واستقرّ في القيروان وتوفي سنة 100.

وقد أُعيد عقبة بن نافع ثانية إلى إفريقية سنة 681/62 وواصل عمله الحربي بإعداد حملة كبرى قادته حتى سواحل السّوس الأقصى - لكن موته في «تهودة» سنة 683/63 - كان بمثابة الهزيمة للعرب المسلمين وبداية عهد «المقاومة البربرية الشديدة» للوجود العربي في إفريقية والمغرب[3].

وبعد القضاء على الحركة الزبيريّة في المشرق سنة 692/73 من طرف عبد الملك بن مروان أرسل هذا الأخير حسّان بن النعمان الغسّاني على رأس جيش مكثف وعهد إليه بولاية المغرب سنة 695/75[4]، وقد تمكّن حسّان من

(1) خليفة بن خياط - تاريخ 1 ص 215. انظر أيضاً ابن عبد الحكم نفس المصدر ص 198.
(2) المالكي - رياض النفوس -، بيروت 1983، 1 ص 31.
(3) ابن عبد الحكم - نفس المصدر ص 198 - سعد زغلول عبد الحميد - نفس المصدر ص 191 وما بعدها.
(4) ابن عبد الحكم - نفس المصدر، ص 200.

القضاء على المعارضة البربرية بقيادة الكاهنة كما وضع حدّاً للهيمنة البيزنطية في إفريقية التي أصبحت ـ بعد تخريب قرطاجنة واستعادة بقية الحصون من أيدي البيزنطيين ـ خاضعة بصفة نهائية للسلطة العربية الإسلامية[1].

إذن نلاحظ من خلال هذا العرض السريع لأحداث فتح إفريقية من طرف العرب «أنّ جزيرة أبي شريك» التي تهمّنا قامت بفضل مواقعها مثل إقليبية بدور كبير في الصراع العربي البيزنطي، وقد فتحت سنة 59 هـ بعد أن قبل البيزنطيون إخلاءها للعرب مقابل توجّههم إلى جزيرة قوسرة.

لكن نابل التي تقع في الجنوب الشرقي لهذه الجزيرة لم يذكرها المؤرخون والجغرافيون إلاّ في فترة متأخرة من العهد الوسيط.

شبه جزيرة أبي شريك في العصر الإسلامي الوسيط:

من جملة الجغرافيين العرب الذين اهتموا ـ في مؤلفاتهم ـ بشؤون إفريقية والمغرب في العهد الوسيط نذكر اليعقوبي صاحب كتاب «البلدان» الإصطخري مؤلف كتاب «المسالك والممالك» ابن حوقل صاحب كتاب «صورة الأرض» والمقدسي مؤلف كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم». لكن الشيء المؤسف هو أنّهم أهملوا تماماً ذكر «نابل» ولم يتعرضوا في أحسن حال إلاّ إلى ذكر «جزيرة شريك» في العهد الإسلامي.

فهذا اليعقوبي[2] (المتوفى سنة 292/904) يعرّج في حديثه عن القيروان «ومن القيروان إلى الموضع الذي يقال له الجزيرة مرحلة وهي جزيرة أبي شريك موغلة في البحر يحيط بها ماء البحر كثيرة التجارة وفيها قوم من رهط عمر بن الخطاب وسائر بطون العرب والعجم ولها عدّة مدن ليست بالعظام يتفرّق فيها الناس وعاملها ينزل مدينة يقال لها «النواتية» بالقرب من إقليبية التي يركب منها

(1) انظر هشام جعيط ـ نفس المرجع بالفرنسية ـ ص 32 وما بعدها.
(2) اليعقوبي كتاب البلدان ـ طبعة ليدن، ص 348.

إلى صقلية»[1].

أما الإصطخري[2] فيكتفي بذكر مدن المغرب وإفريقية الساحلية المهدية -تونس- طبرقة إلى جانب مدينة القيروان دون الإشارة إلى الجزيرة ومدنها. ومن جهته يصف ابن حوقل (متوفّى سنة 367 هـ/ 977) الجزيرة بقوله[3] «إقليم له مدينة تعرف بمنزل باشوا واسعة العمل خصبة أوسع من سوسة على سلطانها دخلاً وأكثر منها جباية وأهلاً ولها كورة تضاف إليه وغير غلّة يعوّل التجار عليها وبها في غير موضع وخمٌ ظاهر الثقل في مياهها ولا يدخلها غريب إلاّ مرض وإذا دخلها السودان صلحوا به وصلحت نفوسهم وطابت بالخدمة قلوبهم وجميع الفواكه بها ولباشوا[4] هذه أسواق في كل شهر تحضر لأيام معروفة».

---

(1) قام المستشرق روبر برنشفيك بالتعريف بهذه المدينة التي كانت عاصمة الجزيرة في العهد الإسلامي الأول - وهي تسمى «نوبة» أو «نوبية».

R.Brunschvig. A Propos d'un toponyme tunisien au moyen âge - Nūba. ou Nūbiya - Revue tunisienne - 1933, pp. 149 - 153.

كما ذكرها محمد الطالبي في أطروحته عن الإمارة الأغلبية (الطبعة الفرنسية) ص 294 - وحدّدها حسن حسني عبد الوهاب (ورقات 1 ص 281) كـ مرسى حربي في الجهة الغربية من شبه جزيرة شريك - كان بالمكان الذي به الآن ضريح سيدي داوود النّوبي وبه المعمل المشهور لصيد سمك التن وتصبيره».

(2) الأصطخري - المسالك والممالك، طبعة ليدن، ص 38.

(3) ابن حوقل - صورة الأرض - طبعة ليدن - ص 73.

(4) انظر فيما يتعلق بمنزل باشوا دراسة حسن حسني عبد الوهاب في ورقات 3 ص 327 وما بعدها «مدائن اضمحلت في البلاد التونسية» ويحدّد المؤلف مكان المدينة التي خرّبت حسب ما ذكره لنا التيجاني سنة 1186/582 على بعد 7 كلم من الشمال الشرقي لمدينة قرنبالية بين قرية «الأخوين» ومحطة بوعرقوب وتسمى «جديدة»، وقد نشأت المدينة وازدهرت في عهد الدولة الأغلبية ومما يذكر أن منزل باشوا أصبحت عاصمة إقليم الجزيرة مكان «نوبة» التي تبعد عنها 75 كلم جوّاً. وذلك في العهد الأغلبيّ لأن نوبة بعيدة عن الطرق الرئيسية في البلاد ولم تعد تلعب دور المرسى الحربي الرئيسي - بينما يعتقد حسن حسني عبد الوهاب أن منزل باشوا كانت قرية فلاحية تقع على الجادة الكبرى الرابطة بين الشمال والجنوب فأصبحت عاصمة الاقليم لموقعها الاستراتيجي وصلاحها لأن تكون نقطة مراقبة لطرق المواصلات وهكذا اجتمعت في منزل باشوا =

ويقول المقدسي(1) في حديث عن إقليم المغرب: «وجزيرة أبي شريك في البحر لها إثنا عشر رستاقاً اسم مدينتها منزل باشوا بلا سور بناؤهم مدر وشربهم من آبار منها سقي مزارعهم».

أما البكري (المتوفّى سنة 487 هـ/ 1094) صاحب كتاب «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»، وهو جزء من كتاب «المسالك والممالك»، فقد تعرّض بدوره إلى جزيرة أبي شريك(2) وذلك في مناسبتين: الأولى عند حديثه عن تونس وذكر أبوابها «ومنها باب الجزيرة قبلي ينسب إلى جزيرة شريك ويخرج منه إلى القيروان» والثانية حيث يقول بعد التعرّض إلى المواقع بين تونس وسوسة «وفيما بين سوسة ومدينة تونس جزيرة شريك، تنسب إلى شريك العبسيّ(3) كان عاملاً عليها وأم إقليم جزيرة شريك منزل باشوا وهي مدينة كبيرة آهلة بها جامع وحمّامات وثلاث رحاب وأسواق عامرة وبها قصر أحمد بن عيسى القائم على ابن الأغلب ـ وبجزيرة شريك اجتمعت الروم بعد دخول عبيد الله بن سعد بن أبي سرح المغرب وتبادروا منها إلى مدينة إقليبية وما حولها ثم ركبوا منها إلى جزيرة قوسرة(4) وهي بين «صقلية وإفريقية» ويواصل البكري

= الاعتبارات السياسية والاقتصادية والحربيّة ممّا جعل الإدارة المركزية تعتمد عليها لمسك زمام الأمور في البلاد». و«كانت توجد قبل قدوم العرب في موقع باشوا مدينة رومانية تسمّى «Ad Marcurium» وظلت باشوا مزدهرة ثلاثة قرون وبدأت في التدهور منذ الغزو الهلالي فأصبحت قوية فقيرة بلا أسوار تحميها».

(1) المقدسي «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ـ طبعة ليدن ـ 228.

(2) البكري ـ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ـ مكتبة المثنّى بغداد ص 38 و 45.

(3) شريك هو والد قرة بن شريك بن مرثد بن حازم العَبْسي القيسي الذي ولي مصر مكان عبد الله بن عبد الملك أخ الخليفة الأموي الوليد سنة 90 (انظر الطبري، تاريخ 44، ص 422 و 491) وتوفي سنة 95 أو 96 (طبري 7 ـ 522).

(4) قوسرة هي جزيرة فتحها المسلمون في أيام معاوية بن أبي سفيان وأوّل من غزا قوسرة القائد عبد الملك بن قطن الفهري في ولاية موسى بن نصير لإفريقية سنة 88/707 ثم غزاها حبيب بن أبي عبيدة الفهري في مدّة عبد الله بن الحبحاب في حدود سنة 118/736 ويعتقد المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب الذي خصّص دراسته عن قوسرة =

قائلاً: «ومن تونس إلى منزل باشوا هذه مرحلة بينهما قرى كبيرة آهلة كثيرة وجعة جليلة مجرّبة النفع».

إذن نفهم من خلال هذه النّصوص الجغرافية التي خصّصها مؤلفوها إلى وصف «جزيرة أبي شريك» أن هذا الإقليم قام بدور هام في فترة الفتح العربي الإسلامي لإفريقية حيث إنّ البيزنطيين استعملوه كقاعدة تراجع في البحر أمام تقدّم القوّات العربية الإسلامية وتوغّلها داخل المنطقة.

ومن الناحية العمرانية كانت هذه الجزيرة - في الوقت الذي زار فيه اليعقوبي بلاد المغرب وإفريقية - أي في نهاية القرن الثالث الهجري - قبل سقوط الدولة الأغلبية واضطلاع الفاطميين بالحكم في إفريقية كانت آهلة بالسكان من مختلف القبائل العربية من قيس ومن اليمن - بما فيها رهط الخليفة عمر بن الخطاب - وكانت تشمل أيضاً العجم وحتى اليهود[1]. وكانت هذه الجزيرة من الناحية الإدارية والسياسية تحت رعاية والٍ يتبع أمير إفريقية، مقرّه مدينة نوبة في القرن الأول والقرن الثاني ثم أصبح في العهد الأغلبي على ما يظهر منزل باشوا. وتذكر لنا المصادر اسم كل من أبي شريك في القرن الأول[2] الذي أعطى اسمه للجزيرة - واسم فضل بن أبي العنبر في العهد الأغلبي في حدود سنة 218[3]..

ثم إنّها كانت خصبة وثرية من حيث الإنتاج الفلاحي ونشيطة في الميدان التجاري وهو نشاط يرجع إلى موانيها ومراسيها من ناحية وإلى أسواقها في المدن من ناحية أخرى. ونفرض أن نابل كانت ضمن المدن الصغيرة التي اكتفى

= (انظر ورقات 2 - ص 277 وما بعدها) إن هذه الجزيرة المسماة حالياً Pantellaria استولى عليها المسلمون بصفة نهائية سنة 130/748 على يدّ الأمير عبد الرحمان بن حبيب الفهري. وهي تابعة اليوم لإيطاليا.

(1) انظر طبقات أبي العرب - ص 68/69 ورياض المالكي، جزء 1، ص 336 (ترجمة إسماعيل بن رباح حيث جاء «حدّث أبو سليمان ربيعة الجزيري قال: كنا في الجزيرة على طعام إذ دخل علينا يهودي فدعوناه فجلس يأكل معنا. . .») إلى آخر الحديث.

(2) انظر البكري - نفس المصدر، ص 45.

(3) المالكي، نفس المصدر، جزء 1، ص 335.

اليعقوبي بالقول بأنها «مدن غير عظام» بينما قسّم المقدسي الإقليم بكامله إلى 12 رستاقاً[1] لكن أهمّ مدينة في القرنين الرابع والخامس هي بلا شك مدينة منزل باشوا التي لم تكن مسوّرة في عهد البكري رغم أنها كانت آهلة بالسّكان ويوجد بها جامع وحمامات وثلاث رحاب وأسواق[2].

إذن كانت جزيرة أبي شريك ـ استناداً إلى شهادات كل من المقدسي وابن حوقل والبكري ـ مزدهرة في العهدين الأغلبي والفاطمي ـ ويتجلّى هذا الازدهار في مختلف الميادين كما أثبتنا ذلك.

وإذا كانت تسمى هذه المنطقة في القرن الأول «جزيرة أبي شريك» نسبة إلى عاملها شريك العبسي كما أشار إلى ذلك البكري ـ فالشريف الإدريسي (المتوفى سنة 560 هـ/ 166) الذي ألّف كتاباً سمّاه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وذلك بطلب من ملك صقلية روجر الثاني ـ يتعرض في حديثه عن المغرب وإفريقية إلى الجزيرة ويسميها جزيرة باشوا[3] نسبة إلى عاصمتها ويعرّج من ناحيته على ازدهارها مؤكداً بذلك ما ذكره من قبل كل من المقدسي والبكري «وهي أرض مباركة طيبة ذات شجر زيتون وعمارات متصلات وبركات وخيرات وغلاّت ومياه ليست بكثيرة الجري على وجه الأرض لكنها ممكنة مياه الآبار وفيها بالجملة نصب زائد وهذه الجزيرة إقليم لها مدينة باشوا ولم يبق الآن منها إلاّ مكانها وفيه قصر معمور».

نابل وتطوّرها:

يعتبر الجغرافي الإدريسي أول مؤلف إسلامي ذكر نابل في عرض حديثه عن جزيرة باشوا ووصفها كما يلي: «ومنها قصر على البحر يسمّى نابل وكان بالقرب من هذا القصر في أيام الرّوم مدينة كبيرة عامرة فخرّبت وبقي الآن مكانها

(1) المقدسي، نفس المصدر، ص 228.
(2) البكري، نفس المصدر، ص 45.
(3) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، انظر الجزء المنشور منه بعنوان «المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس» ـ مطبعة بريل 1864 ـ ص 118 و 125.

وهي قصر صغير وكذلك قصر توسيهان بالقرب منها أثر مدينة عامرة في أيام الرّوم فخرّبت وبقي مكانها»[1].

نستنتج من خلال هذا الوصف القصير أن نابل القديمة «نيابوليس» كانت من المدن الرومانية الهامة وكانت عامرة إلى نهاية الوجود البيزنطي في أفريقية - أعني إلى نهاية القرن السابع تقريباً - وبداية استقرار العرب في البلاد.

ويُرجع الإدريسي تخريب المدينة إلى فترة الصراع العربي البيزنطي حيث يقول بالحرف الواحد[2]: «ونابل كانت مدينة للرّوم كبيرة جدّاً عامرة فلما استفتحت الجزيرة في صدر الإسلام استبيحت مصالحها ومحاسنها حتى لم يبق لها رسم ولا أثر إلاّ مكان قصر فقط وبقيت بقايا خرابها دالّة عليها».

إنّ إهمال نابل في المصادر العربية في العصر الإسلامي الوسيط ليس من باب الصدفة بل هو نتيجة خرابها أثناء الفتح. كيف خرّبت المدينة القديمة ولماذا؟ لا تذكر لنا المصادر التاريخية والجغرافية هذا الحدث ولا تبيّن دوافعه - لكن يفهم من رواية الشريف الإدريسيّ:[3] «أن المدينة ربّما خرّبها البيزنطيون قبل تخلّيهم عنها وعن باقي مدن الجزيرة وارتحالهم إلى جزيرة قوسرة» - وذلك في حدود سنة 59 هـ / 678 لكنّ هذا الافتراض لا يقبل لأن الروم كان باستطاعتهم تخريب المدن الساحليّة الأخرى.

إذن بقي احتمال آخر مفاده أن المدينة ربّما خرّبها العرب الفاتحون الذين كانوا يحبّذون الاستقرار في المناطق البعيدة عن السّاحل خشية الأسطول البيزنطيّ الذي ما زال آنذاك يهدّد وجودهم في أفريقيّة.

المهم هو أن نابل أصبحت بعد فتح الجزيرة مجرّد قصر على البحر يبعد 7 أميال على توسيهان التي كانت بدورها مدينة عامرة ولكنها خربت ولم يبق

---

(1) الإدريسي - نفس المصدر، ص 118.
(2) نفس المصدر - ص 125.
(3) الإدريسي - نفس المصدر - ص 118.

مكانها في القرن السادس ـ في عصر الإدريسي ـ إلاّ قصر صغير[1]. وهذا ما يؤكّده لنا ياقوت الحموي (متوفى سنة 626/1229) في معجم البلدان[2] ـ نقلاً عن السلفي صاحب كتاب «معجم السّفر» (القرن السّابع)[3]: «أنشدني أبو العبّاس أحمد بن علي بن عمّار النابلي بالشعر. . أحمد هذا كان من أهل القرآن والخير قدم الإسكندرية حاجّاً وقد كتب عني شيئاً من الحديث وسألته عن نابل فقال: إقليم من أقاليم أفريقية بين تونس وسوسة قال: ومن أهلها ممّن يروي الحديث محمّد بن عبد الحميد النابلي وأبوه عبد الحميد وعبد المنعم بن عبد القادر وأبوه».

ويضيف ياقوت: «نابل مدينة قديمة على البحر من الجزيرة بقبلي مدينة تونس حيث كانت مدينة باشوا وكانت عامرة فخربت وبقي منها قصر صغير وأرض كثيرة الخيرات والمرافق»[4].

كيف تحوّلت نابل من مدينة عامرة في العهد البيزنطيّ إلى قصر صغير ثمّ إلى إقليم في العصر الإسلامي؟

إنّ تحوّل المدينة إلى قصر ثمّ إلى إقليم يحمل اسم نابل في القرن السابع/ القرن الثالث عشر ربّما له علاقة بالحركة العمرانيّة التي طرأت على كامل المنطقة ـ جزيرة باشوا ـ وكان من نتائجها انتشار السّكان واستقرارهم في مختلف المراسي والحصون الواقعة على السّاحل.

وفي هذا المضمار نشير إلى ما كتبه التيجاني ـ عن الجزيرة ـ أثناء رحلته إلى تونس وطرابلس في بداية القرن الثاني (706 ـ 707/1307 ـ 1306): «دخلنا بعد الخروج من أرض مرناق في أول أرض الجزيرة المعروفة في القديم

(1) نفس المصدر ـ ص 118.
(2) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ بيروت 1957 ـ ص 249.
(3) السّلفي ـ معجم السّفر ـ نشر إحسان عباس ـ بيروت 1963، ص 16 ـ 17.
(4) ياقوت ـ نفس المصدر ـ ص 249.

بجزيرة شريك[1]. . . وهذه الجزيرة لم تزل معروفة بالخصب والبركة كما قال الشّريف[2] حين وصفها في كتابه المؤلف للجار: «طيّبة مباركة ذات سارات متّصلات، وبركات وخيرات، ومياه وغلاّت، وبالجملة ففيها خصب زائد على غيرها من الأرضين. . .» «وكانت جزيرة شريك هذه محتوية على أقاليم كثيرة أعظمها المنزل المعروف بمنزل باشوا وكان بلداً كبيراً آهلاً، به جامع وحمّامات وأسواق عامرة، وهذا المنزل الآن خراب لم يبق منه إلاّ مكانه. . .».

نلاحظ من خلال هذا الوصف أن التّيجاني اتّبع في رحلته ـ الطريق الرئيسية ـ الجادة التي تربط بين شمالي وجنوبي إفريقية القديمة وكان يستعملها كلّ من القرطاجنيين والرّومان والوندال والبيزنطيين والعرب[3] ـ فهو لم يتوقّف في نابل التي تبعد 12 كلم عن بلدة الحمّامات ـ ولا تقع على طريق الجادّة وهذا هو السبب الأساسي الذي يفسّر سكوت التيجاني عن ذكر نابل كما هو الشأن بالنسبة لبقية الرّحالة مثل العبدري والحسن الوزّان.

فالعبدري صاحب «الرّحلة المغربيّة» (حوالي سنة 1289/688)[4] يذكر في طريق عودته من المشرق إلى إفريقية وبالتحديد إلى مدينة تونس ـ بلدة الحمّامات: «وهي مدينة صغيرة مبيضة السّير وليس فيها ما يذكر لفنائها وقلة عمارتها وهي على البحر ولم أدخلها لقلّة تشوقي إليها وما ذكر لي من الضعف عنها». ولا يتعرّض إلى نابل ـ أما الحسن الوزّان (توفي سنة 1550/957) فيتجاهلها هو أيضاً[5].

وبالنسبة للرّحالة المغربي المشهور ابن بطّوطة (متوفّى سنة 779هـ/ 1377) فهو يذكر ـ في طريق عودته من مصر إلى تونس حوالي سنة 750 هـ/ 1349 أنه

---

(1) التيجاني ـ رحلة ـ نشر الدار العربية للكتاب ـ تونس 1981، ص 11 و 13.

(2) المقصود هو الإدريسي صاحب نزهة المشتاق، المصدر المذكور أعلاه.

(3) انظر حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ص 329.

(4) العبدري ـ الرحلة المغربية ـ طبعة الرباط 1968 ـ ص 239.

(5) الحسن الوزان المعروف تحت اسم Léon L'Africain، وصف إفريقيا ـ ترجمة محمد حجّي ومحمد الأخضر، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي 1983.

سافر من جربة إلى قابس ثمّ إلى صفاقس ومنها إلى «بليانة» الذي ربّما يكون مرسى نابل كما يُعَلّق على ذلك المحقّق[1].

إنّ نابل ـ بعد خرابها في نهاية القرن السابع الميلادي ـ تحوّلت إلى قصر صغير لا يزال اسمه يطلق على حيّ إلى يومنا هذا، وقد استوجب هذا القصر إنشاء سكني حوله فشيّد أول مسجد أصبح فيما بعد نقطة انطلاق تخطيط المدينة ـ وممّا يدل على تطور نابل العمراني في القرن السابع للهجرة/ القرن الثالث عشر للميلاد ـ هو شهرة بعض رجالاتها في ميدان علوم القرآن والحديث[2] أحمد بن عمّار النابلي من أهل القرآن والخير ـ محمد بن عبد الحميد النابلي وأبوه عبد الحميد وعبد المنعم بن عبد القادر وأبوه من المحدّثين لكنّ هذا التطوّر تم بصفة تلقائية دون عمليّة تخطيط معيّنة، ويرجع السّبب في ذلك إلى أن نابل تقع في منطقة خصبة غنية من الناحية الفلاحيّة حيث توجد الأشجار المثمرة والزّيتون والغلاّت والمياه اللازمة لسقي المزارع ـ ثم إنها توجد على ساحل البحر قرب نيابوليس القديمة التي وفّرت الحجارة الكافية لبناء البيوت والمنازل والمساجد والأسواق.

إذن أصبح هذا التجمّع البشري في المرحلة الأولى قرية تطوّرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً فلم تكن نابل إحدى المدن الرئيسية في الجزيرة بل كانت تابعة تدور في فلك عاصمة إقليمية ـ مدينة نوبة في عصر الولاة تمّ منزل باشوا في العهد الأغلبي والفاطميّ ـ إلى أن أصبحت في القرن السادس للهجرة/ القرن الثاني عشر للميلاد تحمل اسم إقليم ـ إقليم نابل ـ ممّا يدلّ على أنها شهدت حركة نمو حضاري لا يمكننا ـ مع الأسف ـ رسم خطوطه المفصّلة لقلّة المادّة التاريخية حول ذلك غير أنه يمكننا أن نستنتج أن الأحياء القديمة هي ما كان بجوار القصر والأحدث هو ما ابتعد عنه.

ويبدو أن نمو المدينة أخذ تدريجياً يتجه غربي القصر فأسس حي جديد

---

(1) ابن بطّوطة ـ رحلة طبعة بيروت 1975 ـ ص 754.
(2) ياقوت نفس المصدر ـ ص 248.

أطلق عليه اسم «الرّبط» به مسجد جامع عرف عند عامّة الناس باسم «جامع الرّبط» أو «جامع الحنيفة» قد يرجع إلى عهد الدولة الحفصيّة.

ثمّ اتسعت المدينة من الناحية الشرقيّة للقصر وتمّ تشييد مسجد يعرف بالجامع الكبير، وقد استعملت في بنائه مواد جلبت من الموقع الأثري الرّوماني تتمثل في حجارة وأعمدة وتيجان، وفي السنوات القليلة الماضية رمّم هذا الجامع واستبدلت العناصر المعماريّة القديمة بأخرى حديثه، ولم يبق للجامع أي أثر تاريخي.

ونظراً لكبر الجامع أحدثت أسواق حوله، أسواق مسقوفة مثل «سوق البلاغجية» وأخرى مفتوحة مثل «سوق الغزل» و«سوق الحدّادين» ويُعَدّ «سوق الجرابة» من أقدم الأسواق على الإطلاق حيث كانت تصنع فيه كل أنواع الأقمشة والملابس والأغطية وهي من الصوف والكتّان.

الخاتمة:

يخيّل إلينا أن مدينة نابل في العهد الإسلامي الوسيط ـ بالرغم من قلّة المادّة التاريخيّة حولها، لها تاريخ حافل بالأحداث والمواقف ربما لا يزال يرقد في بطون المراجع المخطوطة بصفة خاصّة والتي يتعذّر علينا الوصول إليها.

وما هذه الصّفحات إلاّ محاولة لإلقاء بعض الضوء على تاريخ نابل الوسيطي.

الكراسات التونسية

معركة حيدران والصراع الزيري الهلالي

في القرن الخامس هجري

الحادي عشر ميلادي

العدد 169 ـ 170

سنة 1995

صفحات 13 ـ 26

مقدمة:

اندلعت معركة حيدران في شهر ذي الحجة سنة 443/ أفريل 1052 مباشرة بعد وصول قبائل بني هلال إلى إفريقية قادمين من الصعيد المصري وبعد محاولة الأمير الزيري المعز بن باديس تطويقهم لصالح دولته. ماذا تمثل هذه المعركة بالنسبة لبني زيري ولإفريقية لا سيما بعد قطع العلاقات مع الفاطميين في مصر وإقامة الدعوة للخليفة العباسي في بغداد؟ هل هي مجرد معركة عسكرية تقابل فيها جيشان غير متكافئين من ناحية العدد والعدة: من جهة 30,000 مقاتل في صف المعز بن باديس ومن جهة أخرى 3,000 رجل من جانب العرب الهلاليين؟ أم هل أن الحدث يتجاوز المستوى العسكري البحت ليكون حينئذ ـ كما أكد ذلك بعض الدارسين المحدثين من المستشرقين ـ حدثاً دافع خلاله المعز عن كيان دولته وعن الحضارة الإفريقية بصفة عامة أمام مجموعات قبلية بدوية غير منظمة لها أهداف معينة تريد تحقيقها (السيطرة على مجالات في البلاد الإفريقية واستغلال الخيرات ثم تقسيم الإمارة الزيرية بينها) ثم إن هذه المجموعات تعيش حسب نمط عيش مغاير لنمط عيش السكان الأفارقة؟ وبالتالي يجب ربط هذه المعركة المصيرية بالصراع الزيري الهلالي ككل. وفي هذا الإطار يجب أن نتساءل عن معنى هذا الصراع؟ هل هو صراع بين عرب بدو قادمين من نجد والحجاز أقاموا مدة في الصعيد المصري قبل الانتقال إلى إفريقية في منتصف القرن الخامس للهجرة وبين عناصر حضرية مستقرة في إفريقية ولها كيان منظم ودولة ومؤسسات وجيش؟ بعبارة أخرى هل أن الأمر يتعلق من ناحية بقبائل مشتتة لا تربط بينها وحدة ما عدا النسب (الانتماء إلى الفرع القيسي المضري العدناني الشمالي) جاءت إلى إفريقية

مدعومة من طرف الفاطميين في مصر ومن جهة أخرى بدولة بربرية أسسها بنو زيري من صنهاجة بعد انتقال الفاطميين إلى مصر وكانت تسيطر على إفريقية وتجمع المصادر على كونها مزدهرة قبل ذلك ثم ستتحول إثر الغزو الهلالي إلى فسيفساء من الإمارات العربية البدوية في المدن الساحلية والداخلية بينما يقتصر النفوذ الزيري على مدينة المهدية المحصنة ـ وتتغير الأوضاع في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة لتصبح البلاد مهددة من طرف النورمان إلى أن يتمكن الموحدون القادمون من الغرب من تحريرها من براثنهم وضمها إلى إمبراطوريتهم الشاسعة التي تشمل كامل المغرب العربي والأندلس.

الإشكالية الثالثة تهم المعركة في حد ذاتها: هل حصلت معركة وحيدة بين المعز بن باديس والعرب البدو من بني هلال تقرر إثرها مصير إفريقية وهو رأي العديد من الدارسين مثل هادي روجير إدريس؟ أم هل أن اسم الموضع (حيدران) ينطبق على الأقل على معركتين الأولى في شهر ذي الحجة من سنة 443 والثانية في السنة اللاحقة 444 هـ وهو رأي دافع عنه جورج مارسي ونشاطره في هذا إلى حد بعيد.

لا فائدة في الرجوع إلى قضية أسباب قدوم بني هلال إلى إفريقية في منتصف القرن الخامس للهجرة ـ فقد تطرقنا إليه في السابق وأكدنا على أهمية العنصر الاقتصادي من ناحية وكذلك العوامل الأخرى المتعلقة بالأوضاع في كل من إفريقية الزيرية ومصر المستنصرية والمنطقة الغربية والمتوسطية بصفة عامة[1] ـ كذلك من المعروف أن القبائل الهلالية تمثل شتات من البطون والعشائر التي تربطها رابطة النسب وكانت تعيش قبل قدومها إلى مصر في نجد والحجاز في ظروف صعبة.

المهم هو أن هذه المجموعات القبلية البدوية التي توافدت على إفريقية

---

(1) انظر دراساتنا في الكراسات التونسية: «De L'origine des Banû Hilal et des Banû Sulaym», C.T. t. XXIII, 1975, N° 91 - 92. p. 41 - 68. «Contribution à l'étude des conditions de l'immigration des tribus arabes (Hilâl et Sulaym) en Ifriqiya», C.T.: XXV, 1977, N° 97 - 98, p. 23.50.

بأعداد لا تتجاوز بعض الآلاف تمكنت من السيطرة على الأوضاع وإلحاق الهزيمة بالأمير الزيري المعز بن باديس في حيدران ثم تسربت إلى المغرب الأوسط حيث انتصرت في سبيبة على بني حماد وحلفائهم من زناتة.

لنتوقف إذاً عند معركة حيدران لمحاولة فهم الصراع الهلالي الزيري ونتائجه.

1 ـ العلاقات بين الزيريين والهلاليين:

تم وصول الجموع الهلالية الأولى إلى إفريقية في غضون سنة 1052/443 وحصلت أوّل معركة حاسمة بينهم وبين الأمير الزيري المعز بن باديس في ذي الحجة سنة 443 أفريل 1052. وتشير المصادر إلى أن أوّل من وصل من الهلاليين مؤنس بن يحيى الرياحي أمير رياح ـ أحد فروع بني هلال ـ الذي قدم إلى القيروان حيث كان يقيم المعز ولعل قدومه كان نتيجة الدعوة التي وجهها إليه الأمير الصنهاجي وكان المعز يريد من استقدامه توظيف العرب القادمين من مصر لصالحه لأنه كان متخوفاً من جيشه المتكون من العناصر البربرية الصنهاجية لا سيما وأن العلاقة بين بني زيري وقبيلة صنهاجة لم تكن متينة منذ تأسيس دولة بني حماد في القلعة ـ ويؤكد ابن عذاري في رواية تنسب إلى ابن شرف[1] أن المعز شاور مؤنس الرياحي في اتخاذ بني عمه رياح جنداً فأشار عليه بأن لا يفعل ذلك وعرفه بقلة اجتماع القوم على الطاعة فألح عليه في ذلك إلى أن قال له المعز: «إنما تريد انفرادك حسداً منك لقومك». من خلال هذه الرواية يتضح أن الأمير الزيري لم يتدبر نصيحة القائد الرياحي الذي بين له خطر وجود قومه في هذه المناطق الخصبة الغنية بل اتهمه بالأنانية والحسد مما جعل مؤنس يعزم على الخروج ويقبل المهمة التي انتدب من أجلها حفاظاً على

(1) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب، طبعة بيروت، 4 أجزاء، انظر الجزء 1، ص. 289.

مصالحه ومصالح أهله وبنيه[1]. وقد تمكن من إقناع قومه بعد ما نادى فيهم وحشدهم ووعدهم وغبطهم ووصف لهم كرامة السلطان والإحسان لهم ثم قدم في ركب منهم لم يعهدوا نعمة ولا طالعوا حاضرة فلما انتهوا إلى قرية تنادوا «هذه القيروان ونهبوها من حينها»[2].

إن العلاقات بين المعز بن باديس والهلاليين - وعلى رأسهم القائد مؤنس بن يحيى الرياحي - تطورت بصفة فجئية من الود إلى العداء فأصبحت المواجهة العسكرية حتمية بين الطرفين. من ناحية كان الأمير الزيري يريد استغلال المجموعات البدوية لصالح دولته وذلك بتوجيه قوتهم العسكرية ضد بني عمه الحماديين في القلعة لكنه فشل في محاولته الاحتوائية ويرجع ذلك إلى طبيعتهم البدوية التي ترفض الخضوع لسلطة معينة وإلى تركيبتهم القبلية المتنوعة حيث أنهم لا يكونون قبيلة واحدة متماسكة بل هم فروع وبطون مختلفة خرجت من منطقة يصعب فيها العيش وتوجهت إلى بلاد جديدة تطمح في الاستحواذ عليها والسيطرة على خيراتها. كذلك لا يمكن - من ناحية نمط العيش - أن يحصل تعايش بين العرب البدو وسكان البلاد الحضر. إذ كل هذه الأسباب تفسر في نظرنا فشل كل المحاولات السلمية التي قام بها المعز بن باديس وخاصة محاولته الثانية التي جاءت مباشرة بعد نهب القرية الأولى التي وصل إليها الهلاليون وحسبوا أنها القيروان.

يلاحظ ابن عذاري «أن المعز أخرج إليهم الفقهاء ومعهم مكاتبات وشروط ووصايا وأعلموهم أن السلطان قد دفع عيالاتهم لهم وأخذوا عليهم العهود والمواثيق بالرجوع إلى الطاعة»[3]. لكن العرب «نكثوا على السلطان واستولوا على الفساد بكل جهة ومكان» مما أدى إلى الصراع العسكري المباشر بين الطرفين.

---

(1) G. MARÇAIS, Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e Siècle, Paris, 1913, p. 24.

(2) ابن عذاري، البيان، نفس المصدر، الجزء 1، ص. 289.

(3) نفس المصدر.

2 ـ الصراع العسكري الزيري الهلالي:

تشير المصادر إلى أن المعركة الفاصلة في الصراع الزيري الهلالي تمت في غضون سنة 1052/443 وتسميها باسم الجبل الذي بينه وبين القيروان ثلاثة أيام ـ بين صفاقس وقابس[1] ـ وهو جبل حيدران غير أن قراءة دقيقة لمختلف الروايات الواردة في هذه المصادر (ابن عذاري ـ ابن الأثير ـ التيجاني ـ ابن خلدون وغيرهم) تمكننا من القول بأن عدة وقائع حصلت بين العرب البدو والمعز بن باديس من ناحية وبين بني هلال وبعض سكان المدن مثل أهل القيروان من ناحية أخرى وذلك مباشرة بعد أعمال النهب والفساد وقطع الثمار وحصار المدن التي قام بها العرب إثر دخولهم إلى إفريقية.

الرواية الأولى التي نقلها لنا ابن عذاري تحت عنوان «هزيمة العرب للمعز»[2] تفيد أن السلطان عيّد يوم الإثنين ذي الحجة سنة 443 (الموافق لـ 5 أفريل 1052) ومشى إلى ناحية قرية تعرف بني هلال «فلما أتته الأخبار أن القوم قد قربوا منه أمر بالنزول في أوعار وأودية. فلم يستتم النزول حتى حمل العرب عليه فانهزم العسكر وصبر المعز إلى أن وصلت رماح العرب إليه ومات من العبيد خلق عظيم».

أما بنو مناد وجميع صنهاجة وغيرهم من القبائل فقد فروا وانتهب العرب مضاربهم. ودخل العرب معسكر المعز فنهبوه وفيه أموال وأثاث وخف وكراع وأمتعة وأخبية وجمال وبغال... وسلك الناس الجبل المعروف بحيدران ورجع المعز بعد يومين إلى قصره وتساقط الناس بعده أحاداً وجموعاً وتخلّف عن الوصول خلق عظيم...» ويواصل ابن عذاري الحديث عن هذه الوقعة مؤكداً على أن العرب وصلوا إلى نواحي القيروان» وجعل كل من سبق إلى قرية يسمي نفسه لهم ويؤمنهم... وأقام الناس يومين لا يدخل إليهم داخل ولا يخرج منها

(1) التيجاني، رحلة، طبعة تونس، ص. 20، انظر كذلك مقال حيدران في E.I.^{2}, III ص 334.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة بيروت، 1965، انظر الجزء IX، ص. 567.

خارج وخيل العرب تسرح حول القيروان في كل جهة ومكان(1).

إن هذه الرواية تؤرخ للهزيمة الأولى التي مني بها المعز بن باديس وجيشه ضد العرب وذلك في اليوم الثاني لعيد الأضحى سنة 443 وهي تكاد تتناسب مع الخبر الذي نقله ابن الأثير في أحداث سنة 443(2) حيث يشير إلى أن الأمير الزيري جمع عساكره فكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلها رجاله بينما كانت عدة العرب ثلاث آلاف فارس فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم عليهم فقال لهم مؤنس بن يحيى: «ما هذا يوم فرار» فقالوا: أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكزاغندات والمغافر؟ قال: في أعينهم. «فسمى ذلك اليوم يوم العين». وقد انهزمت خلاله صنهاجة وثبت العبيد مع المعز فكثر القتل فيهم فدخل الأمير الزيري القيروان منهزماً بعد أن خلّف العديد من القتلى من صنهاجة وأخذت العرب الخيل والخيام وما فيها من مال وغيره». وفي هذا اليوم يقول بعض الشعراء لعله علي بن رزق(3).

وإن ابن باديس لأفضل مالك — ولكن لعمري ما لديه رجال

ثـلاثـون ألفـاً منهـم غلبتهـم — ثـلاثـة آلاف إن ذا لمحـال

ما يمكن التوقف عليه في هذا الخبر هو العدة العسكرية المتباعدة للطرفين فالمعز بن باديس قام بتعبئة كل قواه المتوفرة في إفريقية واستطاع تجميع ما لا يقل عن ثلاثين ألف مقاتل. ومما يذكر أن هذا الجيش الكثيف يتكون من عناصر متنوعة: عشرون ألفاً من مجموع ثلاثين ألف عبد كان اشتراهم المعز قبل ذلك بعد ما رأى تصاعد صنهاجة عن قتال زناتة وأوسع لهم في العطاء(4). ثم نجد بقايا عرب الفتح وفرقتين من ألفي فارس كان استمد فرقة من ألف فارس من ابن عمه صاحب القلعة وفرقة ثانية من ألف فارس من زناتة بقيادة المستنصر بن

(1) ابن عذاري، البيان، الجزء 1، ص. 279.
(2) ابن الأثير، الكامل، الجزء IX، ص. 567.
(3) نفس المصدر.
(4) التيجاني، رحلة، ص. 38: ابن الأثير، الكامل، الجزء IX، ص. 567.

خزرون المغزاوي[1] أما العرب الهلاليون فقد كان عددهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف فارس من رباح والأثبج وبني عدي[2] أي جزء فقط من مجمل المهاجرين الذين ما زالوا يتوافدون على إفريقية.

انتهت هذه الوقعة الأولى بهزيمة المعز ونهب معسكره وقتل العديد من جيشه.

أما الوقعة الثانية فقد حصلت عدة أيام بعد ذلك حيث يعلمنا ابن عذاري أن المعز خرج سابع عيد الأضحى 443 (الموافق للعاشر من أفريل 1052) بجنوده وخرج عامة القيروان معه فلم يتعدى المصلى[3]. وفي الأثناء «كان العرب قد تراجعوا في أمانهم الذي أعطوا أهل البوادي وانتهبوا جميعها وانتقل أهلها إلى القيروان». وفي السابع عشر لذي الحجة (17 أفريل) في حين كان العرب على ثلاثة أميال عن القيروان نزل السلطان يمشي فيها ويوصي أهلها بالاحتفاظ وبالبناء وأمر أن ينتقل عامة أهل صبرة ـ المنصورية ـ وسوقتها إلى القيروان ويخلوا الحوانيت كلها بصبرة وأمر جميع من في القيروان من الصنهاجيين وغيرهم من العسكر أن ينتقلوا إلى صبرة وينزلوا في حوانيتها وأسواقها. . . ومد العبيد ورجال صنهاجة أيديهم إلى خشب الحوانيت وسقائفها واقتلعوها وخرجت العمارة العظيمة في ساعة واحدة وبات الناس على خوف عظيم ثم أصبحوا فعاينوا خيول العرب فأمر المعز ألا يخرج العسكر على سور صبرة[4].

إذا حصلت الوقعة الثانية التي يسميها ابن عذاري «وقعة باب تونس»[5] (نسبة إلى أحد أبواب القيروان) مباشرة بعد تهجير أهل القيروان من صنهاجة والعسكر إلى صبرة ونقل عامة صبرة وسوقتها إلى القيروان أي في وقت كان

---

(1) ابن الأثير، الكامل، الجزء IX، ص 567.
(2) ابن خلدون، كتاب العبر، طبعة بيروت، 7 أجزاء، انظر الجزء VI، ص. 15: انظر كذلك: G. MARÇAIS، نفس المرجع، ص. 101.
(3) ابن الأثير، الكامل، الجزء IX، ص. 567.
(4) ابن عذاري، البيان، الجزء 1، ص. 291.
(5) نفس المصدر.

العرب على مقربة من العاصمة الإفريقية. وتؤكد ذلك رواية لابن شرف[1] تفيد أن «المير انقطع عنها وتعطلت الأسواق وأمسك العرب جميع من أسروه فلم يطلقوا أحداً إلا بالفداء مثل أسرى الروم وأما الضعفاء والمساكين فأمسكوهم لخدمتهم» وقد جرت واقعة «باب تونس بين العرب المسلحين بالسيوف والرماح والعامة وفيهم من بسلاح ومنهم من بيده عصا لا يدفع بها أضعف الكلاب»[2]. وبطبيعة الحال فقد انتصر العرب تاركين عدداً من القتلى والجرحى في صفوف العامة. ويعلق ابن عذاري على هذا اليوم بقوله: «فكان هذا يوم مصائب وأنكاد ونوائب ولم ير الناس مثله في سائر الأمصار فيما مضى من الأعصار»[3].

أما المعركة الأخرى التي هزم فيها المعز للمرة الثانية بمعية جيشه من صنهاجة فجرت ـ كما جاء في رواية أبي الصلت التي نقلها لنا ابن عذاري[4] وأكدها من ناحيته ابن الأثير ـ في جبل حيدران[5]. جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس وقدم عليهم ابن سلبون وزكنون بن واعلان وزيري الصنهاجي[6] وعاد إلى القيروان فانهزمت صنهاجة وقتل منها خلق كثير فخرج إليهم بنفسه فلما أشرف على بيوت العرب وهو قبلي جبل حيدران[7] انتشبت الحرب بين العرب الذين كانت عدتهم سبعة آلاف فارس (وهذا الرقم يؤكد تزايد عددهم وتدفقهم التدريجي على إفريقية) وبينه ـ فانهزمت صنهاجة وولى كل رجل منه منزله وانهزمت زناتة وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثم انهزم وعاد إلى

---

(1) نفس المصدر، ص. 292.

(2) نفس المصدر.

(3) نفس المصدر، انظر كذلك أطروحة، H. R. IDRISS, La Berbérie orientale sous les Zirides (X - XII^{e} . S.), Paris, 1962. 423.

(4) ابن عذاري، البيان، الجزء 1، ص. 291.

(5) نفس المصدر.

(6) ابن الأثير، الكامل، الجزء IX، ص. 567.

(7) ابن عذاري، البيان، الجزء 1، ص. 292.

المنصورية. وكان عدد القتلى من صنهاجة ثلاثة آلاف وثلاثمائة ثم أقبلت العرب حتى نزلت بمصلى القيروان التي كان هجرها أهلها كما أسلفنا القول «ووقعت الحرب فقتل بين المنصورية ورقادة خلق كثير»[1].

نلاحظ من خلال مختلف هذه الروايات أنه خلافاً لروجير إدريس الذي نفى قيام أكثر من معركة بين المعز بن باديس وعرب بني هلال (معركة حيدران في بداية عيد الأضحى سنة 443) حصلت في رأينا على الأقل وقعتان تحملان نفس الاسم: الأولى سماها ابن الأثير «يوم العين» في اليوم الثاني من ذي الحجة والثانية بعد مدة لا تتجاوز نهاية نفس الشهر. ونشير في هذا الإطار أن جورج مارسي تحدث من جهته على معركتين: حيدران الأولى في ذي الحجة (443) وحيدران الثانية في ذي الحجة في السنة الموالية (444) لكن بقدر ما نتفق معه في التفريق بين الوقعتين بقدر ما لا يمكن قبول تاريخ الوقعة الثانية.

لا ننسى كذلك «وقعة باب تونس» ضد عامة القيروان وهي تندرج بين الوقعتين المذكورتين. وقد كان ميزان القوى في مختلف هذه الوقائع ـ خاصة في وقعتي حيدران ـ غير متكافىء بحيث كان جيش المعز يعد 30,000 ثم 27,000 مقاتل مقابل 3,000 ثم 7,000 فارس في صفوف بني هلال. فكيف نفسر إذاً انهزام المعز وانتصار العرب وهم قلة؟ يرجع ذلك إلى عدة أسباب لعل أهمها تركيبة الجيش الإفريقي وتنوع العناصر التي عبأها المعز (من صنهاجة وزناتة والعبيد وبقايا عرب الفتح) ثم عدم وجود اللحمة بينها وافتقاد الروح القتالية لدى هذه القوة من جراء ما قامت به من حملات شاقة قبل ذلك ضد بني حماد في القلعة وضد زناتة في المغرب الأوسط. وإضافة إلى هذه الأسباب لا بد أن نشير إلى أن هذه القوى الغير متماسكة لم تكن لها مصالح مشتركة تدافع عليها. فصنهاجة يحقدون على العبيد السود ويحرصون على الإضرار بهم بتحميلهم ثقل المعركة. ويعلّل ابن خلدون خيانة بقايا عرب الفتح وميلهم إلى

(1) ابن الأثير، الكامل، الجزء IX، ص. 567.

بني هلال بحكم العصبية القبلية التي تربطهم حيث ينتمون كلهم إلى مضر من العدنانية ـ أما بالنسبة لزناتة وصنهاجة فيذكر ابن الأثير «أن صنهاجة اتفقت على الهزيمة وترك المعز مع العبيد حتى يرى فعلهم ويقتل أكثرهم»[1].

وفيما يتعلق بعرب بني هلال فبالرغم من قلة عدتهم فإنهم كانوا متطلعين ـ منذ خروجهم من الصعيد المصري ـ إلى تحقيق رغباتهم في إفريقية سواء من ناحية الحصول على الغنائم أو السيطرة على مجالات ومناطق واسعة في البلاد ثم لا ننسى كذلك أنهم تمكنوا من الإطلاع على عورات القيروان والتعرف على نقاط ضعف العدو بالتالي مباغتته وإلحاق الهزيمة به في كل الوقائع. يقول ابن عذاري في هذا المضمار[2]: «شغل بعضهم (العرب) أولاً بخدمته وحملهم أعباء نعمته وهم في خلال ذلك يتمرسون بجهاته ويدبون إلى حماته ويطلون على عوراته، حتى بان لهم شأنه وهان عليهم سلطانه فجاهروه بالعداوة...».

إذا اندثرت قوات المعز بعد الوقعة الثانية فذهب سنة 444/1052 إلى رفع الحرب بينه وبين الهلاليين وأباح لهم دخول القيروان بينما بقي هو بمعية جيشه في المنصورية لكن العامة استطالت عليهم فقتل العرب الكثير منهم[3] وهذا دليل إضافي على أن نمط عيش العرب لا يمكن أن يتلاءم مع طبائع وعادات سكان القيروان ويؤكد ابن عذاري على سوء تقدير السلطان الذي قدر أن العرب عائدون من حيث أتوا فخرج على حسب قوله «الأمر له بخلاف ظنه»[4]. وشرع العرب في الانتشار في إفريقية والسيطرة على مختلف المدن والمناطق بها.

---

(1) ابن عذاري، البيان، الجزء 1، ص. 293؛ ابن الأثير، الكامل، الجزء IX، ص. 567؛ ابن أبي دينار، المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس، طبعة 1869، ص. 83.

(2) ابن عذاري، البيان، الجزء 1، ص. 297.

(3) نفس المصدر، ص. 293.

(4) نفس المصدر.

3 ـ انتشار العرب في إفريقية وبداية التسرب إلى المغرب الأوسط:

إن النتيجة المباشرة لهزيمة المعز في صراعه ضد عرب بني هلال هو انتشار هؤلاء بصفة تدريجية في كامل إفريقية ثم اجتياحهم للمغرب الأوسط وتغلبهم على بني حماد وعلى قبائل زناتة.

تشير المصادر أن المعز بن باديس لم يغادر القيروان حتى سنة 449/1057 تاريخ انتقاله إلى المهدية وانتصابه بها. وقد قام في هذه السنة ببناء سور القيروان وسور زويلة «وجعل السور مما يلي صبرة كالفصيل: حائطان متصلان إلى صبرة وبينهما نحو نصف ميل» بحيث لا يمكن للوارد أن يدخل القيروان إلا بعد جوازه على صبرة[1] لكنه أشار على الرعية بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب الذين ما فتئوا أن حاصروا القيروان سنة 446/1055[2]. وضيقوا عليها تضييقاً شديداً جعل الأمير الزيري يتراجع في موقفه إزاء الفاطميين في مصر ويعلن من جديد طاعته لهم ومصاهرة بعض الأمراء الهلاليين[3]. وفي شعبان 449 / أكتوبر 1057 انتقل المعز إلى المهدية في خفارة رجلين من العرب كان قد صاهرهما من قبل. بينما قام الهلاليون في رمضان 449/ نوفمبر 1057 من انتهاب مدينة القيروان وتخريبها[4]. فهرب أهلها إلى تونس وسوسة. ويقول الشاعر ابن شرف في هذا الصدد:

ترحل عنها قاطنوها فلا نرى ... سوى سائر أو قاطن وهو سائر
انكشفت الآثار عنهم وربما ... أُقيمت ستور دونهم وستائر

وقد توفي المعز سنة 454/1062 بعد ما سلم الأمر إلى ابنه تميم عند

---

(1) نفس المصدر.

(2) ابن الأثير، الكامل، الجزء IX، ص. 569؛ ابن عذاري، البيان، الجزء 1، ص. 293.

(3) التيجاني، رحلة، ص. 29؛ انظر كذلك:

H.R. IDRISS, «Sur le retour des Zirides à l'obédience fatimide», A.I.E.O. XI, 1953, p. 25 - 39.

(4) ابن عذاري، البيان، المغرب في أخبار المغرب، طبعة بيروت، الجزء 1، ص. 294.

انتقاله إلى المهدية واستقراره بها.

إذاً فشل المعز في مواجهته العسكرية لبني هلال كما فشل من قبل في محاولة تطويقهم بصفة سلمية. ويرجع ذلك إلى عدة عوامل مثل سوء تقديره لقوتهم وعدم فهم عيشهم وعاداتهم البدوية إضافة إلى تخاذل قواته وانعدام الخصال الحربية عند سكان المدن مثل أهل القيروان وغياب طاقات عسكرية غير التي عبأها وأخيراً ضآلة المقاومة في المدن الإفريقية خارج المهدية والقيروان. وما قيام بعض المدن وانتفاضة أهلها ضده إلا دليل على الأوضاع الرديئة التي كان الأمير الزيري يتخبط فيها بعد حصار العرب للقيروان وتخريبهم لها.

حصل أوّل تمرد على المعز في سوسة سنة 445/1053 حيث منع أهلها الأمير جمع الجباية بدعوى الحاجة إليها لحماية مدينتهم[1]. كما تمردت في نفس الوقت مدينة قفصة وتوزر ومعظم مدن قسطيلية ثم انفصلت تونس سنة 450/1058 وتلتها كل من صفاقس سنة 451/1059 وقابس سنة 454/1062[2]. وفي نفس السياق لا بد من الإشارة إلى الحرب التي جرت سنة 447/1055 في مدينة المهدية بين عبيد المعز وعبيد ابنه تميم وما تبعها من تقتيل الفارين إلى القيروان من طرف العرب[3].

وفي نفس المدة الزمنية كان بنو هلال قد شرعوا في الإنتشار في المدن الإفريقية. وقد أخذ مؤنس بن يحيى مدينة باجة سنة 446/1055[4] بينما سقطت كل من أبّة والأربس - جنوبي الكاف - سنة من قبل تحت سيطرة العرب[5].

وفي سنة 453/1061 قتل أهل تقيوس - في قسطيلية - مائتين وخمسين

(1) المؤنس، في تاريخ إفريقية وتونس، طبعة 1869، ص. 84.
(2) ابن خلدون، العبر، الجزء VI، ص. 163؛ التيجاني، رحلة، ص. 28.
(3) ابن عذاري، البيان، الجزء 1، ص. 294.
(4) نفس المصدر؛ ابن خلدون، العبر، الجزء VI، ص. 163.
(5) ابن خلدون، العبر، الجزء VI، ص. 163.

رجلاً من العرب «وكان سبب ذلك أن العرب دخلت تقيوس متسوقة فسمع رجل منهم رجلاً من أهل القيروان يذكر المعز بخير ويثني عليه فقتله العربي وكان مقدماً في المدينة فقام عليهم أهل البلد فغزوهم وقتلوا من العرب العدد المذكور»(1).

إذاً سيطر الهلاليون في فترة وجيزة على إفريقية وعلى مدنها الداخلية والساحلية وانحصر ملك تميم بن المعز على منطقة ساحلية حول المهدية. كما شرعوا بعد ذلك في الإنتشار نحو الغرب أي في اتجاه المغرب الأوسط حيث توجد دولة بني حماد في القلعة وقبائل زناتة.

بالنسبة لبني حماد نشير إلى أنهم كانوا قطعوا الخطبة للفاطميين في عهد حماد (405 ـ 419/1014 ـ 1028) أي في بداية القرن الخامس للهجرة وبايعوا العباسيين في الوقت الذي أعلن فيه المعز البيعة للخليفة العباسي في بغداد وربما عادوا إلى مبايعة الفاطميين في القاهرة إثر هزيمة المعز في وقعتي حيدران خوفاً من العرب الهلاليين(2). لكن دولة بني حماد كانت في وضعية أفضل بكثير من دولة بني زيري وذلك لاعتمادها الكلي على قبائل صنهاجة وللطبيعة الطبوغرافية للبلاد فهذا ابن الأثير ينقل في حوادث سنة 457/1065 «أن العرب تمكنت بعد رحيل المعز إلى المهدية ونهبت الناس وخربت البلاد فانتقل كثير من أهلها إلى بلاد بني حماد لكونها جبالاً وعرة يمكنها الإمتناع من العرب فعمرت بلادهم وكثرت أموالهم»(3).

لكن هذه الفوارق الطبوغرافية لم تمنع العرب من التسرب إلى المغرب الأوسط وقد تم لهم ذلك عن طريق العلاقات التي أقاموها مع بعض القواد في

---

(1) ابن عذاري، البيان، الجزء 1، ص. 295؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء IX، ص. 569 ـ 570.

(2) G. MARÇAIS نفس المرجع، ص. 114؛

H.R.IDRISS, La Berbérie orientale sous les Zirides (X - XIIe s.), t,I.p. 223.

(3) ابن الأثير، الكامل، الجزء X، ص. 45.

الدولة الحمادية وكذلك بتدخلهم في شؤون بني حماد كما حصل لهم ذلك في إفريقية الزيرية مثلاً أثناء الحرب بين عبيد تميم وعبيد المعز في المهدية سنة 1065/457.

تفيد المصادر أن محسن بن القائد (446 ـ 447/1055 ـ 56) كلف جماعة من بني هلال يقودهم خليفة بن مجنّ وعطية الشريف بقتل ابن عمه بلقين (1055/446) حفيد حماد لكن الهلاليين فضلا الإنضمام إلى بلقين لعلاقة سابقة كانت تجمعهم. إذاً تؤكد هذه الرواية على استغلال بني هلال للصراعات الداخلية في الدولة الحمادية للتسرب إلى المغرب الأوسط. أما المناسبة الأخرى التي تدخّل فيها العرب الهلاليون فيوردها ابن الأثير بأكثر تفصيل في أحداث سنة (1065/457) تحت عنوان «ذكر الحرب بين بني حماد والعرب»[1]. حصل تآلفان: من جهة نجد حاكم القلعة الناصر بن علناس بن حماد (454 ـ 1062/481 ـ 1088) ومعه صنهاجة وزناتة وبعض القبائل العربية (من عدي والأثبج) ومن جهة أخرى يشمل التآلف الثاني قبائل بني رياح وزغبة وسليم ومعهم المعز بن زيري الزناتي. وفي أثناء سرده للحرب بين التآلفين يذكر ابن الأثير بالعداء القديم والمتواصل بين بني زيري وبني حماد ـ منذ بداية القرن الخامس وتأسيس القلعة ـ ثم يشير إلى أن الناصر «كان يذم تميم بن المعز في مجلسه» ويعزم على المسير إليه لمحاصرته في المهدية. وفي هذا النطاق قام بمحالفة صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على محاصرة المدينة التي كان الأمير الزيري متحصناً بها ـ ويواصل ابن الأثير قائلاً إن تميم لما علم بنوايا الناصر اتصل بدوره ببني رياح وأقنعهم أن هدف صاحب القلعة هو الإيقاع بهم ـ «فقبلوا قوله وطلبوا منه المعونة فأعطاهم المال والسلاح فتحالفوا بينهم واتفقوا على لقاء الناصر ثم أرسلوا إلى بني هلال الذين كانوا مع هذا الأخير» يقبحون عندهم مساعدتهم له ويخوفونهم منه إن قوي وأنه يهلكهم بمن معه من زناتة، وأنهم

(1) نفس المصدر، ص. 44 ـ 46.

إنما يستمر لهم المقام والإستيلاء على البلاد. إذا تم الحلف وضعف السلطان «فأجابهم بنو هلال إلى الموافقة على أن ينهزموا بالناس في أول حملة بين الطرفين ويكون لهم ثلث الغنيمة»[1].

«وقد اتصل المعز بن زيري الزناتي بقومه الذين كانوا في حلف الناصر فوعدوه أيضاً أن ينهزموا». وهكذا تمّت المقابلة بين التحالفين في سبيبة فحملت رياح على بني هلال وحمل المعز على زناتة فانهزمت الطائفتان وتبعهم عساكر الناصر منهزمين وكان مبلغ من قتل من صنهاجة وزناتة أربعة وعشرين ألفاً. وغنمت العرب ما كان في المعسكر من مال وسلاح ودواب[2].

ويضيف ابن الأثير أن العرب تمكنوا بعد هذه الوقعة من السيطرة على البلاد وملكها. «إنهم قدموها في ضيق وفقر وقلة دواب فاستغنوا وكثرت دوابهم وسلاحهم وقل المحامي عن البلاد»[3].

إذاً تشبه هذه المعركة من ناحية الأهمية وبالنسبة لبني حماد معركة حيدران التي انهزم فيها المعز بن باديس وقد تمكن العرب من التسرب إلى المغرب الأوسط حيث قاموا بالعديد من أعمال النهب والتخريب ثم دخلوا في صراع مرير مع قبائل زناتة التي تسكن المنطقة. وقد خلدت السيرة الهلالية هذا الصراع بين بني هلال وقبائل زناتة التي كان يقودها خليفة الزناتي[4].

إن الصراع حصل هذه المرة بين الهلاليين من ناحية وبين ائتلاف آخر يتكون من الزناتيين بقيادة وزير صاحب تلمسان أبو سعدي خليفة اليفرني. وقد انهزم الائتلاف بعد عدة معارك عنيفة وقتل أبو سعدي وتفرقت جيوشه.

---

(1) نفس المصدر، ص. 45.

(2) ابن الأثير، الكامل، الجزء X، ص. 46.

(3) نفس المصدر.

(4) انظر عن السيرة الهلالية: عمرو أبو النصر، تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب، طبعة بيروت، دون تاريخ؛ الطاهر قيقة، La geste hilalienne، طبعة تونس، 1968.

إذاً استطاع بنو هلال في فترة وجيزة من إلحاق الهزيمة بالمعز ونهب القيروان مما جعل الأمير ينتقل إلى المهدية التي أصبحت مقر سلطانه. كما تمكنوا بعد ذلك من التسرب إلى المغرب الأوسط حيث هزموا الناصر صاحب القلعة ثم قبائل زناتة وقد شيدت مدينة بجاية بعد ذلك بقليل لتصبح القاعدة الجديدة لبني حماد[1].

الخاتمـــــة:

إن الصراع الزيري الهلالي انتهى في آخر الأمر لصالح العرب الهلاليين الذين تمكنوا ـ بعد هزيمة المعز في حيدران وذلك في مناسبتين على الأقل ـ من إضعاف الدولة الصنهاجية وتأسيس عدة إمارات في الداخل (قفصة ـ الكاف ـ الأربس) وعلى السواحل (بنزرت ـ تونس ـ صفاقس ـ قابس) كما واصلوا تسربهم إلى المغرب الأوسط. وقد انجرت عن هذا الصراع انعكاسات في شتى المجالات أهمها على الاطلاق تدعيم المجتمع القبلي البدوي ـ تعريب البوادي والأرياف الإفريقية والإسراع في الإنصهار بين العناصر البربرية المحلية والعربية.

(1) انظر عن بناء بجاية ـ ابن الأثير ـ الكامل، الجزء X، ص. 46 وما بعدها.

المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث
والتاريخ العربي والعالمي

العدد 54 ـ 1417 هـ 1996م

تصدر عن

الأمانة العامة لاتحاد المؤرِّخين العرب

بغـــــداد

مدينة بنزرت
في العهد الإسلامي الوسيط

المقدمة:

تقع مدينة بنزرت التي يرجع تاريخها إلى العهود القديمة (الفينيقية ثم اللاتينية) في منطقة صطفورة وهو إقليم ساحلي يضم ثلاث مدن وكانت بنزرت أم عمل هذا الإقليم الذي يقع في الشمال الشرقي لإفريقية. وما يمكن أن نؤكّد عليه هو أن هذه البلاد (تونس اليوم) شهدت تحضراً مع سكّانها الأصليّين (اللّوبيون) ثم مع الفينيقيين وتعزّز هذا التحضر مع مجيء الرومان ثم البيزنطيين وتواصل فيما بعد مع العرب المسلمين لكن هذا التحضر عرف أشكالاً ومظاهر متعددة حسب الفترات الزمنية وحسب الحضارات التي تداولت على إفريقية ولا شك أن إقليم صطفورة الذي كانت قصبته مدينة بنزرت من بين الأقاليم التي خضعت لتوالي مظاهر هذا التحضر.

فكيف فتح العرب المسلمون صطفورة وبنزرت؟ وما هي أهم أطوار تاريخ بنزرت في العهد الإسلامي الوسيط؟

أولاً: إقليم صطفورة والفتح العربي الإسلامي:

شرع العرب المسلمون في عهد الخليفة عثمان بن عفّان بتوجيه الغارات والسرايا على أطراف إفريقية وذلك انطلاقاً من سنة 25 هـ/ 645 ـ 646م عندما وقع تعيين عبد الله بن أبي سرح والياً على مصر والمغرب(1) لكن المصادر لا تذكر

(1) انظر ابن عبد الحكم ـ فتح مصر وأخبارها ـ طبعة ليدن ـ 1920 ـ ص 183 وما بعدها ـ ابن أعثم الكوفي كتاب الفتوح ـ طبعة حيدر آباد ـ الدكن 1969 ـ ج 2، ص 131.

شيئاً عن صطفورة وبنزرت إلا أثناء الحملة التي جهزها معاوية بن أبي سفيان بقيادة معاوية بن حديج السكوني لمواصلة فتح إفريقية الذي كان توقف أكثر من عشرين سنة ثم في عهد حسان بن النعمان خلال خلافة عبد الملك بن مروان.

- جاء ذكر بنزرت للمرة الأولى سنة 41 هـ/ 661م عندما افتتحها - حسب رواية الورّاق التي أوردها البكري[1] - معاوية بن حدّيج وكان معه عبد الملك بن مروان. بينما يذكر المالكي أن غزوة ابن حدّيج لبنزرت[2] تمّت بعد ذلك التاريخ - حوالي سنة 45 هـ/ 666 م - مباشرة بعد فتح حصن جلولاء وإرسال الغنائم إلى معاوية بالشام. وقد «غنم غنائم كثيرة من نواحيها ورجع قافلاً إلى قمونية وبنى بناحية القرن مساكن وسمّاها القيروان».

أما صطفورة فقد ذكرت في ولاية حسّان بن النعمان الذي عينه الخليفة عبد الملك بن مروان سنة 69 هـ/ 688 م أميراً على إفريقية وذلك إثر مقتل زهير بن قيس البلويّ. وقد دخل حسّان مدينة ترشيش (تونس) بالسيف وسباها وأمر بهدم قرطاجنة وأسوارها لكن الروم عقدوا عليه عسكراً وأمدّهم البربر في بلد تسمى «صطفورة» فحصل قتال بين الطرفين أصيب فيه الكثير من أصحاب حسّان قبل أن ينهزم الروم والبربر ويلتحق بقيّتهم هاربين: الروم إلى مدينة باجة حيث تحصنوا بها والبربر إلى إقليم «بونة» أما حسان فقد انصرف إلى القيروان[3].

إذاً لعب إقليم صطفورة دوراً مهماً في الصراع بين العرب المسلمين وكل من الروم والبربر - لكن العرب ما فتئوا أن فتحوا كامل إفريقية وأصبحت صطفورة تحت النفوذ الإسلامي.

---

(1) البكري - المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. طبعة الجزائر - 1857 - ص 58.
(2) المالكي - كتاب رياض النفوس - طبعة بيروت 1983 الجزء الأول، ص 28 - 30.
(3) المالكي - المصدر نفسه - ص 49. ابن عذاري البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. طبعة بيروت - د. ت. ج 1، ص 35.

وقد ركّز الجغرافيون والرّحالة العرب والمسلون على هذا الإقليم الذي يشمل ثلاث مدن؛ أنبلونة ثم تينجة ثم بنزرت ـ وهو إقليم ساحلي يقع شمال مدينة تونس وشرق مدينة طبرقة.

ويذكر اليعقوبي (المتوفى سنة 292 هـ/ 897 م) أن صطفورة تقع على مرحلتين خفيفتين من القيروان ويضيف أن هذه المدينة كبيرة يسكنها قوم من قريش من قضاعة ومن غيرهم(1).

أما ابن حوقل (متوفى سنة 367 هـ/ 977م) فيذكر أن «صطفورة إقليم جبل... أنهاره واسعة غزيرة الارتفاع... أهله جلد وناسه ذوو بأس في البر والبحر صبر على الشقاء والكدّ مع قلة الخور(2) والضجر وإن كان بلدهم في هذا الوقت قد خلا ونجا».

ويؤكد من جهته الحميري في كتاب الرّوض المعطار أن إقليم صطفورة يحتوي على قرى وقواعد ومدن منها بنزرت وتينجة(3).

ما هو أصل تسمية بنزرت وما هي مراحل تاريخ هذه المدينة في العصر الإسلامي الوسيط؟

ثانياً: بنزرت في العهد الإسلامي الوسيط:

يرجع تاريخ هذه المدينة الساحلية الهامة إلى الفترة الفينيقية وبصفة أدق إلى القرن التاسع قبل الميلاد حيث أن الفينيقيين ـ في نطاق سياستهم البحرية التوسعية واختيار المراكز الاستراتيجية الهامة في المتوسط ـ استقروا في هذا المرسى الذي أصبح يحمل اسم إيبو أكرا (Hyppo Accra) ومنذ ذلك الوقت عرف هذا الميناء ازدهاراً كبيراً قبل سقوطه تحت نفوذ قرطاج التي حولته إلى

(1) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ طبعة ليدن 1895، ص 350.
(2) ابن حوقل ـ صورة الأرض ـ مكتبة الحياة ـ بنزرت، ص 75 وما بعدها.
(3) محمد بن عبد المنعم الحميري ـ كتاب الرّوض المعطار في خبر الأقطار. طبعة 1975، ص 318.

محطة تجارية في اتجاه الغرب. لكن الرومان ما فتئوا أن سيطروا بدورهم على هذه المحطة بعد قضائهم على قرطاج فأصبحت تعرف تحت اسم إيبو دياريتوس (Hyppo Diarrhytus) [1].

في الحقيقة أن هذه التسمية شهدت تحويرات في العهد اللاتيني المتأخر. وتؤكد النصوص القديمة وخاصة كتب الرحلات أن الاسم كان يكتب وينطق إيبونة دياريتو (Hipponte Diarito) (حسب قائمة بيتنفر) - ثم إبون زريتو (Itinéraire d'Antonin) ثم إبوني زريتو (Yponi Zareto) أو إبون زريتو (Hippone Zareto) حسب القديس أغسطوس (Saint Augustin) [2].

ويعتقد المؤرخ (Pellegrin) أن الاسم العربي لبنزرت (Binzad) أو بنْزرْت (Banzart) اشتقّ من هذه التسمية الأخيرة[3].

إذاً مهما يكن من أمر فإن بنزرت العربية الإسلامية لا نملك عنها الكثير من المعلومات منذ أن فتحها معاوية بن حدّيج سنة 41 هـ، ثم ألحق حسان بن النعمان الهزيمة بالبربر الذين أمدوا الروم في إقليمها «صطفورة».

وقد كانت المدينة خالية كما يؤكد ذلك ابن حوقل في القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي[4] - بعيداً عن مركز الثقل السياسي والاقتصادي في القيروان عاصمة إفريقية في عهد الولاة ثم في العهد الأغلبيّ - وهو الذي يفسر تقلّص دورها. ومن ناحية أخرى فإن العلاقات بين المراكز المغربية والمراكز الساحلية المتوسطية من إسبانيا إلى القسطنطينية قد انقطعت وكانت إفريقية - بحكم تحول مركز نشاطها إلى القيروان - متجهة نحو الشرق عن طريق

---

(1) انظر مقال بنزرت في دائرة المعارف الإسلامية (بإمضاء جورج مارسي)، ج 1، ص 1055 - طبعة بريل 1975.

(2) انظر دراسة حسين الجعيدي - Les Sites antiques de l'Ifriqiya et les géographes arabes Mémoire de CA. R dactylographié soutenu à l'E.N.S, Tunis, 1977, pp. 53-45.

(3) A. Pellegrin - *Contribution à l'étude de la toponymie tunisienne, étymologie de* Bizerte I.B.L.A., 1948 Tome IX p. 43 - 46.

(4) ابن حوقل: المصدر المذكور، ص 75.

مصر. ورغم سيطرة العرب المسلمين على المتوسط الغربي انطلاقاً من إفريقية والمغرب ما بين القرنين الثالث والخامس للهجرة فإن القواعد البحرية الشمالية والمراسي المتواجدة في شمال البلاد ـ مثل مرسى بنزرت ـ لم تتحصل على نصيبها من الحركية والنشاط.

إذاً بقيت بنزرت في فترة ركود إلى حدود القرن الخامس للميلاد حيث بدأت تنتعش بصفة تدريجية فهذا البكري الذي توفي سنة 487 هـ/ 1094م يذكر في كتابه المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب[1] أثناء حديثه عن الطريق من القيروان إلى طبرقة ما يلي: «وبشرقيّ مدينة طبرقة على مسيرة يوم وبعض آخر قلاع تسمى بقلاع بنزرت وهي حصون يأوي إليها أهل تلك الناحية إذا خرج الروم غزاة إلى بلادهم ـ فهي مفزع لهم وغوث وهي رباطات للصالحين». ويواصل قائلاً: «من طبرقة إلى مرسى تونس مرسى القبّة، عليه مدينة بنزرت وهي مدينة على البحر يشقها نهر كبير كثير الحوت ويقع في البحر وعليها سور صخر وبها جامع وأسواق وحمامات وبساتين وهي أرض البلاد حوتاً. . .».

إذاً من خلال هذا النص يبدو أن بنزرت في القرن الخامس للهجرة (أي في العصر الزيري) تحتوي على كل المنشآت الأساسية للمدينة العربية الإسلامية (الجامع ـ الأسواق ـ الحمامات) إلى جانب السور والحصون والقلاع. لكن المصادر لا تعطينا معلومات عن السكان والحياة الاقتصادية والسياسية للمدينة ـ وهذا يجعلنا نتّجه إلى ما عساه علم الآثار أن يفيدنا به من معلومات إضافية حول هذه المواضيع المختلفة.

ـ من ناحية الموقع كنا ذكرنا أن بنزرت تقع على البحر وبها ميناء يسميه البكريّ مرسى القبة[2] وهو من المراسي الصغيرة.

ـ أما من ناحية الحجم فيجمع الجغرافيون والرّحالة الذين ذكروا بنزرت

(1) البكري: المصدر نفسه، ص 58.
(2) البكري: المصدر نفسه، ص 83.

في كتاباتهم أنها صغيرة فهي أصغر من تونس حسب الإدريسي[1] لكنها حسنة عامرة بأهلها وبها مرافق وأسواق قائمة بذاتها ويؤكد الحسن الوزان (متوفى بعد957 هـ/ 1550م) أنها تقع على بعد 35 ميلاً من تونس وهي صغيرة يسكنها فقراء[2]. . أما ابن حوقل فيرى أن بنزرت أصغر من سوسة[3].

ـ وفيما يتعلق بالمسافات التي تفصلها عن بقية مدن إفريقية فيمكن ذكر المسافة بينها وبين تونس وتقدر بيوم كبير في البر[4] وبينها وبين طبرقة مسافة يوم وبعض[5] (أي حوالي 70 ميلاً)[6]، كما تفصلها عن صفاقس مسيرة 8 أيام[7].

ـ أما الموارد المائية فتتمثل خاصة في بحيرة بنزرت التي تقع في الجهة الشرقية وطولها 16 ميلاً وعرضها 8 أميال. وفمها متصل بالبحر كلما أخذت في البرية اتسعت وكلما قربت في البحر ضاقت وانخرطت[8]. ويذكر المقدسي من جهته أن هناك وادياً يجري مالح يدخل من بحيرة إلى جنب البحر ثم يرجع إليه ويعدي فيه الناس في القوارب[9].

وتحتوي هذه البحيرة على ثروة سمكية كبيرة ومتنوعة مثل سمك المرجان الكبير الذي يزن من خمسة إلى ستة أرطال ـ الزرافة وهو سمك يصطاده الأفارقة

---

(1) الإدريسي المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق محمد حاج صادق طبعة تونس 1983، ص 15.

(2) الحسن الوزان ـ وصف إفريقيا ـ ترجمة محمد حجّي ـ محمد الأخضر ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1983، ص 68.

(3) ابن حوقل: المصدر نفسه، ص 83.

(4) الإدريسي: المصدر نفسه، ص 151.

(5) البكري: المصدر نفسه، ص 57.

(6) الحميري: الروض، ص 386.

(7) اليعقوبي: المصدر نفسه، ص 350.

(8) الإدريسي: المصدر نفسه، ص 151.

(9) المقدسي ـ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ـ طبعة بريل ـ 1906، ص 226.

عند انتهاء شهر أكتوبر[1] ـ البوري. . . ويعدد الإدريسي أنواع السمك فيحصر 12 نوعاً «يوجد منها في كل شهر نوع لا يمتزج بغيره من أصناف السمك» ـ ويعتبر هذه البحيرة من أعاجيب الدنيا[2].

ويذكر البكري[3] أن على مقربة من هذه البحيرة بحيرتان إحداهما حلوة والأخرى مالحة فتصب كل واحدة منهما في الأخرى نصف العام على السواء. فلا يتغير لواحدة منهما طعم. ويعطينا الإدريسي أكثر تفصيل عن البحيرتين حيث يبيّن «أن ماء بحيرة تينجة عذب وماء بحيرة بنزرت ملح وكل واحدة من هاتين البحيرتين تصب في أختها ستة أشهر ثم ينعكس جريهما. فتمسك الجارية عن الجري وتصب البحيرة الثانية إلى هذه الأولى فلا ماء بحيرة تينجة يتملّح ولا ماء بحيرة بنزرت يعذب وهذا عجب آخر من عجائب هذا الصقع[4]. . .».

العناصر المعمارية:

تجمع كل المصادر الجغرافية على أن بنزرت «مسوّرة محصّنة» وأنها تقع ضمن سلسلة من المراسي والرباطات والقلاع. ويعدد البكري هذه التحصينات[5] انطلاقاً من مرسى القبة وهو مرسى بنزرت كما أسلفنا ثم مرسى رأس الجبل ثم مرسى الثنية ثم رباط قصر أبي الصقر وقبالته جزيرة الكرّاث التي قتل فيها زيادة الله عمومته وإخوته ثم مرسى رباط قصر الحجّامين. «لا شك أن كل هذه التحصينات الممتدة على كامل الساحل بين قرطاج وبنزرت تساعد على حماية المدينة ضد الهجومات المتعددة للروم. ثم إن قلاع بنزرت عبارة عن حصون يأوي إليها أهل تلك الناحية (صطفورة) في حالة خروج الروم»[6]. ومن

(1) الحسن الوزّان ـ وصف إفريقيا، ص 68.
(2) الإدريسي: المصدر نفسه، ص 152.
(3) البكري: المصدر نفسه، ص 58.
(4) انظر الإدريسي: المصدر نفسه، ص 151.
(5) البكري: المصدر نفسه، ص 83.
(6) المصدر نفسه، ص 57.

ناحية أخرى تلعب دور الرباطات للصالحين. وقد أنشئت هذه الحصون منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي لتؤوي الزّهاد والجند. وتذكرنا هذه القصور المتاخمة لبعضها البعض ما يوجد على ساحل جزيرة أبي شريك (الوطن القبلي) في نفس الفترة الزمنية من قصور ينزلها العبّاد والمرابطون على حسب تعبير اليعقوبي[1].

أما سور المدينة فهو مبني من حجر ولعله امتداد للتحصينات البيزنطية. وقد وقع ترميمه في العهد التركي لحماية المدينة من الهجومات الاسبانية خاصة بعد أن هدم إثر حملة شارل الخامس ملك إسبانيا في غضون القرن السادس عشر الميلادي واستقرار جيوشه بها من سنة 941 هـ/ 1535م إلى سنة 980 هـ/ 1572م.

ورغم حجم المدينة الصغير والمتواضع فإن بنزرت تحتوي كما أسلفنا على عنصر أساسي من عناصر العمارة الإسلامية ألا وهي الأسواق والحمامات وبطبيعة الحال الجامع الذي يقع في وسط البلاد.

إن إقامة الأسواق والحمامات لدليل على نشاط المدينة وعمارتها خاصة ما بعد القرن الرابع للهجرة، فالبكري الذي توفي في نهاية القرن الخامس يذكر ذلك معتمداً على رواية محمد بن يوسف الورّاق[2] الذي عاش في القرن الرابع (حوالي سنة 350 هـ/ 970م) ويدعم ذلك الإدريسي فيما بعد ـ أما الحسن الوزان فيضيف «أن المدينة تحيط بها مداشر عديدة لصيادي السمك والفلاحين» ويمتد غربها سهل عظيم يسمى سهل ماطر وهذا السهل منتج إلى أقصى حد لكنه مثقل بالضرائب الجسيمة التي يفرضها عليها ملوك تونس والأعراب[3].

إذاً كانت بنزرت قبل الهجرة الهلالية عبارة عن مدينة صغيرة مسوّرة ولكنها عامرة وبها كل المرافق. غير أن موقعها البحري لم يمكنها من أن تصبح ـ كما

(1) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ ص 350 ـ انظر دراستنا عن مدينة نابل في العصر الوسيط ـ مجلة المؤرخ العربي عدد 34 بغداد ـ 1988، ص 186 ـ 192.
(2) البكري: المصدر نفسه، ص 58.
(3) الحسن الوزان: المصدر نفسه، ص 68.

كانت في العصور القديمة ـ مركزاً تجارياً ذا أهمية.

لكن الأوضاع تغيرت بعد منتصف القرن الخامس للهجرة حيث تذكر المصادر التاريخية أن قدوم بني هلال وبني سليم إلى إفريقية كانت له انعكاسات على كامل البلاد من حيث انحصار الحكم الزيري على شريط ساحلي يمتد ما بين سوسة وصفاقس وكذلك تأثر الفلاحة بحضور هؤلاء البدو وانتشارهم في العديد من المناطق وبطبيعة الحال تأسيس العديد من الإمارات العربية في المدن الإفريقية[1].

لكن الشيء الأساسي بالنسبة لمدينة بنزرت هو أنها منحت إدارة شؤونها إلى قائد عربي الورد اللّخمي الذي أسس سلالة محلية حافظت على السلطة أكثر من قرن (من حدود سنة 1050 م إلى حدود سنة 1205م) وتمكن بنو الورد من حماية بنزرت ونواحيها من غزوات قبائل بني الأثبج ورياح. كما توصّلوا إلى تهيئة المدينة.

ويبيّن ابن خلدون في تاريخه الظروف التي جعلت سكّان بنزرت يولون عليهم أبا رجاء الورديّ. . . ويقدّمونه على أنفسهم[2]. «كان أبو الرجاء عند اصطدام نار الفتنة بالعرب قد ضم إليه جماعة من الدّعار وكان ساكناً بقلعة فرسيته من جبل شعيب فكان يضرب على النواحي بجهة بنزرت ويعرض على أهل القرى الأتاوات بسبب ذلك. «وكان ببلد بنزرت فريقان أحدهما من لخم وهم قوم الورد وبقوا فوضى واختلف أمرهم فبعثوا إلى الورد في أن يقوم بأمرهم فوصل إلى بلدهم فاجتمعوا عليه وأدخلوه حصن بنزرت وقدموه على أنفسهم فحاطهم من العرب ودفع عن نواحيهم. . .».

ويضيف مؤكداً على أن أبا رجاء اللخمي سيطر على الوضع المتردي من جراء الفوضى وأعمال النهب والسلب وهادن العرب من رياح الذين كانوا

(1) انظر دراستنا عن «الهجرة الهلالية وآثارها في المغرب» ضمن تاريخ الأمة العربية ـ منظمة الألكسو ـ تحت النشر.

(2) ابن خلدون ـ كتاب العبر ـ دار الكتاب اللبناني ـ ج 6، ص 346 وما بعدها.

متغلبين على الضواحي ودفع لهم الإتاوة.

إذاً يمكن القول إن الأمن والاستقرار عادا إلى البلاد بفضل أبي الرجاء الورد الذي سمى نفسه الأمير وعمل على تطوير الحركة العمرانية فشيد المصانع والمباني والسدود. وقد تولى الأمر من بعده ابنه طراد الذي فرض نفسه على الأعراب فوطّد الأمن. لكن ابنه محمد بن طراد ما فتىء أن قتل بعد توليه الأمر لمدة شهرين من طرف أخيه مقرّن. والجدير بالذكر أن هذا الأخير لقّب نفسه ـ شأنه شأن جده مؤسس الإمارة الوردية ـ أبو الرجاء ـ بالأمير وبسط نفوذه على البدو واصطنع الرجال.

ويبيّن ابن خلدون[1] أن مقرّن هذا ذاع صيته إلى درجة أنْ قصده الشعراء لمدحه ـ وبعد موته تولى الأمر ابنه عبد العزيز لمدة عشرين سنة فاتّبع سياسة أبيه وجدّه في مهادنة العرب. وبعد موته خلفه أخوه موسى لمدة أربع سنين ثم أخوه عيسى. وفي عهد هذا الأخير قدم الموحّدون إلى إفريقية لتخليصها من الخطر النورماني فساعدهم على حصار مدينة تونس مما جعلهم يحسنون معاملته بعد سيطرتهم على كامل البلاد ويتركونه في منصبه. إن فترة بني الورد تمثل فترة أمن واستقرار بالنسبة لبنزرت ومنطقتها التي كانت تعاني من أعمال السلب والنهب.

من ناحية أخرى «كثر عمران المدينة» على حد تعبير ابن خلدون، وقد تواصل ذلك في العصر الموحّدي، مما أدّى إلى إحداث ربض خارج السور. غير أن مدينة بنزرت ظلت في العهد الحفصي إلى حدود القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وبحكم قرب تونس ـ عاصمة المملكة ـ مجرد مركز إداري لإقليم صطفورة ولم تتطور كثيراً من حيث الحجم. كما أنها لم تتحول إلى قاعدة تجارية نشيطة بل أصبحت نقطة عبور للأندلسيين الذين أسسوا فيها حياً يحمل اسمهم[2].

---

(1) ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 6، ص 346.

(2) انظر مقال بنزرت المذكور آنفاً ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ ص 1055.

ويشير مارمول[1] إلى أن عدد سكانها لا يتجاوز الأربعة آلاف نسمة. كما أن الحسن الوزان يؤكد على أن سكانها فقراء[2] وأنها سهل ماطر مثقل بالضرائب التي يفرضها عليه ملك تونس (بنو حفص) والأعراب.

الخاتمة:

خلافاً للفترة القديمة التي لعبت خلالها مدينة بنزرت (أيبو أكرا ثم إيبو دياريتوس) دوراً مهماً في الميدان التجاري فإن العهد الإسلامي الوسيط ـ بحكم انتقال مركز الثقل في إفريقية إلى القيروان ثم المهدية ثم تونس، لم يمثل بالنسبة للمدينة التي كانت مجرد مركز إقليم صطفورة ـ فترة ازدهار كبير ـ ثم إن المعلومات التي أوردتها المصادر عن تاريخ المدينة شحيحة جداً إلا في حالات نادرة. ولذلك فإن التنقيبات الأثرية التي لا بد من إجرائها في بعض الأماكن (السور ـ الرباط ـ الجامع) لعلها تفيدنا بمعلومات أكثر دقة عن التطور العمراني للمدينة.

(1) مارمول ـ إفريقيا ـ طبعة الرباط 1989 ـ 2 ـ ص 68.
(2) الحسن الوزان: المصدر نفسه، ص 68.

حركات الرّدة في اليمن
«قراءة جديدة»

تقديـــم:

يعتبر موضوع الرّدة في الإسلام من المواضيع الحسّاسة والخطيرة في نفس الوقت حيث شغل بال المؤرخين من مستشرقين وعرب مسلمين منذ القرن التاسع عشر ميلادي. وقد اهتممت شخصياً بهذا الموضوع في نطاق بحوثي عن تاريخ اليمن الإسلامي وخصّصت فصلاً هاماً في أطروحتي عن حركات الرّدة في اليمن(1) وحاولت ربطها ببقيّة الحركات في كامل شبه الجزيرة العربيّة مبيّناً خصوصيّاتها من ناحية وكذلك نقاط اختلافها وتشابهها ومؤكّداً من ناحية أخرى على الأوضاع العامّة في آخر حياة الرّسول محمّدﷺ لفهم مبرّرات هذه الحركات وغاياتها وانعكاساتها على مصير دولة الإسلام.

1 ـ مصادر الدراسة:

لا بدّ للمؤرخ الذي يشتغل على هذا الموضوع الأساسي الاعتماد على كلّ النصوص المصدريّة(2) والمعلوم أن المصادر العربيّة الإسلامية الخاصّة بتاريخ

---

(1) انظر أطروحتي بالفرنسية: Radhi DAGHFOUS - Le Yaman Islamique des origines jusqu'à l'avènement des dynasties autonomes (1-3e S./7è 9è S.) Tunis, 1995 - 2 vol., 1079 pages.

انظر بالخصوص المجلّد الأوّل الفصل الأوّل من القسم الثالث ص 311 ـ 405.

(2) انظر في هذا الشأن: الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك طبعة القاهرة ـ 1969 الجزء III. 185 وما بعدها. 227 وما بعدها ـ 318 وما بعدها.

البلاذري: فتوح البلدان ـ طبعة بيروت ـ 1952 ص. 131 وما بعدها.

اليعقوبي: تاريخ، طبعة بيروت 1970؛ انظر الجزء II ص 128 وبعدها.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ ـ طبعة بيروت 1967 انظر الجزء II ص 336 وما بعدها.

=

الإسلام التأسيسي بصفة عامّة وبقضيّة الردّة بصفة خاصّة تشكّل عائقاً كبيراً من حيث عدم معاصرة هذه المصادر للأحداث وكذلك من حيث المواقف المسبّقة لمؤلفيها الذين عاشوا بعد القرن الثاني للهجرة وبالتالي كانت آراؤهم متأثرة إلى حدّ كبير بالوضعيّة التي ميّزت عصرهم.

إذاً إنّ المصادر المكتوبة التي وصلتنا عن الردّة ألفت في أفضل الأحوال في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة وبعد القرن الثاني وقد ذكر مؤلفوها الرّوايات التي اعتمدوا عليها وكذلك المصادر التي ألفت منذ القرن الأول من كتب أخبار وسيرة ونسب وغيرها التي لم تصلنا مباشرة(1).

إنّ هذه المصادر المتأخرة من حيث صياغتها والتي ألفها أصحابها في العهد العباسي الأول والثاني تطرح بالنسبة للمؤرّخ المحدث قضيّة المصداقية حيث أنّها مصادر ذات طابع ديني وفقهي وبالتالي فإنّ مواقف أصحابها سلبية جداً بالنسبة لقضية مثل الردّة ولا يمكن التعويل عليها دون مساءلتها ومناقشة الروايات التي تضمنتها.

= النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب ـ طبعة القاهرة ـ 1975 الجزء 19 ـ ص 49 ـ 60.

الديار بكري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، طبعة القاهرة جزءان انظر الجزء II ص 155 وما بعدها.

ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، طبعة حيدر آباد ـ 1968 ـ 4 ـ مجلدات.

ابن حبيش، كتاب الغزوات، الجزء الخاص بالردّة، تحقيق أحمد غنيم، القاهرة ـ 1983 ص 195 وما بعدها.

الكلاعي البلنسي، تاريخ الردّة من كتاب الإكتفاء، تحقيق أحمد فاروق خورشيد، طبعة دلهي، 1982.

الواقدي، كتاب الردّة، تحقيق يحيى الجبوري ـ طبعة بيروت، 1990. انظر كذلك طبعة باريس 1989 تهذيب محمّد حميد الله.

(1) انظر دراسة عبد العزيز الدّوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، طبعة بيروت 1960 شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون. طبعة بيروت، 4 أجزاء انظر I. ص 224 وما بعدها.

إنّ هذه المصادر متنوعة منها المصادر التاريخية[1] البحتة مثل كتب مؤرخي القرن الثالث للهجرة: خليفة بن خيّاط ابن قتيبة الدّينوري الواقدي اليعقوبي البلاذري الطّبري وكذلك كتب الطّبقات والأنساب والأموال والجغرافيا والأدب.

ونفس الملاحظة تنطبق على المؤلفات التاريخية المتأخرة أي الكتابات التي ألّفت بعد القرن الثالث: المسعودي - ابن الأثير - ابن الأعثم الكوفي - الدّيار بكري - النّويري - ابن خلدون وكذلك المصادر الأندلسية التي اعتمدنا عليها في بحوثنا: ابن حبيش والكلاعي[2].

المؤرخ مطالب إذاً بالتعامل بكثير من الحذر مع هذه المصادر التي كثيراً ما تدرس قضيّة الردّة بصفة عامّة دون التمييز بين مختلف الحركات مع الحكم على زعمائها بأنّهم معادين للرّسول وللإسلام والحال أن الروايات التاريخية لا تنقل بالمرّة دخول كل هؤلاء الزعماء وقبائلهم في الإسلام - من ناحية أخرى تشكّك هذه المصادر في زعماء هذه الحركات وتستعمل عبارات تحقيريّة إزاءهم فمسلمة بن حبيب يصبح مسيلمة الكذّاب. وطلحة الأسدي يصبح طليحة وعبهلة بن كعب العنسيّ ينعت بالأسود الكذّاب. وبطبيعة الحال فإنّ هذه الأحكام التحقيريّة لا تعين المؤرّخ الذي يريد دراسة هذه الحركات بكل نزاهة وموضوعيّة.

2 - الإطار التاريخي[3]:

بالنّسبة لليمن التي تقع في الرّكن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربيّة فقد كانت مركزاً مهماً لعدّة حضارات ترجع على الأقل إلى الألف الأوّل قبل

---

(1) انظر الهامش السّابق عدد (2).

(2) انظر أطروحتنا المجلّد I ص 30 وما بعدها.

(3) انظر في هذا الشأن دراسات روبان عن اليمن:

Christian ROBIN - L'Arabie antique de Karib'il à Mahomet - Edi sud - REMMM - N° 61 (1991 - 93).

الميلاد: حضارات معين ثمّ قتبان وحضرموت وأوسان وسبأ وحمير وما زالت التنقيبات التي تقوم بها فرق بعث متعدّدة الجنسيات في المواقع الأثرية لليمن متواصلة إلى اليوم وهي تدلي بمعلومات إضافية جديدة لا يمكن استخراجها من المصادر المكتوبة.

وتتميّز البلاد اليمنيّة (الجنوب العربي حسب المفهوم الذي يستعمله علماء الآثار والنقائش) في الفترة القريبة من الإسلام - أي في حدود القرن السادس وبداية القرن السّابع للميلاد بعدم وجود وحدة سياسيّة تشمل كامل المنطقة فاليمن كانت مقسّمة بين كيانات مختلفة منها منطقة صنعاء والسّاحل التي كانت خاضعة للنّفوذ الفارسيّ بينما كانت بقيّة المناطق تابعة لحكّام محلّيين يحملون ألقاب مختلفة: عباهلة في حضرموت - أذواء وأقيال في أماكن أخرى. ومن الناحية الاقتصادية فقدت اليمن دورها الريادي كوسيط بين الشرق الأقصى والعالم المتوسطي نتيجة تغيّر طرق التجارة الشرقية من البرّ إلى البحر وظهور مراكز ثقل جديدة لعل أهمها مكّة في الحجاز[1].

والمعلوم أنّ الإسلام الذي نشأ في مكّة في بداية القرن السّابع للميلاد قد أهّل هذا القطب ليلعب دوراً أساسياً على مستوى الحجاز وكامل الجزيرة العربيّة. ثمّ إنّ الدّيانة التوحيديّة الجديدة ديانة العرب أساساً - ستصبح بدورها ديانة كونيّة وستفرز دولة في يثرب - المدينة المنوّرة منذ الهجرة على مستوى عالميّ: دولة إمبراطورية حسب تعبير بعض المؤرخين المحدثين.

نذكّر كذلك أنّ تدهور الأوضاع في اليمن كان إفرازاً لظروف محليّة: انخرام نظام السّدود خاصة سدّ مأرب وما تبعه من تدهور للزّراعة وهجرة لليمانيين نحو الشمال - هجرة قبائل الأزد نحو عمان والحجاز (نذكر في هذا الإطار هجرة قبائل الأوس والخزرج واستقرارها في يثرب) من الناحية السياسيّة

(1) انظر القسم الأول من دراستنا بالفرنسيّة عن اليمن المرجع المذكور المجلّد I - ص 79 وما بعدها.

يمثّل القرن السادس للميلاد فترة احتلال أجنبي لليمن: أوّلاً احتلال حبشيّ دام نصف قرن (525 ـ 575) تبعه احتلال فارسيّ (578 ـ 628) لمدّة نصف قرن كذلك[1].

وتعتبر سنة 628 تاريخ دخول آخر حاكم فارسيّ للإسلام (باذان أو باذام) حدّاً فاصلاً في تاريخ اليمن التي أصبحت تابعة لدولة الرّسول في المدينة وتدور في فلك هذا القطب الجديد بعد ما كانت تدور في فلك الأحباش حلفاء الرّوم البيزنطيين ثم الفرس السّاسانيين.

إنّ التذكير بهذا الإطار التاريخي العام يفسّر إلى حدّ كبير دخول أغلب القبائل اليمانيّة بصفة سلمية في الإسلام والاعتراف بمحمّد ـ ﷺ ـ رسولاً ورجل دولة. ولا شك أنّ سياسة الرّسول محمّد ﷺ إزاء القبائل اليمنيّة وزعمائها: إرسال الكتب والرّسل ـ استقبال الوفود في المدينة بكلّ أبّهة وتقدير قد سهّلت دخولهم في الإسلام دون استعمال القوّة إلاّ في حالات نادرة جدّاً.

وقد أحصيت من خلال كتب الطبقات والتّاريخ ما لا يقلّ عن 44 وفداً من اليمن وقد أعلن اليمانيون ـ باسم قبائلهم ـ دخولهم في الإسلام والإذعان لنفوذ دولة المدينة بزعامة محمّد النبيّ[2] إنّ أغلب الوفود اليمانيّة قدمت إلى المدينة في السنة التاسعة للهجرة ـ عام الوفود ـ[3] لكنّ الدّخول في الإسلام له معنى سياسي أكثر منه ديني على أساس أنّ الأسلمة ستأخذ حيزاً زمنيّاً أطول وذلك بالنّسبة لكلّ القبائل العربيّة سواء في اليمن أو في بقيّة مناطق شبه الجزيرة (نجد عمان اليمامة. . .).

---

(1) نفس المرجع ص 109 وما بعدها.
(2) انظر فيما يتعلّق بالوفود ـ ابن سعد ـ الطّبقات الكبرى طبعة بيروت 9 أجزاء ـ 8 ـ 1957 انظر I ص 321 وما بعدها.
(3) انظر دراسة المستشرق السكوتلندي: Montgomery WATT - Mahomet à Médine, Payot - Paris, 1978, pp. 143 - 157.

3 ـ حركات الردّة في اليمن(1):

انطلقت حركات الردّة حسب ما جاء في أغلب المصادر العربيّة في آخر حياة الرّسول محمّد ﷺ في شكل يعرف باسم «النبوّات الكاذبة» وظهرت هذه النبوّات في مناطق مختلفة:

- نبوّة مسلمة بن حبيب الحنفيّ ضمن قبيلة حنيفة في اليمامة.
- نبوّة طلحة الأسديّ في قبائل أسد وغطفان في نجد.
- نبوّة عبهلة بن كعب العنسيّ في قبائل مذحج في اليمن.

وتلت هذه النبوّات الثلاثة حركات أخرى بعد موت النبي أهمها نبوّة سجاح في بني تميم.

أ ـ لنتوقف قليلاً عند حركة عبهلة «المعروف في المصادر بالأسود الكذاب» وتعتبر الحركة التي قادها في اليمن أول ردّة(2). ينتمي عبهلة إلى قبيلة عنس وهي إحدى القبائل المكوّنة لكنفدرالية مذحج وهي من أهم المجموعات القبلية في اليمن إلى جانب كنفدرالية الأزد وهمدان وغيرهما ـ وتشمل هذه الكنفدرالية عدّة قبائل وبطون منها عنس وسعد العشيرة ومراد وزبيد وبلحارث بن كعب وغيرها. انطلق عبهلة (اسم لقب لحكّام حضرموت) من كهف خبّان ثم تمكّن من السيطرة على صنعاء وقتل زعيم الأبناء الفرس فيها (شهر بن باذام) وتزوّج زوجته واستطاع في فترة وجيزة من بسط نفوذه على كامل الشريط الساحلي لليمن (حتّى عدن) ودخلت في طاعته عدّة قبائل يمانية منها مراد ـ زبيد ـ سعد العشيرة وغيرها ـ كما تلقّى مساندة عديد الزعماء اليمانيين منهم خاصّة عمرو بن معدي كرب الزبيدي وقيس بن المكشوح المراديّ.

---

(1) انظر دراسة: Elias SHOUFANY - Al riddah - and the Muslim conquest of Arabia - Toronto - 1972.

(2) راضي. دغفوس ـ المرجع السّابق ـ I ص 346 وما بعدها، إلياس شوفاني ـ نفس المرجع ص 89 وما بعدها.

وقد قام الرّسول محمّد ﷺ بمراسلة أتباعه الموالين للإسلام للتّصدي لحركة عبهلة وطلب منهم استعمال كلّ الوسائل لمقاومته وفعلاً تمكّن الأبناء بزعامة فيروز الدّيلمي وبعض العناصر اليمانيّة الأخرى من اغتيال عبهلة ووضع حدّاً لردّته. وجاء الخبر إلى المدينة بعد موت الرّسول ﷺ أي في عهد أبي بكر واعتبر أوّل فتح في خلافته.

ب ـ أمّا الردّة الثانية[1] على حسب تعبير الطبري فقد قادها كلّ من قيس بن المكشوح المرادي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي اللذين كانا حليفين لعبهلة قبل أن ينقلبا عليه ويشاركا في اغتياله ولكنهما لم يتحصلا على أيّ منصب سياسي من طرف دولة المدينة بحيث يمكن اعتبار حركتهما صراعاً على السّلطة ضدّ الأبناء من فارس أكثر منها ردّة بالمفهوم الدّيني للكلمة. وقد قضى عليها أبو بكر بالقوّة عندما أرسل لواء بقيادة المهاجر بن أبي أُميّة لمقاومة قيس وأتباعه من أنصار العنسي وفعلاً هزم قيس وعمرو وأسرا وأرسلا إلى المدينة.

ج ـ أخيراً قامت الردّة الثالثة[2] في حضرموت ضمن قبيلة كندة بزعامة الأشعث بن قيس الكنديّ الذي رفض الإعتراف بخلافة أبي بكر كما مانع تسديد الصدقات لدولة المدينة وبعد عدّة معارك بين أنصار الأشعث وأنصار العامل لبيد بن زياد الأنصاريّ في حضرموت وبمساندة الجيوش التي أرسلت من المدينة بقيادة المهاجر وعكرمة بن أبي جهل اقتحم حصن النجير الذي كان المتمرّدون من كندة وحضرموت متحصّنين فيه وتمّ القضاء على هذه الحركة الأخيرة في اليمن ودخلت بلاد اليمن بمختلف قبائلها تحت نفوذ دولة الخلافة في المدينة.

---

(1) انظر راضي دغفوس نفس، المرجع، I، ص 346 وما بعدها. إلياس شوفاني ـ نفس المرجع ـ ص 136 وما بعدها.

(2) انظر خاصة الواقدي، الردّة تحقيق الجبوري ص 167 وما بعدها راضي دغفوس ـ المرجع السّابق ـ I ص 362 وما بعدها.

4 ـ تقييم حركات الردّة من طرف المؤرخين:

أ ـ اعتبر أغلب المستشرقين[1] الذين اهتمّوا بقضية الردّة في كامل شبه الجزيرة أنّ هذه الحركات ليست بحركات ارتداد ضدّ الدّين الإسلامي بل هي حركات سياسيّة تعكس إرادة بعض القبائل التي ترى أنّ الحلف الذي عقدته مع الرّسول محمّدﷺ انتهى بموته وينبغي لخليفته أبي بكر مفاوضتها من جديد للتوصّل إلى معاهدة أخرى وحلف آخر وقد رفض أبو بكر هذا الحلّ وعمل على إخضاع المرتدين بكلّ الوسائل. ويتّفق كلّ من بيكار وفلهاوزن وكايتاني على أنّ موت الرسول محمّدﷺ كان بمثابة الإشارة المعلنة على ارتداد القبائل التي كانت تخضع سياسياً لدولة المدينة ولكنّها لم تدخل بعد في الإسلام. ويؤكد هؤلاء أنّ ظهور النّبوات الكاذبة هو «تقليد لنبوّة» محمّدﷺ بالذات وكان كلّ من طلحة ومسلمة وعبهلة وسجاح يسعون لتحقيق مآربهم في المناطق التي كانوا يسيطرون عليها عن طريق النبوّة.

أمّا المستشرق مونتقمري واط[2] فيعتبر أنّ الردّة حركة بعيدة كلّ البعد عن النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والديني للإسلام ولذا يرى أنّها موجهة ضدّ الإسلام ككل.

ب ـ بالنّسبة للمؤرخين العرب والمسلمين الذين درسوا الردّة فلم يركّزوا عليها بصفة موضوعية واعتمدوا على ما جاء في المصادر دون محاولة دراسة كلّ حركة في إطارها الخاص وطرح بعض القضايا المتعلقة بالمفهوم وبالأسباب والخلفيات.

إذاً المطلوب هو تجاوز نظرة المستشرقين وعدم الاعتماد الكلّي على ما جاء في النّصوص المصدرية المعادية للمرتدين بدون تفريق بين كلّ الحركات. من ناحية المفهوم لا بدّ من التساؤل هل أنّ الردّة تعني الإرتداد عن الإسلام وعن

---

(1) انظر دراسة مونتـــقمري واط ـ المرجع السابق ص 143 وما بعدها ـ إلياس شوفاني ـ المرجع السابق ـ ص 71 وما بعدها.

(2) انظر مونتغمري واط ـ المرجع السابق ص 102 وما بعدها.

التّعاليم التي أتى بها القرآن؟ وفي هذه الحالة يجب التأكد من أنّ كل القبائل وزعمائها الذين «ارتدّوا» دخلوا فعلاً في الإسلام وأصبحوا يطبقون التعاليم الإسلامية من شهادة وصلاة وزكاة بالخصوص. أم هل أنّ الكلمة المستعملة في كلّ الحركات وبالنسبة لجلّ قبائل الجزيرة العربيّة تعني ثورة سياسية وتمرّداً ضدّ سلطة المدينة وممثلها أبي بكر؟ وأخيراً هل أنّ الأمر يتعلّق بطرق دفع الزّكاة ورفض بعض القبائل تسديد الصدقات دون التراجع عن الديانة الإسلاميّة والإقرار بوحدانيّة الله وبنبوّة محمّد؟

يرى المؤرخ المصري عبد الحي شعبان[1] أنّ نبوّات متعدّدة انبعثت في أواخر حياة محمّد (ﷺ) وأنّ موت هذا الأخير يمثل بالنسبة لهؤلاء «الأنبياء الكذّابين» ولقبائلهم انهيار نظام المدينة ولذا آن الأوان لهم لمناهضة هذا النظام وضرب الحلف الذي كان يربطهم بمحمّد ﷺ وبدولته.

وبالنّسبة لليمن يعتبر شعبان أنّ عبهلة العنسيّ اعتمد على المجموعات الزراعية بينما كانت العشائر المناهضة له ولحركته الموالية لدولة المدينة تستمد مصالحها من التجارة وكان عبهلة يعتقد أنّ بلاده باستطاعتها كسب استقلالها من جديد كما تمّ لها ذلك من قبل ضدّ الأحباش[2].

أمّا أنصار الإسلام فكانوا مستعدين لمقاومة أبناء بلادهم للتوصل إلى فتح الطريق التجاري الذي كان يربط اليمن بالشام مروراً بمكّة وذلك بالاعتماد على دولة المدينة المسيطرة على هذا الطّريق الحيويّ بالنسبة للتجارة اليمنية.

قام المؤرخ اللبناني الياس شوفاني[3] بدراسة مهمّة عن الردّة وربط هذه الحركة بعمليّة الفتوح أو الإنتشار معتبراً أن «فتح الجزيرة العربية» وانتشار

---

(1) انظر محمّد عبد الحي شعبان: صدر الإسلام والدولة الأمويّة ـ بيروت 1983 ـ ص 30 وما بعدها.

(2) المرجع السابق ـ ص 31.

(3) انظر الياس شوفاني... Al riddah المرجع السابق ـ انظر ص I وما بعدها وخاصّة الفصل الرّابع ص 107.

الإسلام في مختلف مناطقها لم يتمّ إلا بعد التصدي للردّة وقمع كل الحركات من طرف جيوش أبي بكر.

بالنسبة لليمن التي تهمنا في هذا البحث يؤكّد شوفاني[1] أنّ البلاد كانت منقسمة كما أسلفنا القول بين عدّة كيانات وأنّها تفتقر إلى قيادة واحدة ويعتبر في هذا السّياق أنّ حركة عبهلة انطلقت في الوقت الذي كان محمّد عيّن شهر بن باذام عاملاً على صنعاء كما عيّن عمّالاً آخرين على بقيّة الجهات والقبائل في اليمن. إذاً ثورة العنسيّ كانت موجهة ضدّ كلّ هؤلاء العمّال وكان أنصاره ينتسبون إلى قبائل مذحج (مراد ـ عنس ـ زبيد ـ بلحارث بن كعب) إضافة إلى مساندة بعض القادة له مثل قيس المرادي وعمرو الزّبيدي.

ولذا يضع شوفاني حركة عبهلة في إطارها اليمنيّ الذي يتميّز بوجود ثلاثة فرق في صنعاء قبل إرسال المهاجر: عبهلة وأتباعه ـ قيس بن المكشوح وأنصاره من قبيلة مراد ـ الأبناء من الفرس بزعامة فيروز الدّيلمي. وكان كلّ طرف يريد فرض سلطته على الأوضاع باليمن لكن لم تكن لديهم القوّة الكافية ـ لذلك تحالف في بادىء الأمر الأبناء وقيس ضدّ الأسود وقتلوه ثم انقلب قيس بعد ذلك على الفرس وحاول القضاء عليهم بطردهم من البلاد ولكنّه هزم في آخر الأمر وأرسل أسيراً إلى المدينة حيث عفا عليه الخليفة أبو بكر.

بعبارة أخرى يعتبر شوفاني أنّ أحداث اليمن لا علاقة لها مع مشكل الصدقات ولا مع رفض سلطان المدينة بل هي مجرّد ردود فعل من طرف بعض القادة اليمنيين المحلّيين ضدّ منافسين لهم[2] ولا يمكن بالتّالي الحديث عن ردّة بالنسبة لحركة كلّ من عبهلة وقيس بن المكشوح المراديّ.

من جهتي (د. راضي دغفوس) أنجزت أطروحة حول «اليمن الإسلامي

---

(1) المرجع السّابق ص 89 وما بعدها.

(2) المرجع السّابق ص 136 وما بعدها، انظر كذلك الكتاب المعرّب تحت عنوان حروب الردّة دراسة نقديّة في المصادر طبعة بيروت ـ 1995.

في القرنين الأول والثاني للهجرة»[1] وبحثت موضوع الردّة الذي ربطته من ناحية بسياسة الرسول مع القبائل اليمانية ـ وخاصّة منها القبائل القاطنة في اليمن وحضرموت ـ ومن ناحية أخرى بحركية الانتشار الإسلامي التي انطلقت في اتجاهين موازيين في عهد أبي بكر: الشام والعراق. وقد توصلت إلى الإستنتاجات التالية فيما يتعلق بحركات كلّ من الأسود العنسي وقيس بن مكشوح المرادي والأشعث بن قيس الكندي.

قامت حركة عبهلة بن كعب العنسي الملقب «برحمان اليمن»[2] والذي سمي في المصادر العربيّة الإسلامية «الأسود الكذاب» في شمال اليمن (كهف خبان) في آخر حياة الرسول محمدﷺ واستطاع زعيمها في فترة زمنيّة وجيزة من السيطرة على قسم كبير من اليمن ـ خاصة المنطقة الساحلية التي تقع بين الطائف (في الحجاز) وعدن في الجنوب وقد أخرج مال الرسول من نجران وصنعاء وبقية الجهات الأخرى. ومما يذكر أن حركته هذه جمعت عدة بطون من مذحج (عنس مراد زبيد الحارث بن كعب حكم. . .) وهي كنفدراليّة يمانية تشمل بعض العناصر المنتصرة (مثل بني عبد المدان وبني الحارث بن كعب في نجران) كما أن هذه البطون كانت قد عقدت في أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع للميلاد عدة تحالفات قبلية بينها نذكر منها التحالف الذي جمع في الجوف بني زبيد بني الحارث بن كعب ـ بني عبد المدان وخولان وهو تحالف موجه ضد الفرس بقيادة باذان بن ساسان حاكم صنعاء من طرف الساسانيين في تلك الفترة[3].

وقد أكد المؤرخ اليماني الرازي في كتابه «تاريخ صنعاء»[4] أن الفرس تحالفوا من جهتهم ـ للتصدي لهذه الكتلة القبلية المتكونة من بطون بدوية فقيرة ـ مع قبيلة همدان التي لم تشارك فيما بعد في الردة وبقيت على ولائها

(1) انظر الأطروحة المذكورة آنفاً (هامش عدد 1).
(2) المرجع السابق 1 ص 321 وما بعدها.
(3) المرجع السابق I ص 330 وما بعدها.
(4) الرّازي ـ تاريخ مدينة صنعاء ـ طبعة دمشق 1974 ص 37 وما بعدها.

للإسلام وكانت توجد ضمنها بعض العناصر المتهودة.

لكن هذه الحركة فشلت في آخر المطاف وقد شارك في اغتيال زعيمها عبهلة كلّ من الأبناء وعلى رأسهم فيروز الديلمي وداذويه وجشيش وكذلك بعض القادة اليمانيين[1] مثل قيس بن المكشوح المرادي الذي انقلب على الأسود بعد ما كان من قواده: ماذا تمثل هذه الحركة؟ هل هي ردة بالمفهوم الديني؟ أم تمرد ضد سلطة المدينة؟ أم ثورة ضد الفرس الذين يحكمون اليمن منذ النصف الثاني من القرن السادس للميلاد؟ في الواقع إن ردة الأسود هي عبارة عن ثورة ضد التواجد الفارسي في اليمن ـ وقد نقل لنا الطبري رواية يقول فيها عبهلة في كتاب أرسله إلى معارضيه: «أيها المتوردون علينا! أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ووفروا ما جمعتم، فنحن أولى به! وأنتم على ما أنتم عليه»[2].

من ناحية أخرى يمكن طرح المسألة من منظار جديد على أساس أن اليمانيين الذين عارضوا حركة الأسود العنسي وبقية الحركات الأخرى (حركة قيس المرادي وحركة الأشعث الكندي) ينتمون إلى 3 كنفدراليات قبلية كبيرة (همدان ـ حمير ـ حضرموت) ساهمت في تكوين الدول اليمانية القديمة ولعبت دوراً كبيراً في إرساء الحضارات العربية الجنوبية كما أن هذه المجموعات المتحضرة كانت توجد ضمنها عدّة عناصر متهودة (مثل همدان وحمير) بحيث يمكن طرح الفراضية التالية: هل أن حركة الأسود بصفة خاصة تعتبر رد فعل القبائل اليمانية المتنصّرة (بنو الحارث ـ بنو عبد المدان ـ مذحج) والمعادية للفرس منذ القرن السادس ضد تحالف يتركب من قبائل متهودة وقبائل موالية للإسلام (همدان حمير. . .) وموادعة للفرس في اليمن؟[3].

لعل الإشكال الكبير في هذا الإطار يتعلق بقبيلة كندة التي كانت تشمل عناصر متهودة ولكنّها شاركت في الردة بقيادة الأشعث بن قيس في منطقة حضرموت.

(1) انظر راضي دغفوس ـ المرجع السابق ـ I ص 341 وما بعدها.
(2) انظر الطبري تاريخ III ص 229. راضي دغفوس ـ المرجع السابق ـ I ص 336.
(3) راضي دغفوس ـ المرجع السابق ـ I ص 331.

نشير كذلك إلى أن الأسود الذي لقب «برحمان اليمن» شأنه شأن مسيلمة الذي ادعى النبوة تحت اسم «رحمان اليمامة» لا نعرف عنه الكثير سوى أنه كان كاهناً شعباذاً وكان يحيط نفسه بهالة دينيّة تجعلنا نتساءل عن مدى تأثره بالديانة النصرانية التي كانت منتشرة في اليمن منذ القرن الخامس للميلاد(1). وفي هذا الإطار يمكن الإشارة إلى أن لقب «رحمان» هو اسم ورد في الكتابات الحميرية التي ترجع إلى القرن السادس للميلاد(2). وقد جاء في بعض هذه النقوش أن سميفع أشوع (رجل حميري نصبه الأحباش بعد احتلالهم لليمن سنة 525م) ثم أبرهة (الذي أصبح ملكاً لليمن إلى حدود سنة 556م). كانا متنصرين. إذن كلمة «الرحمان» استعملت في هذه الكتابات كلقب لإله النصارى. وقد ورد هذا اللقب فيما بعد في البسملة «بسم الله الرحمان الرّحيم» وفي القرآن وقد استعمل في نفس الوقت اسماً لله وصفة من صفاته. المهمّ هو التأكيد على هذا التواصل بين القرن السادس والفترة الإسلامية. ومحاولة فهم الردة ـ في اليمن بصفة خاصة ـ من منظار جديد.

فيما يتعلق بردة قيس بن المكشوح المرادي التي يسميها الطبري «الردّة الثانية» فهي حركة محلية تتمحور حول النزاع على السلطة في صنعاء(3) بين الأبناء الذين دخلوا في الإسلام منذ عهد باذان وأصبحوا يحكمون البلاد باسم دولة النبوة ثم دولة الخلافة (مع تعيين فيروز الدّيلمي من طرف أبي بكر كعامل مباشرة بعد القضاء على الأسود واغتياله) وبين بعض العناصر اليمانية (مثل قيس من قبيلة مراد وعمـرو بن معدي كرب من زبيد من الكنفدرالية والمذحجية) الذين كانوا يسعون إلى السيطرة على الأوضاع في بلادهم واسترجاع الحكم لصالحهم(4). إذن هذه الحركة لها طابع سياسي واضح ولا يمكن أن نطلق عليها اسم الردّة بمعنى الإرتداد عن الإسلام. وأحسن دليل على ذلك هو أنّ قيساً

(1) نفس المرجع I ص 334.

(2) انظر المرجع المذكور (CH.ROBINL'Arabie) ص 144 وما بعدها.

(3) انظر إلياس شوفاني ـ المرجع السابق ـ ص 136. راضي دغفوس ـ المرجع السابق ـ I ص 346. .

(4) راضي دغفوس ـ المرجع السابق ـ I ص 362. . .

وعمرواً أسرا وأرسلا إلى المدينة حيث وقع العفو عنهما من طرف أبي بكر وقد شاركا فيما بعد بصفة فعالة في عمليات الإنتشار في الشام والعراق[1].

أما الحركة الثالثة فقد اندلعت في حضرموت ضمن قبيلة كندة[2] وتحت زعامة الأشعث بن قيس الكندي، تتمثل أسبابها في رفض بعض بطون قبيلة كندة البيعة لأبي بكر الذي تم اختياره في السقيفة خليفة للمسلمين وفي الإحجام عن دفع الصدقات لعامل المدينة في حضرموت (زياد بن لبيد الأنصاري) وإضافة إلى روايات الطبري عن هذه الحركة نقلت لنا المصادر الأخرى لا سيما الواقدي وابن أعثم الكوفي معلومات هامة عن ظروف اندلاع هذه الحركة وتطورها والقضاء عليها[3]. وممّا يذكر أن الرسول محمداً ﷺ كان استقبل في المدينة سنة 9 للهجرة وفداً من كندة ومن حضرموت وكان أمر حسب رواية سيف بن عمر التميمي أن يوضع صدقة بعض «حضرموت في كندة وتوضع صدقة كندة في بعض حضرموت وبعض حضرموت في السكون والسكون في حضرموت»، لكن الحضرميين أبوا بعد موت الرسول ﷺ نقل الصدقات للكنديين «فلج هؤلاء ورجعوا إلى دارهم وقدموا رجلاً وأخروا أخرى»[4]. وفي هذا الإطار بالذات ولى زياد بن لبيد صدقات بني عمرو بن معاوية بنفسه فحصل خلاف بينه وبين رجل من كندة في شأن بكرة كان العامل قد وضع عليها ميسم الصدقة بينما كان الكندي يطالب بإرجاعها إليه مقابل ناقة أخرى[5]. أدى هذا الخلاف البسيط إلى نزاع مسلح بين فريقين: فريق اصطف حول العامل زياد ويشمل عناصر السكاسك والسكون وحضرموت وفريق آخر تحت زعامة الأشعث بن قيس ونجد ضمنه عدة بطون من كندة (بنو هند ـ بنو حمير ـ بنو حجر ـ بنو عاقل ـ بنو

---

(1) راضي دغفوس ـ I ص 408 وما بعدها خاصّة ص 420.

(2) نفس المرجع.

(3) الواقدي، كتاب الردّة ـ المصدر المذكور ـ ص 167 وما بعدها ابن أعثم الكوفي ـ كتاب الفتوح ـ المصدر المذكور ـ المجلّد I ص 47 ـ 70.

(4) الطبري، تاريخ، III، ص 331.

(5) الواقدي ـ المصدر المذكور ـ ص 170 ابن أعثم ـ المصدر السابق ـ I ص 48 ـ 49.

مرة ـ بنو عدي ـ بنو جبلة وبنو الأرقم)[1] وحصلت عدة معارك بين الطرفين أهمها معركة تريم ـ معركة محجر الزرقان وأخيراً حصار الكنديين من طرف زياد بن لبيد في حصن النجير قبل وصول الجيوش التي أرسلها أبو بكر تحت قيادة المهاجر بن أبي أُمية وعكرمة بن أبي جهل للقضاء على حركة الأشعث[2]. ما ينبغي التأكيد عليه هو أن ثورة الكنديين لها طابع اقتصادي (رفض تسديد الصدقات لعامل المدينة) وسياسي في نفس الوقت (عدم الخضوع لسلطة أبي بكر) لكن الفاصل بين الفريقين المتنازعين يتجاوز في الحقيقة الإطار الديني البحت: مسلمون من ناحية ومرتدون من ناحية أخرى ـ حيث أن النزاع يدخل في نطاق العصبية القبلية ويهم تكتلين قبليين: تكتّلاً حول الأشعث وتكتّلاً ثانياً حول العامل زياد يسكنان في نفس المنطقة (حضرموت) التي لم تكن مؤهلة لقبول هذه البطون. ثم إن العداوة القديمة التي ترجع إلى فترة ما قبل الإسلام بين الكنديين (خاصّة بطون بني عمرو وبني الحارث وبني معاوية) من ناحية وحضرموت بن سبأ والسكون بن الأشرس من ناحية ثانية قد طفت على السطح من جديد أثناء النزاع[3]. وليس من باب الصدفة أن يرسل الخليفة أبو بكر مبعوثاً إلى حضرموت (المغيرة بن شعبة)[4] عندما كان الكنديون محاصرين في النّجير ـ ويطلب منه إبلاغ كل من زياد بن لبيد والمهاجر بن أبي أُمية قراره القاضي بطرد الثائرين من المنطقة حتى ولو أبرمت معاهدة صلح معهم. وهذا يعني أن بلاد حضرموت لا يجب أن تظل ـ في رأي أبي بكر ـ مقر إقامة بني كندة (بمختلف بطونهم) والحضارمة والسكون في نفس الوقت.

إذاً ردّة أهل كندة بينت لنا وجود أنصار للدولة الإسلامية في حضرموت واليمن كما هو الشأن في المناطق الأخرى من الجزيرة العربية. ولا يمكن أن

(1) انظر راضي دغفوس ـ المرجع السابق ـ I، ص 396 ـ 397.
(2) انظر تفاصيل هذه المعارك في كتاب الواقدي ـ المصدر المذكور ـ ص 188 وما بعدها وفي كتاب ابن أعثم ـ المصدر المذكور ـ I ص 50 وما بعدها.
(3) انظر راضي دغفوس ـ المرجع المذكور ـ I ص 397.
(4) الطبري ـ تاريخ III ، ص 337.

نفهم «نجاح أبي بكر» في القضاء على كل الحركات التي اندلعت بعد موت الرسول ﷺ خاصة دون التأكيد على هذا العنصر الهام.

الخاتمــــة:

ما يمكن التأكيد عليه بعد استعراض أهمّ أحداث الردّة في اليمن وتقييم المؤرخين لها هو أن هذه الحركات انطلقت ـ كما أشرنا ـ منذ آخر حياة الرسول محمّد ﷺ ـ وأنّها مختلفة من حيث الأسباب والأهداف وبالتالي لا تعني كلّها ـ ارتداد على الإسلام بالمفهوم الدّيني بقدر ما تعبّر عن أوضاع خاصّة باليمن الذي كان مركزاً مشعاً لعدّة حضارات قديمة ترجع إلى الألف الأول قبل الميلاد ولكنّ البلاد فقدت دورها الاقتصاديّ والسياسيّ منذ القرن الخامس للميلاد وأصبحت في القرن السادس تدور في فلك الأحباش ثم الفرس ـ ومع ظهور الإسلام دخلت أغلب القبائل اليمانيّة في الديانة الجديدة وأرسلت وفوداً إلى المدينة للتّعبير عن قبولها لمحمدﷺ كنبيّ وكرجل دولة غير أنّ بعض الزعماء اليمانيين بمساندة عشائرهم وبطونهم لم يقبلوا هذا الوضع وحاولوا إعادة مجد بلادهم القديم دون نتيجة. وهذا هو شأن عبهلة بن كعب الذي سمّى نفسه «رحمان اليمن» ممّا يؤكّد على تأثره بالديانة المسيحيّة وعدم دخوله في الإسلام. أمّا قيس بن المكشوح فحركته مجرّد حلقة في الصراع على السلطة في صنعاء ـ ضدّ منافسين له الأبناء من الفرس ولا يمكن نعتها بالردّة وأخيراً حركة كندة بزعامة الأشعث لا ينطبق عليها كذلك مفهوم الردّة على أساس أنّها تعبّر عن وضعية خاصّة بمنطقة حضرموت غير مؤهلة لاحتضان عناصر قبلية متنوعة (حضارمة ـ كنديون بمختلف بطونهم).

وفي نهاية المطاف إنّ هذه الدّراسة محاولة لإثراء النقاش حول قضيّة الردّة التي ما تزال تحتاج إلى تحاليل أخرى ومقارنات بين مختلف الحركات التي تكوّنها.

ولا شك أنّ تمحيص النصوص المصدرية لا سيما النّصوص الجديدة ابن أعثم الواقديّ ـ ابن حبيش ـ الكلاعيّ ـ من شأنه أن يعين المؤرخ على الخروج باستنتاجات جديدة.

نصّ عدد 1

ذكر أخبار الأسود العنسيّ باليمن

واسمه عبهلة بن كعب بن عوف العنسيّ، بالنون، وعنس بطن من مذحج، وكان يلقّب ذا الخمار لأنّه كان معتماً متخمّراً أبداً.

وكان النبيّ ﷺ قد جمع لباذان حين أسلم وأسلم أهل اليمن عمل اليمن جميعه وأمره على جميع مخالفيه، فلم يزل عاملاً عليه حتى مات. فلمّا مات باذان فرّق رسول الله ﷺ، أمراءه في اليمن، فاستعمل عمرو بن حزم على نجران، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران وزبيد، وعامر بن شهر على همدان، وعلى صنعاء شهر بن باذان، وعلى عك والأشعريّين الطاهر بن أبي هالة، وعلى مأرب أبا موسى، وعلى الجند يعلى بن أُميّة، وكان معاذ معلماً يتنقل في عمالة كل عامل باليمن وحضرموت، واستعمل على أعمال حضرموت زياد بن لبيد الأنصاري، وعلى السكاسك والسكون عكاشة بن ثور، وعلى بني معاوية بن كندة عبد الله أو المهاجر، فاشتكى رسول الله، ﷺ، فلم يذهب حتى وجّهه أبو بكر، فمات رسول الله، ﷺ، وهؤلاء عماله على اليمن وحضرموت.

وكان أوّل من اعترض الأسود الكاذب شهر وفيروز وداذويه، وكان الأسود العنسي لما عاد رسول الله، ﷺ، من حجّة الوداع وتمرّض من السفر غير مرض موته بلغه ذلك، فادّعى النبوّة، وكان مشتعبذاً يريهم الأعاجيب، فاتّبعته مذحج، وكانت ردة الأسود أوّل ردة في الإسلام على عهد رسول الله، ﷺ، وغزا نجران فأخرج عنها عمرو بن حزم وخالد بن سعيد. ووثب قيس بن عبد يغوث بن مكشوح على فروة بن مسيك، وهو علي مراد فأجلاه ونزل منزله، وسار الأسود عن نجران إلى صنعاء، وخرج إليه شهر بن باذان فلقيه، فقتل شهر لخمس وعشرين ليلة من خروج الأسود، وخرج معاذ هارباً حتى لحق بأبي

موسى وهو بمأرب، فلحقا بحضرموت، ولحق بفروة من تمّ على إسلامه من مذحج.

واستتبّ للأسود ملك اليمن، ولحق أمراء اليمن إلى الطاهر بن أبي هالة إلا عمراً وخالداً، فإنّهما رجعا إلى المدينة، والطاهر بجبال عك وجبال صنعاء، وغلب الأسود على ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف إلى البحرين والإحساء إلى عدن، واستطار أمره كالحريق، وكان معه سبعمائة فارس يوم لقي شهرا سوى الرّكبان، واستغلظ أمره، وكان خليفته في مذحج عمرو بن معدي كرب، وكان خليفته على جنده قيس بن عبد يغوث، وأمر الأبناء إلى فيروز وداذويه.

وكان الأسود تزوّج امرأة شهر بن باذان بعد قتله، وهي ابنة عمّ فيروز، وخاف من بحضرموت من المسلمين أن يبعث إليهم جيشاً، أو يظهر بها كذاب مثل الأسود، فتزوّج معاذ إلى السكون، فعطفوا عليه.

وجاء إليهم وإلى من باليمن من المسلمين كتب النبيّ ﷺ يأمرهم بقتال الأسود، فقام معاذ في ذلك وقويت نفوس المسلمين، وكان الذي قدم بكتاب النبيّ ﷺ، وبر بن يحنس الأزدي، قل جشيش الدّيلميّ: فجاءتنا كتب النبيّ ﷺ، وبر بن يحنس الأزدي، قال جشيش الدّيلمي: فجاءتنا كتب النبيّ ﷺ، يأمرنا بقتاله إما مصادمة أو غيلة، يعني إليه وإلى فيروز وداذويه، وأن نكاتب من عنده دين. فعملنا في ذلك، فرأينا أمراً كثيفاً، وكان قد تغيّر لقيس بن عبد يغوث، فقلنا: إن قيساً يخاف على دمه فهو لأوّل دعوة، فدعوناه وأبلغناه عن النبيّ ﷺ، فكأنّما نزلنا عليه من السماء. فأجابنا، وكاتبنا الناس. فأخبره الشيطان شيئاً من ذلك، فدعا قيساً فأخبره أن شيطانه يأمره بقتله لميله على عدوه، فحلف قيس: لأنت أعظم في نفسي من أن أحدث نفسي بذلك. ثم أتانا فقال: يا جشيش ويا فيروز ويا داذويه، فأخبرنا بقول الأسود: فبينا نحن معه يحدثنا إذ أرسل إلينا الأسود فتهدّدنا. فاعتذرنا إليه ونجونا منه ولم نكد وهو مرتاب بنا ونحن نحذره. فبينما نحن على ذلك إذ جاءتنا كتب عامر بن شهر وذي زود وذي مرّان وذي الكلاع وذي ظليم يبذلون لنا النصر، فكاتبناهم وأمرناهم

أن لا يفعلوا شيئاً حتى نبرم أمرنا، وإنما اهتاجوا لذلك حين كاتبهم النبيّ ﷺ، وكتب أيضاً إلى أهل نجران فأجابوه، وبلغ ذلك الأسود وأحسّ بالهلاك.

قال: فدخلت على آزاد! وهي امرأته التي تزوّجها بعد قتل زوجها شهر بن باذان. فدعوتها إلى ما نحن عليه وذكرتها قتل زوجها شهر وإهلاك عشيرتها وفضيحة النساء. فأجابت وقالت: والله ما خلق الله شخصاً أبغض إليّ منه، ما يقوم لله على حق ولا ينتهي عن محرّم، فأعلموني أمركم أخبركم بوجه الأمر. قال: فخرجت وأخبرت فيروز وداذويه وقيساً! قال: وإذا قد جاء رجل فدعا قيساً إلى الأسود، فدخل في عشرة من مذحج وهمدان فلم يقدر على قتله معهم وقال له: ألم أخبرك الحق وتخبرني الكذب؟ إنّه، يعني شيطانه[1] يقول لي: إلا تقطع من قيس يده يقطع رقبتك. فقال قيس: إنّه ليس من الحق أن أهلك وأنت رسول الله، فمرني بما أحببت أو اقتلني، فموته أهون من موتات.

فرق له وتركه، وخرج قيس فمرّ بنا وقال: اعملوا عملكم. ولم يقعد عندنا. فخرج علينا الأسود في جمع، فقمنا له وبالباب مائة ما بين بقرة وبعير، فنحرها ثم خلاها، ثم قال: أحق ما بلغني عنك يا فيروز؟ وبوّأ له الحربة لقد هممت أن أنحرك. فقال: اخترتنا لصهرك وفضلتنا، فلو لم تكن نبيّاً لما بعنا نصيبنا منك بشيء، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر الدنيا والآخرة، فقال له: اقسم هذه! فقسمها، ولحق به وهو يسمع سعاية رجل بفيروز وهو يقول له: أنا قاتله غداً وأصحابه، ثم التفت فإذا فيروز فأخبره بقسمتها، ودخل الأسود ورجع فيروز فأخبرنا الخبر فأرسلنا إلى قيس فجاءنا، فاجتمعنا على أن أعود إلى المرأة فأخبرها بعزيمتنا ونأخذ رأيها، فأتيتها فأخبرتها، فقالت: هو متحرز وليس من القصر شيء إلا والحرس محيطون به غير هذا البيت، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه فإنكم من دون الحرس وليس دون قتله شيء. وستجدون فيه سراجاً وسلاحاً.

فتلقاني الأسود خارجاً من بضع منازله فقال: ما أدخلك عليّ؟ ووجأ رأسي حتى سقطت. وكان شديداً، فصاحت المرأة فأدهشته وقالت: جاءني ابن

عمي زائراً ففعلت به هذا؟ فتركني فأتيت أصحابي فقلت: النجا، الهرب، وأخبرتهم الخبر.

فإنا على ذلك حيارى إذ جاءنا رسولها يقول: لا تدعنّ ما فارقتك عليه، فلم أزل به حتى اطمأنّ. فقلنا لفيروز: أيتها فتثبت منها. ففعل. فلمّا أخبرته قال: نتقت على بيوت مبطنة، فدخل فاقتلع البطانة وجلس عندها كالزائر، فدخل عليها الأسود فأخذته غيرة، فأخبرته برضاع وقرابة منها عنده محرم، فأخرجه. فلما أمسينا عملنا في أمرنا وأعلمنا أشياعنا وعجلنا عن مراسلة الهمدانيين والحميريين فنقبنا البيت ودخلنا، وفيه سراج تحت جفنة واتقينا بفيروز، كان أشدنا! فقلنا: انظر ماذا ترى، فخرج ونحن بينه وبين الحرس. فلما دنا من باب البيت سمع غطيطاً شديداً والمرأة قاعدة، فلما قام على باب البيت أجلسه الشيطان وتكلّم على لسانه وقال: ما لي ولك يا فيروز، فخشى إن رجع أن يهلك وتهلك المرأة فعاجله وخالطه وهو مثل الجمل فأخذ برأسه فقتله ودق عنقه ووضع ركبته في ظهره فدقّه ثم قام ليخرج، فأخذت المرأة بثوبه وهي ترى أنّه لم يقتله. فقال: قد قتلته وأرحتك منه. وخرج فأخبرنا، فدخلنا معه، فخار كما يخور الثور، فقطعت رأسه بالشفرة، وابتدر الحرس المقصورة يقولون: ما هذا؟ فقالت المرأة: النبيّ يوحي إليه، فخمدوا، وقعدنا نأتمر بيننا، فيروز وداذويه وقيس، كيف نخبر أشياعنا، فاجتمعنا على النداء. فلما طلع الفجر نادينا بشعارنا الذي بيننا وبين أصحابنا، ففزع المسلمون والكافرون، ثم نادينا بالآذان فقلت: أشهد أن محمداً رسول الله وأن عبهلة كذاب، وألقينا إليهم رأسه، وأحاط بنا أصحابه وحرسه وشنّوا الغارة وأخذوا صبيانا كثيرة وانتهبوا. فنادينا أهل صنعاء من عنده منهم فأمسكه، ففعلوا، فلما خرج أصحابه فقدوا سبعين رجل، فراسلونا وراسلناهم على أن يتركوا لنا ما في أيديهم ونترك ما في أيدينا، ففعلنا، ولم يظفروا منا بشيء، وتردّدوا في ما بين صنعاء ونجران. وتراجع أصحاب النبيّ ﷺ، إلى أعمالهم، وكان يصلّي بنا معاذ بن جبل، وكتبنا إلى رسول الله ﷺ، وذلك في حياته.

وأتاه الخبر من ليلته، وقدمت رسلنا، وقد توفي رسول الله ﷺ، فأجابنا أبو بكر. قال ابن عمر: أتى الخبر من السماء إلى النبيّ، في ليلته التي قتل فيها، فقال: قتل العنسيّ، قتله رجل مبارك من أهل البيت مباركين، قيل: من قتله؟ قال: قتله فيروز.

قيل: كان أوّل أمر العنسيّ إلى آخره ثلاثة أشهر. وقيل قريب من أربعة أشهر وكان قدوم البشير بقتله في آخر ربيع الأوّل بعد موت النبيّ ﷺ، فكان أوّل بشارة أتت أبا بكر وهو بالمدينة.

قال فيروز: لما قتلنا الأسود عاد أمرنا كما كان، وأرسلنا إلى معاذ بن جبل فصلّى بنا ونحن راجون مؤمّلون لم يبق شيء نكرهه إلا تلك الخيول من أصحاب الأسود، فأتى موت النبيّ ﷺ، فانتقضت الأمور واضطربت الأرض.

ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ
الجزء 2 ـ ص 336 ـ 341

النص عدد 2

ذكر خبر ردّة اليمن ثانية

وكان ممّن ارتدّ ثانية قيس بن عبد يغوث بن مكشوح، وذلك أنّه لمّا بلغه موت النبيّ ﷺ، عمل في قتل فيروز وجشنس.

وكتب أبو بكر إلى عمر ذي مرّان وإلى سعيد ذي زود وإلى ذي الكلاع وإلى حوشب ذي ظليم/ وإلى شهر ذي نياف يأمرهم بالتمسّك بدينهم والقيام بأمر الله، ويأمرهم بإعانة الأبناء على من ناوأهم، والسمع لفيروز، وكان فيروز وداذويه وقيس قبل ذلك متساندين. فلمّا سمع قيس بذلك كتب إلى ذي الكلاع وأصحابه يدعوهم إلى قتل الأبناء وإخراج أهلهم من اليمن، فلم يجيبوه ولم ينصروا الأبناء فاستعدّ لهم قيس وكاتب أصحاب الأسود المتردّدين في البلاد سرّاً يدعوهم ليجتمعوا معه، فجاؤوا إليه، فسمع بهم أهل صنعاء فقصد قيس فيروز وداذويه فاستشارهما في أمره خديعةً منه ليلبّس عليهما، فإطمأنّا إليه. ثم إنّ قيساً صنع من الغد طعاماً ودعا داذويه وفيروز وجشنس، فخرج داذويه فدخل عليه فقتله، وجاء إليه فيروز، فلمّا دنا منه سمع امرأتين تتحدثّان فقالت إحداهما؛ هذا مقتول كما قتل داذويه، فخرج. فطلبه أصحاب قيس، فخرج يركض، ولقيه جشنس فرجع معه فتوجّها نحو جبل جولان، وهم أخوال فيروز فصعدا الجبل، ورجعت خيول قيس فأخبروه، فثار بصنعاء وما حولها وأتته خيول الأسود.

واجتمع إلى فيروز جماعة من النّاس، وكتب إلى أبي بكر يخبره، واجتمع إلى قيس عوامّ قبائل من كتب أبو بكر إلى رؤسائهم، واعتزل الرؤساء، وعمد

قيس إلى الأبناء ففرّقهم ثلاث فرق: من أقام أقرّ عياله، والذين ساروا مع فيروز فرّق عيالهم فرقتين فوجّه إحداهما إلى عدن ليحملوا في البحر وحمل الأخرى في البرّ. وقال لهم جميعهم: الحقوا بأرضكم.

فلمّا علم فيروز ذلك جدّ في حربه وتجرّد لها وأرسل إلى بني عقيل بن ربيعة بن يستمدّهم، وإلى عكّ يستمدّهم، فركبت عقيل، فلقوا خيل قيس بن عامر ومعهم عيالات الأبناء الذين كان قد سيّرهم قيس فاستنفذوهم وقتلوا خيل قيس. وسارت عكّ فاستنقذوا طائفة أخرى من عيالات الأبناء وقتلوا من معهم من أصحاب قيس، وأمدّت عقيل وعكّ فيروز بالرجال. فلمّا أتته أمدادهم خرج بهم وبمن اجتمع عنده فلقوا قيساً دون صنعاء فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزم قيس وأصحابه وتذبذب أصحاب العنسيّ وقيس معهم فيما بين صنعاء ونجران.

قيل: وكان فروة بن مسيك قدم على النبيّ ﷺ، مسلماً فاستعمله النبيّ ﷺ، على صدقات مراد ومن نازلهم ونزل دارهم.

وكان عمرو بن معدي كرب الزبيدي قد فارق قومه سعد العشيرة وانحاز إليهم وأسلم معهم، فلمّا ارتدّ العنسيّ ومعه مذحج ارتدّ عمرو فيمن ارتدّ، وكان عمرو مع خالد بن سعيد بن العاص، فلمّا ارتدّ سار إليه خالد فلقيه فضربه خالد على عاتقه فهرب منه، وأخذ خالد سيفيه الصمصامة وفرسه، فلمّا ارتدّ عمرو وجعله العنسيّ بإزاء فروة، فامتنع كلّ واحد منهما من البراح لمكان صاحبه. فبينما هم كذلك قدم عكرمة بن أبي جهل أبين من مبهرة، وقد تقدّم ذكر قتال مبهرة، ومعه بشر كثير من مبهرة وغيرهم، فاستبرى النّخع وحمير، وقدم أيضاً المهاجر بن أبي أميّة في جمع من مكّة والطائف وبيجيلة مع جرير إلى نجران، فانضمّ إليه فروة بن مسيك المراديّ، فأقبل عمرو بن معدي كرب مستجيباً حتى دخل على المهاجر من غير أمان، فأوثقه المهاجر، وأخذ قيساً أيضاً فأوثقه وسيّرهما إلى أبي بكر، فقال: يا قيس قتلت عباد الله واتّخذت المرتدّين وليجة من دون المؤمنين، فانتفى قيس من أن يكون قارف من أمر داذويه شيئاً، وكان قتله سرّاً، فتجافى له عن دمه وقال لعمرو: أما تستحي أنّك كلّ يوم مهزوم أو

مأسور؟ لو نصرت هذا الدين لرفعك الله. فقال: لا جبرتم لأقبلنّ ولا أعود. ورجعا إلى عشائرهما. فسار المهاجر من نجران والتقت الخيول على أصحاب العنسيّ فاستأمنوا فلم يؤمنهم وقتلهم بكلّ سبيل، ثمّ سار إلى صنعاء فدخلها وكتب إلى أبي بكر بذلك.

ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ
الجزء II ص 375 ـ 378

نصّ عدد 3

ذكر ردّة حضرموت وكندة

لمّا توفي رسول الله ﷺ، وعمّاله على بلاد حضرموت: زياد بن أبي لبيد الأنصاريّ على حضرموت، وعكاشة بن أبي أُميّة على السّكاسك والسكون، والمهاجر بن أبي أُميّة على كندة، استعمله النبيّ ﷺ، ولم يخرج إليها حتى توفّي النبيّ ﷺ فبعثه أبو بكر إلى قتال من باليمن ثم المسير بعد إلى عمله، وكان قد تخلّف عن رسول الله ﷺ، بتبوك فرجع رسول الله ﷺ، وهو عاتب عليه، فبينما أمّ سلمة تغسل رأس النبيّ ﷺ، قالت: كيف ينفعني عيش وأنت عاتب على أخي؟ فرأت منه رقّة، فأومأت إلى خادمها فدعته، فلم يزل النبيّ ﷺ، يذكر عذره حتى رضي عنه واستعمله على كندة، فتوفّي النبيّ ﷺ، ولم يسر إلى عمله ثم سار بعده.

وكان سبب ردّة كندة وإجابتهم الأسود الكذاب حتى لعن النبي ﷺ، الملوك الأربعة منهم، أنّهم لمّا أسلموا أمر رسول الله ﷺ، أن يوضع بعض صدقة حضرموت في كندة وبعض صدقة كندة في حضرموت، وبعض صدقة حضرموت في السكون، وبعض صدقة السكون في حضرموت، فقال بعض بني وليعة: من كندة لحضرموت ليس لنا ظهر، فإن رأيتم أن تبعثوا إلينا بذلك على ظهر. قالوا: فإنّنا ننظر فإن لم يكن لكم ظهر فعلنا. فلما توفي رسول الله ﷺ، قالت بنو وليعة: أبلغونا كما وعدتم رسول الله ﷺ، فقالوا: إنّ لكم ظهراً فاحتملوا، فقالوا لزياد: أنت معهم علينا. فأبى الحضرميون ولجّ الكنديون ورجعوا إلى دارهم وتردّدوا في أمرهم، وأمسك عنهم زياد انتظاراً للمهاجر.

وكان المهاجر لما تأخر بالمدينة قد استخلف زياداً على عمله، وسار المهاجر من صنعاء إلى عمله وعكرمة بن أبي جهل أيضاً، فنزل أحدهما على الأسود والآخر على وائل، وكان زياد بن لبيد قد ولي صدقات بني عمرو بن معاوية بن كندة بنفسه، فقدم عليهم فكان أول من انتهى إليه منهم شيطان بن حجر، فأخذ منهم بكرة ووسمها، فإذا الناقة للعداء بن حجر أخي شيطان، وكان أخوه قد أوهم حين أخرجها، وكان اسمها شذرة، وظنها غيرها، فقال العداء: هذه ناقتي، فقال شيطان: صدق فأطلقها وخذ غيرها. فاتهمه زياد بالكفر ومباعدة الإسلام فمنعهما عنها وقال: صارت في حق الله. فلجأ في أخذها، فقال لهما: لا تكوننّ شذرة عليكم كالبسوس، فنادى العداء: يا آل عمرو وأضام واضطهد، إن الذليل من أكل في داره، ونادى حارثة بن سراقة بن معدي كرب، فأقبل إلى زياد وهو واقف، فقال: أطلق بكرة الرجل وخذ غيرها. فقال زياد: مالي إلى ذلك سبيل. فقال حارثة: ذاك إذا كنت يهودياً، وأطلق عقالها وبعثها وقام دونها، فأمر زياد شباباً من حضرموت والسكون فمنعوه وكتفوه وكتفوا أصحابه وأخذوا البكرة، وتصايحت كندة وغضبت بنو معاوية لحارثة وأظهروا أمرهم، وغضبت حضرموت والسكون لزياد، وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء، ولم يحدث بنو معاوية شيئاً لمكان أسرائهم، ولم يجد أصحاب زياد سبيلاً يتعلقون به عليهم، وأمرهم زياد بوضع السلاح فلم يفعلوا، وطلب أسراءهم فلم يطلقهم، ونهد إليهم ليلاً فقتل منهم وتفرقوا، فلما تفرقوا أطلق حارثة ومن معه. فلما رجع الأسرى إلى أصحابهم حرضوهم على زياد ومن معه، واجتمع منهم عسكر كثير ونادوا بمنع الصدقة، فأرسل الحصين بن نمير، وسكن بعضهم عن بعض، فأقاموا بعد ذلك يسيراً.

ثمّ أن بني عمرو بن معاوية بن كندة نزلوا المحاجر، وهي أحماه حموها فنزل جمد محجر، ومخوص محجرا ومشرح محجرا وأبضعة محجرا وأختهم العمردة محجرا، وهم الملوك الأربعة رؤساء عمرو الذين لعنهم رسول الله ﷺ، وقد ذكروا قبل، ونزلت بنو الحارث بن معاوية محاجرها، فنزل الأشعث بن قيس محجراً، والسمط بن الأسود محجرا، وأطبقت بنو معاوية كلها على منع

الصدقة إلا شرحبيل بن السمط وابنه، فإنهما قالا لبني معاوية: إنّه لقبيح بالأحرار التنقل، إن الكرام ليلزمون الشبهة فيتكرّمون أن ينتقلوا إلى أوضح منها مخافة العار، فكيف الإنتقال من الأمر الحسن الجميل والحق إلى الباطل والقبيح، اللّهم إنّا لا نمالىء قومنا على ذلك، وانتقل ونزل مع زياد ومعهما امرؤ القيس بن عابس، وقالا له: بيّتَ القوم فإنّ أقواماً من السكاسك والسكون قد انضموا إليهم وكذلك شذاذ من حضرموت، فإن لم تفعل خشينا أن تتفرّق الناس عنّا إليهم. فأجابهم إلى تبييت القوم، فاجتمعوا وطرقوهم في محاجرهم فوجدوهم جلوساً حول نيرانهم، فأكبّوا على بني عمرو بن معاوية، وفيهم العدد والشوكة من خمسة أوجه، فأصابوا مشرحاً ومخوصاً وجمدا وأبضعة وأختهم العمردة، وأدركتهم لعنة النبي ﷺ، وقتلوا فأكثروا، وهرب من أطاق الهرب، وعاد زياد بن لبيد بالأموال والسبي، واجتازوا بالأشعث، فثار في قومه فاستنفذهم وجمع الجموع.

وكتب زياد إلى المهاجر يستحثه، فلقيه الكتاب بالطريق فاستخلف على الجند عكرمة بن أبي جهل وتعجل في سرعان الناس وقدم على زياد وسار إلى كندة فالتقوا بمحجر الزرقان فاقتتلوا، فانهزمت كندة وقتلت وخرجوا هراباً فالتجأوا إلى النجير، وقد رموه وأصلحوه. وسار المهاجر فنزل عليهم واجتمعت كندة في النجير فتحصّنوا به فحصرهم المسلمون، وقدم إليهم عكرمة، فاشتد الحصر على كندة وتفرّقت السّرايا في طلبهم فقتلوا منهم، وخرج من النجير من كندة وغيرهم فقاتلوا المسلمين فكثر فيهم القتل فرجعوا إلى حصنهم وخشعت نفوسهم وخافوا القتل وخاف الرؤساء على نفوسهم. فخرج الأشعث ومعه تسعة نفر فطلبوا من زياد أن يؤمنهم وأهليهم على أن يفتحوا له الباب. فأجابهم إلى ذلك وقال: اكتبوا ما شئتم ثم هلمّوا الكتاب حتى أختمه ففعلوا، ونسي الأشعث أن يكتب نفسه لأن جحد ما وثب عليه بسكين، فقال: تكتبني أو أقتلك؟ فكتبه ونسي نفسه، ففتحوا الباب فدخل المسلمون فلم يدعوا مقاتلاً إلا قتلوه وضربوا أعناقهم صبراً وأخذوا الأموال والسبي. فلمّا فرغوا منهم

دعا الأشعث أولئك النّفر والكتاب معهم فعرضهم فأجار من في الكتاب، فإذا الأشعث ليس منهم، فقال المهاجر: الحمد لله الذي خطأ فاك يا أشعث يا عدوّ الله. قد كنت أشتهي أن يخزيك الله، وشدّه كتافاً، فقيل له: أخّره وسيره إلى أبي بكر فهو أعلم بالحكم فيه، فسيّره إلى أبي بكر مع السبي.

وقيل: إن الحصار لما اشتدّ على من بالنجير نزل الأشعث إلى المهاجر وزياد والمسلمين فسألهم الأمان على دمه وماله حتى يقدموا به على أبي بكر فيرى فيه رأيه على أن يفتح لهم النجير ويسلكهم إليهم من فيه. وغدر بأصحابه، فقبلوا ذلك منه، ففتح لهم الحصن، فاستنزلوا من فيه من الملوك فقتلوهم وأوثقوا الأشعث وأرسلوه مع السبي إلى أبي بكر، فكان المسلمون يلعنونه ويلعنه سبايا قومه، وسماه نساء قومه عرف النّار وهو اسم الغادر عندهم. فلما قدم المدينة قال له أبو بكر: ما تراني أصنع بك؟ قال: لا أعلم، قال: فإني أقتلك قال: فأنا الذي راوضت القوم في عشرة فما يحلّ دمي. قال: إنما وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من فيها، وإنما كنت قبل ذلك مراوضاً، فلمّا خشي القتل قال: أو تحتسب فيّ خيراً فتطلق إساري وتقيلني عثرتي وتفعل بي مثلاً ما فعلت بأمثالي وترد عليّ زوجتي؟ وقد كان خطب أم فروة أخت أبي بكر لما قدم على النبيّ ﷺ، وأخّرها إلى أن يقدم الثانية، فمات النبيّ ﷺ، وارتدّ، فإن فعلت ذلك تجدني خير أهل بلادي لدين الله، فحقن دمه وردّ عليه أهله وأقام بالمدينة حتى فتح العراق وقسم الغنائم بين الناس.

وقيل: إن عكرمة قدم بعد الفتح فقال زياد والمهاجر لمن معهما: إنّ إخوانكم قدموا مدداً لكم فأشركوهم في الغنيمة، ففعلوا وأشركوهم.

ولمّا ولي عمر بن الخطاب قال: إنّه لقبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً، وقد وسّع الله عزّ وجل وفتح الأعاجم. واستشار في فداء سبايا العرب في الجاهلية والإسلام إلا امرأة ولدت لسيّدها، وجعل فداء لكل إنسان ستة أبعرة أو سبعة إلا حنيفة وكندة فإنّه خفف عليهم لقتل رجالهم فتتبع النساء بكلّ مكان فقدوهنّ.

وفيها انصرف معاذ بن جبل من اليمن، وفيها استقضى أبو بكر عمر بن الخطاب، وكان يقضي بين الناس خلافته كلها، وحجّ بالناس في هذه السنة عتاب بن أسيد، وقيل عبد الرحمن بن عوف.

(النجير، بضمّ النون، وفتح الجيم، وسكون الياء تحتها نقطتان وآخره راء حصن باليمن منيع).

ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ
الجزء 2 ـ ص 378 ـ 383

خريطة القبــائل المرتــــدة



0 200 400 كلم

مخبر رسم الخرائط : كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس

● أهم المــــدن

عك: أهم القبــائــل

دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث
دبي - الإمارات العربية المتحدة

المؤتمر العلمي الأول
حول القاضي عبد الوهاب البغدادي

الصراع المذهبي في إفريقية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد وانتصار المالكية

المقدمـــة:

شرع العرب المسلمون ـ انطلاقاً من مصر ـ في فتح إفريقية (البلاد التونسية اليوم) في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان وقد استمرت عمليات الفتح والانتشار أكثر من نصف قرن نظراً للمقاومة الشديدة التي أبداها كل من البربر والروم آنذاك. وقد لعب عقبة بن نافع الفهري ـ مؤسس القيروان ـ من ناحية ثم المهاجر بن أبي دينار ومن بعدهما حسان بن النعمان الغساني وموسى بن نصير من ناحية أخرى أدواراً أساسية في القضاء على المقاومة البربرية والبيزنطية وتركيز النفوذ العربي الإسلامي في المنطقة. ومن المعلوم أن المجال الإفريقي أصبح ولاية مستقلة عن مصر في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وذلك في سنة 84 للهجرة/ سنة 704 للميلاد. ومنذ ذلك التاريخ تحولت إفريقية إلى ملاذ لعديد العناصر المضطهدة في المشرق الإسلامي ونذكر بالخصوص الخوارج والشيعة أيام الأمويين. كما أصبحت القيروان ـ عاصمة إفريقية وكامل بلاد المغرب ـ مركزاً ثقافياً وعلمياً يشع في كامل العالم الإسلامي إذ تجمع في القيروان رجال من أحزاب وفرق مختلفة: خوارج (صفرية وإباضية) ـ معتزلة ـ شيعة ومرجئة كما ظهر فيها الفقه بمختلف أصنافه: مالكيون ـ أحناف وكذلك شافعية فيما بعد.

وقد بدأ الصراع في المجالس التي كانت تقام في بلاط الأمراء ـ سواء كان ذلك في عهد الولاة أو في العهد الأغلبي ـ وكذلك في حلقات الدراسة التي كانت تدور في المساجد لا سيما في مسجد القيروان.

وقد اتخذ شكلاً جدلياً في البداية قبل أن يتحول فيما بعد إلى صراع مع الحكام كما حصل من جهة أخرى صراع بين الفقهاء ورجال المذاهب ـ خاصة بين مالكيين وأحناف ـ أما في العصر الفاطمي فقد تحول إلى صراع جماهيري بين عامة تدين بالمذهب السني المالكي والحكام المتشيعين.

وفي آخر المطاف انتصر هذا المذهب في العهد الزيري بعد القطيعة التي حصلت بين المعز بن باديس الصنهاجي والمستنصر لدين الله الفاطمي في منتصف القرن الخامس/ القرن الحادي عشر.

أولاً: الصراع الجدلي في إفريقية قبل تأسيس الدولة الفاطمية:

نشير قبل كل شيء إلى أن الفرق المشار إليها أعلاه نشأت في الشرق في خضم الصراع على الحكم لا سيما إثر الفتنة الأولى التي اندلعت بعد الثورة على عثمان وأدت إلى اغتياله من طرف الثائرين سنة 35 للهجرة/ 656 للميلاد ومن أول الفرق التي ظهرت في شكل أحزاب سياسية نذكر الخوارج والشيعة والمرجئة.

بالنسبة للخوارج الذين خرجوا من صفوف علي في صفين كانت قولتهم الشهيرة «لا حكم إلا لله» تعبر عن رفضهم لمبدأ التحكيم والانصياع وراء بني أمية أو بني هاشم. وكانوا يرون أن الخليفة ليس من الضروري أن يكون من قريش. وقد كفروا علياً ومعاوية ورغم تقتيلهم في النهروان فقد واصلوا معارضتهم للحكم الأموي الذي أسسه معاوية بن أبي سفيان سنة 41 للهجرة/ 661 للميلاد. وفيما بعد انقسموا إلى عدة فرق مثل الإباضية والصفرية والأزارقة والنجدات.

أما الشيعة فيرون أن الإمامة هي ركن الدين وقاعدة الإسلام وأن علي بن أبي طالب هو المؤهل للقيام بها بعد موت الرسول عليه السلام.

وفيما يتعلق بالأرجاء فقد كان حزباً سياسياً محايداً يرى أن يوكل الأمر إلى الله ليحكم فيه. ثم تحول إلى مذهب فلسفي يؤكد أصحابه أن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب.

وأخيراً أن الاعتزال الذي ظهر في الشام والعراق في شكل فرقة تتكلم في الدين وفي القدر فيمكن تلخيص مبادئه في الأصول الخمسة (التوحيد ـ العدل ـ الوعد ـ الوعيد والمنزلة بين المنزلتين).

نشير كذلك إلى انتشار الإسلام بإفريقية ودخول البربر فيه وقد اهتم الدارسون بهذا الموضوع الأساسي وأكدوا بالخصوص على دور الوسائل الرسمية والمباشرة في حركة الأسلمة. ومن ضمن الوسائل الرسمية نذكر البعثات التعليمية مثل بعثة حسان بن النعمان الذي كلف ما لا يقل عن 13 فقيهاً من التابعين بتعليم القرآن واللغة العربية. أما الخليفة عمر بن عبد العزيز فقد أرسل إلى إفريقية سنة 100 للهجرة/ 718 للميلاد عشرة فقهاء من التابعين وطلب منهم تفقيه أهل البلاد وتعليمهم أمور الدين الإسلامي.

كما ساهمت الوسائل الخاصة مثل الدعاة والمعارضة الخوارجية ودور المعلمين والكتاتيب والتعريب في أسلمة البربر وانتشار الإسلام في كامل إفريقية في القرن الثاني للهجرة/ القرن الثامن للميلاد. لا شك أن كل هذه الوسائل مكنت أهل إفريقية من التعرف على المبادىء الإسلامية والاطلاع على أصول الدين وخصائص الفقه والتشريع. وقد تخرجت النواة الأولى من علماء القيروان على أيدي الفقهاء العشرة الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبد العزيز ولعل أحسن مثال تذكره المصادر الإفريقية (أبو العرب والمالكي) في هذا الشأن هو عبد الرحمان بن زياد بن أنعم (متوفى سنة 161/777) الذي يعد كبير محدثي إفريقية وقضاتها ومن تلامذته المباشرين الذين أودعهم علم البعثة التعليمية نذكر خاصة البهلول بن راشد (متوفى سنة 183/799) وعبد الله بن غانم (متوفى سنة 190/805). ومن المعلوم أن هؤلاء العلماء لم يكتفوا بما تعلموه في إفريقية بل توجهوا إلى الشرق لطلب العلم والأخذ عن أهم الشيوخ والعلماء في كل المراكز.

وكانت وجهتهم في المقام الأول نحو الحجاز ومركزها الأساسي المدينة ثم نحو مصر (الإسكندرية والفسطاط في نفس الوقت). من جهة أخرى قصدوا

العراق بقطبيها البصرة والكوفة وكذلك الشام وعاصمتها دمشق. وكان هدفهم أخذ الحديث وتلقي أصول الإسلام ودراسته مباشرة عن بعض الصحابة (مثل أبي هريرة) أو عن أبنائهم (مثل عبد الله بن عمر) أو عن كبار الشيوخ من أمثال أنس بن مالك بالمدينة (متوفى سنة 179/795) والليث بن سعد (متوفى سنة 175/791) وعبد الله بن لهيعة (متوفى سنة 174/790) بمصر وأبي حنيفة (متوفى سنة 150/767) وسفيان الثوري (متوفى سنة 161/777) بالكوفة وعبد الرحمان الأوزاعي (متوفى سنة 157/773) بالشام. وبعد عودتهم إلى إفريقية قاموا بنشر العلم الذي تعلموه بها مما أدى إلى تكوين مدرسة إفريقية أولى في الحديث تبعتها مباشرة مدرسة فقهية سيطر عليها في نهاية المطاف المالكيون.

لننظر كيف تم ظهور العلماء الأفارقة وكيف تطورت الأوضاع في إفريقية لتفرز صراعاً جدلياً بين السنيين من مالكية وأحناف وغيرهم.

تشمل قائمة العلماء الأفارقة الذين توجهوا إلى الشرق وتتلمذوا بالخصوص على مالك كلاً من علي بن زياد (متوفى سنة 183/799) والبهلول بن راشد (متوفى كذلك سنة 183/799) وعبد لله بن فروخ الفارسي (متوفى سنة 185/801) وعبد الله بن غانم (متوفى سنة 190/805). كما استمع هؤلاء العلماء على سفيان الثوري والليث بن سعد وكذلك أبي حنيفة وصاحبه القاضي أبي يوسف (متوفى سنة 182/798). وقد قاموا إثر رجوعهم إلى إفريقية بترويج كل الأفكار السنية التي تعلموها لا سيما أفكار مالك بن أنس إلى جانب أفكار أبي حنيفة. ومن أهم الأفارقة الذين تتلمذوا بدورهم عليهم نذكر من ناحية أسد بن الفرات ومن ناحية أخرى سحنون بن سعيد.

بالنسبة لأسد بن الفرات (متوفى سنة 213/828) فقد تتلمذ على مالك بالمدينة وأخذ العلم بمصر على محمد بن القاسم كما قصد العراق وأخذ على تلميذي أبي حنيفة القاضي أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني (متوفى سنة 189/804). وقد ألف «الأسدية» الذي يعتبر أول كتاب وضع في الفقه المالكي بعد موطأ مالك. ومما يلاحظ أن أسد أخذ فيه المنهج العراقي في تفصيل

المسائل وتأصيلها وطبق عليها المذهب المالكي في مسائل الأحكام كما طور فيه التشريع. نشير من ناحية أخرى إلى أن أسد عاد من المشرق سنة 181/797 وقام بتدريس كتابه بالقيروان. كما تولى منصب القضاء بالعاصمة الإفريقية سنة 203/818 وربما استغل هذه الوظيفة لتركيز المذهب العراقي (مذهب أبي حنيفة) ونشره في إفريقية.

ومن الملفت للانتباه أن علماء من أمثال عبد الله بن المغيرة الذي تتلمذ مباشرة على أبي حنيفة وعبد الله بن فروخ وعبد الله بن غانم هم الذين أدخلوا هذا المذهب الحنفي إلى إفريقية. وقد تواصلت سيطرة الأحناف في البلاد في العهد الأغلبي بحكم موالاة الأمراء الأغالبة للعباسيين الذين كانوا يقدمون المذهب الحنفي ويميلون إلى الاعتزال. ومن مظاهر هذه السيطرة في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة/ القرن التاسع للميلاد عدد الفقهاء الحنفية بإفريقية (حوالي 36 عالماً ذكرهم الخشني وابن عذاري) ومساهمتهم في تنشيط الحركة الثقافية بنشر التعليم وإلقاء الدروس.

أما سحنون بن سعيد الذي ولد بالقيروان سنة 160/776 فقد تلقى العلم على عدة علماء نذكر منهم بصفة خاصة البهلول بن راشد وعلي بن زياد الذي كان يقيم بتونس، ثم سمع عن أسد قبل أن ينتقل إلى المشرق في حدود سنة 186/802 حيث أخذ العلم بالمدينة على أصحاب مالك كما توجه إلى مصر وأخذ على ابن وهب وعبد الرحمان بن القاسم. ومن أهم مؤلفاته «المدونة» التي أصبحت الكتاب الثاني في الفقه المالكي في إفريقية بعد الأسدية.

ومن الملفت للانتباه أن المذهب المالكي وقع إدخاله إلى إفريقية في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة/القرن الثامن للميلاد من طرف العديد من العلماء يتصدرهم علي بن زياد. أما سحنون ـ تلميذ هذا الأخير كما أسلفنا القول ـ فإنه عاد إلى إفريقية سنة 191/806 وشرع في التعريف بكل ما تعلمه عن علماء المالكية في الحجاز ومصر وقد التف حوله الطلبة بأعداد وفيرة «وعد له حوالي 700 رجل ظهروا بصحبته وانتفعوا بمجالسته» حسب القاضي عياض

من أشهرهم ابنه محمد بن سحنون (متوفى سنة 870/256) إلى جانب عبد الله بن طالب (متوفى سنة 888/275) ويحيى بن عمر (متوفى سنة 901/289). كما قام سحنون بتصحيح بعض ما جاء في الأسدية من أحكام اعتبرها مختلة. من ناحية أخرى تولى سحنون وظيفة القضاء بالقيروان سنة 849/234 وتمكن من نشر المذهب المالكي وتركيزه بإفريقية. غير أن الصراع بين المالكية والأحناف ما فتىء أن نشب في إفريقية وتحول من مستوى علمي جدلي في عهد سحنون إلى صراع دموي بين الناس بعد وفاته.

ما هي أسباب هذا الصراع وما هي أطواره ونتائجه؟

قام أول صراع جدلي بين سحنون وأسد بن الفرات في شكل منهجي يتعلق بطريقة الاستدلال وأسلوب التدوين ثم تحول بعدهما إلى صراع مذهبي وتواصل مدة قرنين لينتهي بانتصار المالكية التي أصبحت مذهب عامة الناس بإفريقية. ويمكن لنا حصر أسباب الصراع في عهد سحنون في مسائل ثلاثة: القول بخلق القرآن ثم تحليل النبيذ وأخيراً العمل بالربا.

أما بعد سحنون الذي تمكن من إضعاف شأن العراقيين فقد تحول الصراع الجدلي العلمي إلى صراع دموي بين الناس.

وسبب ذلك أن الأمراء الأغالبة كانوا يقفون إلى جانب القضاة الأحناف مثل سليمان بن عمران (183 ـ 799/270 ـ 883) وابن أبي الجواد وأبو العباس محمد بن عبدون. وكان هؤلاء يستفزون مشاعر العامة ويفرضون عليهم بعض الأشياء التي تنافي سننهم مثل العمل بتسليمتين في الصلاة أو التعامل بالربا. غير أن تلامذة سحنون وأصحابه كانوا يقاومون أعداءهم بكل حزم ويذودون عن المذهب المالكي ويعدلون في القضاء بين الناس.

من جهة أخرى قاوم المالكيون بقية المذاهب مثل الشافعية نسبة إلى الشافعي (متوفى سنة 819/204) والفرق لا سيما المعتزلة التي كانت مدعومة من طرف الأمراء الأغالبة. لا ننسى أيضاً الفرق الخوارجية مثل الإباضية

والصفرية اللتين فشلتا في إفريقية لكنهما تمكنتا من تأسيس إمارتين الأولى في تاهرت (الإمارة الرستمية) والثانية في سجلماسة (إمارة بني مدرار).

أخيراً لا بد من ذكر مقاومة المالكية لأصحاب الأرجاء الذين أسلفنا القول أنهم لا يجعلون العمل من الإيمان. وقد دخل الأرجاء إلى إفريقية في العهد الأموي وتواصل وجوده بعد ذلك في شكل مبادىء عقائدية ساهم في بلورتها بعض الأحناف. وحدثت بسببها مشاحنات بين علماء المالكية لا سيما العداوة الشديدة بين محمد بن سحنون الذي كان يقول «أنا مؤمن عند الله» والشيخ محمد بن عبدوس الذي يقتصر في إجابته عن مذهبه في الإيمان «أنا مؤمن» ولا يزيد.

إذاً قاوم علماء المالكية بإفريقية كل الآراء والمذاهب التي تخالف أفكارهم التي تعلموها من مالك وتلامذته والتي ساهموا في إثرائها وتطويرها واعتبروا هذه المذاهب مثل الخوارج والاعتزال والأرجاء بدعاً كما نعتوا أصحابها بالمارقين.

غير أن الأمور أخذت صبغة أكثر خطورة بعد تأسيس الدولة الفاطمية بإفريقية في أواخر القرن الثالث/ القرن التاسع فأصبح الصراع المذهبي خلافاً جوهرياً بين السنيين والشيعة من عدة أوجه.

ثانياً: الصراع بين السنيين والشيعة في العهد الفاطمي:

قامت الدولة الفاطمية في إفريقية في نهاية القرن الثالث/ بداية القرن العاشر بعد عمل دعائي واسع النطاق أنجزه الداعية الشيعي أبو عبد الله الصنعاني ضمن قبيلة كتامة البربرية. وقد تمكن منذ استقراره سنة 288/902 باكيجان -ببلاد كتامة على تخوم إفريقية- من بث دعوته واستقطاب العديد من الأنصار ثم أسس جيشاً عتيداً واجه به الأغالبة وانتصر على الأمير زيادة الله الثالث الذي فر إلى المشرق. وبعد دخوله إلى رقادة سنة 296/909 أطاح أبو عبد الله الصنعاني بدولة الرستميين في تاهرت كما استولى على سجلماسة وخلص سيده

عبيد الله من السجن وعاد به ليبايعه بالخلافة تحت لقب المهدي أمير المؤمنين.

لا شك أن خلال العهد الفاطمي الذي تواصل إلى حدود سنة 362/ 975 حصلت مواجهات عنيفة بين الفاطميين الذين كانوا يقومون بنشر مذهبهم الشيعي الإسماعيلي بإفريقية والمالكيين الذين وسعوا في انتشار مذهبهم السني في النصف الثاني من القرن الثالث/ القرن التاسع وكانوا يرغبون في إبقاء سيطرته على سكان البلاد.

من ناحية أخرى شجع الفاطميون تعاطي العلوم المختلفة من جدل وفلسفة وتأويل وشعر على أساس أن الاتجاه الإسماعيلي الذين يقولون به يعتمد على تأويل القرآن والحديث وبالتالي كانوا متفقين مع المعتزلة في عدة مسائل مثل خلق القرآن والصفات وعدم رؤية الله يوم القيامة. كما أنهم يعتقدون أن أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية اغتصبوا الخلافة من علي وأبنائه ولهذا السبب هم خلفاء جائرون ويحل لعنهم على المنابر. وفي نظرهم الإمام مشرع ومنفذ وقائد في نفس الوقت يتمتع بسلطة روحية وبعصمة.

كما أن الفاطميين سنوا تعاليم أخرى وفرضوها على الناس ونذكر منها بصفة خاصة زيادة عبارة «حي على خير العمل» عند آذان الصلاة من طرف المؤذنين، تحريم كل من صلاة التراويح وصلاة الضحى، تغيير أوقات صلاة الظهر والعصر والأمر بإقامتهما الأولى في الساعة السابعة والثانية في الساعة التاسعة، إبطال دعاء القنوت، وإسقاط طلاق البتة أو طلاق الثلاث وإحاطة البنات بالميراث والعمل بنكاح المتعة.

إذاً كل هذه التشريعات التي جاء بها الفاطميون تخالف تماماً الفقه المالكي وتمثل جملة من أسباب الصراع مع الفقهاء المالكية. ومن الملفت للانتباه أن أهم فقيه إفريقي نبغ في ميدان التشريع الفاطمي هو القاضي أبو حنيفة النعمان (متوفى سنة 363/974) الذي وضع عدة مؤلفات لعل من أشهرها كتاب «دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام» وكتاب «المجالس والمسايرات».

أما في الميدان الاقتصادي والاجتماعي فقد انتهج الفاطميون سياسة جبائية مرهقة تعتمد على استعمال شتى الوسائل لابتزاز الأموال لا سيما في عهد الخليفة عبيد الله المهدي (297 ـ 322/909 ـ 934). وتذكر المصادر التغريم والمصادرة وفرض التقسيط إلى جانب تنويع الضرائب المباشرة كالقبالات والمكوس المفروضة على المبادلات التجارية.

بالنسبة لفقهاء المالكية فكانت مقاومتهم للدولة الفاطمية تكتسي من جهة شكل سلبي سلمي ومن جهة ثانية طابع عملي ثوري.

رفض العلماء المالكيون بادىء ذي بدء ظاهرة التشريق التي سلكها العراقيون الذين مالوا إلى الشيعة ليعبروا عن بغضهم لأهل القيروان. وعندما دخل عبيد الله المهدي القيروان سنة 297/909 سارع شيوخ المدينة وفيهم وجوه الفقهاء المدنيين والعراقيين بالخروج لاستقباله بحفاوة وتهنئته والدعاء له. غير أن المالكيين سرعان ما غيروا موقفهم بعد الاستماع إلى خطبته فرفضوا الصلاة خلفه.

ومن ثمة أصبحت مقاومتهم سلبية تتمثل من ناحية في مقاطعة المجتمع والانغلاق على أنفسهم ومن ناحية ثانية في مقاطعة الدولة ورفض التعامل مع خلفائها وأعوانها والتنكر للأصل الهاشمي للفاطميين ونسبتهم إلى اليهود وتكفيرهم. ولعل الشخصية التي تجسد هذا التوجه هو الإمام جبلة بن حمود الصدفي (متوفى سنة 299/911) الذي قاطع صلاة الجمعة وتجنب الاستماع إلى خطبة المهدي. وكان جبلة صارماً في مواقفه إزاء بني عبيد ويعتبر جهادهم ـ حسب أبي العرب «أفضل من جهاد الشرك».

يمكن ذكر علماء آخرين مثل الورداني وابن الحجاج والسبائي والقطان وابن التبان وابن البرذون وكلّهم من المالكيين الذين قاوموا الفاطميين وثبتوا على مواقفهم.

وقد برزت المقاومة السلبية للفاطميين في هجاء الخلفاء مثلما حصل للمعز (341 ـ 365/953 ـ 975) الذي نظمت ضده قصائد شعرية ذكرها المالكي وابن ناجي ونسبت لكل من أبي القاسم الفزاري وسهل الوراق.

أما مقاطعة الدولة فتمثلت في عدة مظاهر منها كتابة آيات قرآنية على حائط الجامع حيث يجلس القاضي المروزي ـ الذي كان يدعو الناس للعمل بمبادىء أهل البيت ـ لمهاجمته، عدم المشاركة في صلاة الجمعة، رفض الانضمام إلى الجيوش البحرية للفاطميين، رفض الصلاة على جنائزهم، عدم الصلاة عليهم وعدم مناكحتهم. كما أن بعض علماء المالكية قاوموا الفاطميين عن طريق التأليف وأحسن مثال على ذلك «كتاب الإمامة والرد على الرافضة» الذي ألفه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الزبيري (متوفى سنة 359/969) والذي كلفه السجن من طرف الخليفة القائم.

أما المقاومة العملية للفاطميين فتتمثل أساساً في مشاركة علماء المالكية في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي (332 ـ 336/943 ـ 947) ودعمها بالمال والعتاد والجند.

ومن جملة العلماء المالكية الذين شاركوا في هذه الثورة تذكر المصادر ـ لا سيما ابن عذاري وابن ناجي ـ أبا العرب صاحب كتاب الطبقات (متوفى سنة 333/944)، ربيع القطان (متوفى سنة 334/945) وأبا إسحاق السبائي (متوفى سنة 356/966). كما شارك العديد من وجوه التجار والفقهاء والصلحاء وجموع سكان القيروان في المعركة الحاسمة التي خاضها أبو يزيد ضد الشيعة عند اقتحامه للمدينة وكان عدد القتلى ضمن العلماء يفوق الثمانين منهم ربيع القطان الذي سلف ذكره وأبو الفضل الممسي (متوفى سنة 333/944). لكن الخليفة المنصور (334 ـ 341/946 ـ 953) ما فتىء أن هزم الثوار ووضع حداً للثورة بعد ما تمكن من قائدها أبي يزيد الذي كانت نهايته في 30 محرم 336/947. والجدير بالملاحظة هو أن مساندة أهل القيروان ـ بما فيهم المالكية ـ لثورة أبي يزيد لم تدم طويلاً حيث أنهم اتصلوا بالخليفة المنصور وساندوه في القضاء على عدوه الخارجي. وتفيد المصادر أنه عيّن سنة 334/945 قاضياً من المالكية على القيروان وهو عبد الله بن أبي المنظور (متوفى سنة 337/948) مما يدل على تطور العلاقة بين المالكية والفاطميين في

اتجاه الانسجام. ويؤكد بعض الدارسين في هذا الشأن أن القطيعة بين أهل إفريقية السنيين والدولة الفاطمية الشيعية لم تكن متواصلة بشكل عدائي واضح خلال كامل الفترة. والدليل على ذلك أن بعض علماء المالكية أظهروا رغبة في التعاون مع الفاطميين فقاموا بمدحهم وألفوا كتباً للاعتراف بنسبهم مثل «كتاب التهذيب في اختصار المدونة» لأبي القاسم خلف بن أبي القاسم المعروف بالبراذعي. كما أن أهل إفريقية ـ خلافاً لما جاء في العديد من المصادر السنية المعادية للفاطميين وللمذهب الشيعي بصفة خاصة ـ تفاعلوا في بعض الأحيان مع الدولة الفاطمية ومع بعض السنن الشيعية. ولعل أحسن مثال على ذلك الاحتفال الشعبي بموسم عاشوراء في رباط المنستير آنذاك وما زالت هذه الظاهرة قائمة في إفريقية إلى اليوم.

لكن انتقال الفاطميين إلى مصر سنة 362/973 كيف يمكن تفسيره؟ هل هو النتيجة الحتمية والمعقولة للمقاومة التي قادها المالكيون ضدهم كما يؤكد على ذلك بعض الباحثين من أمثال حسن حسني عبد الوهاب وحسين مؤنس ومحمد بن عبد الجليل؟ أم هل أن الأمر يتعلق بأسباب أخرى تهم من ناحية السياسة الاقتصادية والتجارية للفاطميين (وهو رأي المؤرخ عبد الحي شعبان) ومن ناحية ثانية الأوضاع الاستراتيجية في منطقة المغرب التي لا تصلح لتحقيق المشاريع الفاطمية التوسعية (نظرية د. فرحات الدشراوي و أ. عمر السعيدي)؟.

مهما يكن من أمر فإن الصراع المذهبي سيتواصل في إفريقية في العهد الزيري وسوف يؤدي في النهاية إلى القطيعة بين المعزّ بن باديس الصنهاجي والمستنصر لدين الله الفاطمي وبالتالي إلى انتصار المالكية بإفريقية.

ثالثاً: الصراع في العهد الزيري وانتصار المالكية:

بعد اكتساح الجيوش الفاطمية لمصر وتأسيس مدينة القاهرة انتقل المعز لدين الله الفاطمي إلى عاصمته الجديدة سنة 362/973 وأسند إمارة إفريقية وبلاد المغرب التي كان نجح قبل ذلك في السيطرة عليها وتوحيدها إلى بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي. والملاحظ هو أن هذا القائد ينتمي إلى

إحدى القبائل البربرية القوية بالمغرب الأوسط التي ساهمت بنجاحه في إنقاذ الفاطميين من ثورة أبي يزيد الملقب بصاحب الحمار. وقد سمح المعز لبلكين في نفس الوقت من توريث الحكم في عائلته مما أفرز نشأة أول أسرة حاكمة من أصل بربري في إفريقية تسمى بالأسرة الزيرية (362 ـ 543/ 973 ـ 1148).

ولئن احتفظ الزيريون بالاتجاه الإسماعيلي الشيعي كمذهب رسمي لدولتهم إلا أنهم تفاعلوا مع الاتجاه السني في شكله المالكي منذ عهد المنصور بن بلكين (373 ـ 386/ 984 ـ 996) الذي عبر لأهل إفريقية عن تحرزه تجاه الفاطميين في مصر.

وقد اعتمد الزيريون على العلماء المالكية من ناحية لاكتساب شرعية لنفوذهم على أساس أنهم من البربر ومن ناحية ثانية لتحقيق مطامحهم السياسية المتمثلة في الحصول على استقلاليتهم وانفصالهم عن الفاطميين. وفي هذا الإطار حصروا وظيفة القضاء بمدينة القيروان في عائلة بني هاشم المالكية إلى حدود سنة 435/ 1043 كما سمحوا بتدريس الفقه المالكي في الأماكن العمومية وبالتالي رفعوا الحظر المسلّط عليه من طرف الفاطميين إلى حد ذلك الوقت. ومن نتائج هذه السياسة الدينية الجديدة ازدهار حركة التأليف في ميدان الدراسات المالكية. وقد برز العديد من العلماء المالكية نذكر منهم ابن أبي زيد القيرواني (متوفى سنة 386/ 996) الملقب «بمالك الصغير» والذي ساهم بفضل «دروسه وكتبه وماله» في مقاومة التشيع وإحياء السنة. ويعتبر كتابه «النوادر والزيادات على المدونة» جامعاً لكل ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال. كما أن اختصاره للمدونة يعد من الكتب الأساسية للتفقه في المذهب المالكي. نشير كذلك إلى رسالته التي ألفها بطلب من محرز بن خلف المؤدب وهي تدخل في نطاق تبسيط الفقه المالكي ليصبح في متناول المبتدئين. بالنسبة لعبد الخالق بن أبي سعيد بن شبلون (متوفى سنة 390/ 999) فإنه خلف ابن أبي زيد في التدريس والإفتاء. أما أبو الحسن القابسي (متوفى سنة 403/ 1012) الذي يعتبر من رواد إدخال المعتقد الأشعري إلى إفريقية فقد ألف العديد

من الكتب منها «الكتاب الممهد» و«الكتاب الملخص» وكذلك «الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين». ومن بين تلامذته لا بد من ذكر أبي عمران الفاسي (متوفى سنة 432/1040) الذي شهر بفتاويه في المغرب والمشرق.

ما يجب ملاحظته هو أن الأوضاع تغيرت في عهد المعز بن باديس الذي ارتقى إلى الخلافة سنة 406/1016. وتفيد المصادر ـ لا سيما ابن عذاري ـ أن الأمير الزيري تلقى تربية دينية واسعة من طرف وزيره أبي الحسن بن أبي الرجال الذي «دله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة». وفي هذا الإطار بالذات تتنزل الأحداث الخطيرة التي حصلت في عهده في عدة مدن منها مدينة تونس التي بادر سكانها سنة 406/1015 بتحريض من محرز بن خلف (متوفى سنة 413/1038) بتقتيل الشيعة ثم تبعتها مدينة باجة. غير أن المجازر الكبيرة كان مسرحها مدينة القيروان: المرة الأولى في 15 محرم 407 الموافق ليوم 15 جوان 1016 حيث قتل عدد كبير من الشيعة، والمرة الثانية بمناسبة أول زيارة قام بها المعز إلى القيروان (شوال أو ذو الحجة 407/ مارس أو ماي 1017). وبلغ عدد القتلى حوالي 3000 من الشيعة بموضع يسمى درب المعلى وأصبح يعرف ببركة الدم. وقد حدثت مجازر مماثلة في بقية المدن الإفريقية (المهدية ـ صبرة ـ طرابلس وغيرها) بحيث تجاوز عدد القتلى سنة 407/1016 في كامل البلاد ـ حسب بعض المصادر ـ أكثر من عشرين ألف بين رجال ونساء وأطفال.

السؤال الذي ينبغي طرحه يتعلق من ناحية بأسباب هذا التقتيل ومن ناحية ثانية بسياسة المعز إزاء الشيعة.

ما يمكن قوله قبل كل شيء هو أن العامل الديني المتمثل في الصراع المذهبي بين الشيعة والمالكية ليس كافياً في حد ذاته لتفسير هذه المجازر الرهيبة التي شملت عدة مدن إفريقية في فترة زمنية وجيزة. لا شك أن علماء المالكية الذين ذكرناهم أعلاه ـ مثل ابن أبي زيد وابن شبلون والقابسي وغيرهم ـ كانوا أصدروا العديد من الفتاوى كفّروا فيها الشيعة واعتبروهم مرتدين وزنادقة وبالتالي استحلوا دمهم.

لا ننسى كذلك ما قام به بعض الشيوخ مثل محرز بن خلف في تونس وأبو علي بن خلدون (متوفى سنة 407/1016) «زعيم السنة وشيخ الدعوة في القيروان» من أعمال تحريض وتشجيع وكذلك قيادة لهذه المذابح التي يعتبرونها مشروعة ومحللة.

غير أن ظاهرة التقتيل شملت عناصر أخرى من أهل السنة وتبعتها أعمال نهب واسعة النطاق لدور الشيعة وأموالهم مما يعطيها صبغة اجتماعية واضحة كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين منهم جون بونصي الذي اعتبر أن تقتيل الشيعة وإن اتخذ صبغة دينية واضطهاد مذهب لمذهب آخر لكنه يمثل في نظره «مظهراً لثورة أعمق جذوراً» يسميها «ثورة البرجوازية والشعب على الأرستقراطية والمتواطئة مع المشارقة»، «ثورة على الحيف الاقتصادي والجور الاجتماعي».

وفيما يتعلق بموقف المعز بن باديس من أعمال التقتيل التي تعرض لها الشيعة في عهده ومدى تورطه المباشر فيها يمكن لنا القول أنه ساهم بسياسته الجديدة في تطور الأحداث بشكل سريع وساير علماء المالكية الذين أصبح لهم ـ بفضل كتاباتهم وفتاويهم ـ نفوذ كبير وتأثير واسع على العامة. غير أن تأزم الأوضاع فرض عليه اتخاذ موقف صارم لإرجاع الأمن وإعادة الاعتبار لهيمنة الدولة لا سيما بعدما تجرأ رجالـه على قتل أبي علي بن خلدون الذي قاد بنفسه ـ كما أسلفنا ـ عمليات تقتيل الشيعة ـ وإلى إحراق كبار الأسواق ونهب أموال التجار بالقيروان. ويمكن من ناحية أخرى ربط هذا الموقف بما ذكره ابن خلدون الذي تحدث عن اعتذار المعز للخليفة الفاطمي الحاكم (386 ـ 411/ 996 ـ 1021) وقد كان هذا الأخير أرسل الخلع للأمير الزيري ولقبه شرف الدولة. لكن الاضطهاد والتعصب الديني الذي أظهره علماء المالكية سيتواصل وتفيد المصادر أنه في سنة 423/1031 إثر استيلاء جمع كبير من الشيعة على بلد من أعمال نفطة كانوا توجهوا إليه تمت محاربتهم والقضاء عليهم.

ويذكر لنا الدباغ في «معالم الإيمان» العديد من الطرائف عن المعز ومدى تأثير علماء المالكية عليه وعلى العامة. ومن المعلوم أنه أحاط نفسه بكثير من

هؤلاء العلماء ومكنهم من وظائف متعددة في سلك القضاء وإمامة الصلاة والإفتاء مما قوى من سلطتهم الدينية على المجتمع ودعم تأثيرهم على سير الحياة السياسية ووسع في انتشار المذهب المالكي في كامل أنحاء البلاد. من جهته لم يتردد المعز من استغلال الوضعية التي أصبحت عليها إفريقية لتحقيق ما كان يطمح إليه من استقلالية إزاء الفاطميين في مصر.

نشير في هذا السياق أن التبعية الزيرية للخلفاء في القاهرة كانت شكلية وتقتصر على مظاهر صورية منها الخطبة للخليفة على المنابر والدعاء له في الأذان وضرب اسمه على السكة. لكن القطيعة الرسمية التي حصلت في حدود سنتي (439 ـ 440/ 1047 ـ 1048)مكنته من اكتساب الشرعية السياسية التي كان يتطلع إليها منذ مدة طويلة. وليس من باب الصدفة أن تربط المصادر الإفريقية مثل ابن عذاري بين هذا الحدث (قطع الخطبة للفاطميين والتصريح بلعنهم على المنابر ثم قطع البنود وإحراقها بالنار ثم تبديل السكة عن أسمائهم) وحدثين آخرين: من ناحية تتبع الشيعة والأمر بتقتيلهم من طرف المعز ومن ناحية أخرى السماح للعرب المتواجدين في الصعيد المصري من إجازة النيل والتوجه نحو الغرب. يقول ابن عذاري في رواية نقلها عن ابن شرف: «لما آل الأمر إلى التصريح بلعنة بني عبيد على المنابر، وأمر المعز بن باديس بقتل أشياعهم أباح بنو عبيد للعرب مجاز النّيل، وكان قبل ذلك ممنوعاً لا يجوزه أحد من العرب». ويضيف كذلك أن المعز أقام السنة بعدما كانت متروكة منذ مائة وأربعين سنة.

إذاً يمكن القول أن القطيعة مع الفاطميين تمثل النتيجة الطبيعية للعلاقات بين مصر وإفريقية. كما أنها تجسم التوجه السني المالكي الذي سار عليه المجتمع الإفريقي منذ القرن 4/ القرن 10.

إن العهد الصنهاجي الأول (362 ـ 440/ 973 ـ 1048) يمثل بدون شك فترة سيطرة المذهب المالكي على كل المذاهب التي ظهرت في إفريقية منذ القرن الثاني/ القرن الثامن. وقد كرست القطيعة في عهد المعز مع مصر

المستنصرية انتصار المذهب المالكي الذي أصبح الاتجاه الديني السائد في نفس الوقت لدى أهل البلاد ولدى الحكام. بعبارة أخرى كانت إفريقية مسرحاً لصراعات مذهبية مستمرة بين الحكام بمختلف أنواعهم (الولاة العرب ثم الأمراء الأغالبة ومن بعدهم الخلفاء الفاطميون والأمراء الزيريون) وأهل البلاد الذين كانوا بدورهم منقسمين بين مذاهب وفرق متعددة (مالكية ـ أحناف ـ معتزلة ـ شيعة ـ خوارج ومرجئة). ولم يتوصل المذهب المالكي من التفوق على بقية المذاهب والفرق وفرض سيطرته المطلقة إلا في منتصف القرن الخامس للهجرة/ القرن الحادي عشر للميلاد.

ومما لا شك فيه أن هذه الصراعات المذهبية ـ رغم كل ما خلفته من آثار سلبية في شكل أعمال عنف ومواجهات دموية أفضت إلى العديد من القتلى ـ أفرزت حركة علمية وفكرية تمثلت في تأليف العشرات بل المئات من الكتب في ميادين الفقه والتشريع والأدب والشعر.

الخاتمة:

إن انتصار المالكية يعني أن سكان إفريقية ـ رغم تنوع المذاهب في بلادهم ـ أصبحوا لا يقتصرون على استهلاك أفكار وآراء مالك بن أنس وتلامذته بل هم خلاقون ومبتكرون ساهموا بمصنفاتهم وتآليفهم المتنوعة في ميدان الفقه المالكي في تطوير المذهب وذلك بنشره في إفريقية والمغرب والأندلس وتكريسه نهائياً في هذه الربوع.

وقد ساهم أهل المغرب في إعادة الحياة لهذا المذهب في الحجاز بالذات التي كانت نقطة انطلاقه وحصل ذلك في القرن الثامن/ القرن الرابع عشر عن طريق عائلتي ابن فرحون والفاسي في كل من المدينة ومكة. كما ساهموا في تطويره فقهياً وعقائدياً.

من ناحية أخرى أصبح المذهب المالكي من محددات الشخصية الإفريقية إلى درجة أن بعض الدارسين طرحوا قضية وجود مدرسة مالكية خاصة بإفريقية.

القائمة الببليوغرافية:

1) المصادر:

1 ـ ابن خلدون، كتاب العبر، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1958.

2 ـ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان. و ا. ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983.

3 ـ أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.

4 ـ البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1977.

5 ـ البلخي والقاضي عبد الجبار والحاكم الجشمي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986.

6 ـ التجاني، رحلة التجاني، تحقيق ح. ح. عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981.

7 ـ الخشني، كتاب طبقات علماء إفريقية، نشر محمد بن أبي الشنب، المطبعة الشرقية الجزائر، 1914.

8 ـ الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ذيله ابن ناجي، المطبعة الرسمية، تونس، 1902.

9 ـ الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر، بيروت، ت.

10 ـ عياض (القاضي)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام الإمام مالك،

تحقيق أ. م. بكير، منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت، 1968.
- تراجم أغلبية، مستخرجة من مدارك القاضي عياض، تحقيق محمد الطالبي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1976.
11 - المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق البشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
12 - المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1967.
13 - النعمان (القاضي)، رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، 1970.
- كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق م. اليعلاوي و ح. أفقي و ا. شبوح، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1978.

2) المراجع:

- المراجع العربية:

- الجنحاني (الحبيب)، القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.
- حسن (إبراهيم حسن)، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964.
- دغفوس (راضي)، الهجرة الهلالية إلى المغرب وآثارها، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، تحت النشر.
- رويس (منير)، الحياة الثقافية والعلمية بإفريقية من خلال رياض النفوس للمالكي، شهادة الكفاءة في البحث تحت إشراف د. راضي دغفوس، الجامعة التونسية، تونس، 1988. (نص مرقون).
- الطالبي (محمد)، دراسات في تاريخ إفريقية وفي الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1982.
- عبد الوهاب (ح. ح.)، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، مكتبة المنار، تونس، 1966.

- المجدوب (عبد العزيز)، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985.
- الهنتاتي (نجم الدين)، المذهب المالكي بإفريقية من منتصف القرن الثاني إلى منتصف القرن الخامس للهجرة، شهادة التعمق في البحث، الجامعة التونسية، تونس، 1991. (نص مرقون).

- المراجع الأجنبية

- **BRUNSCHVIG (R),** *Fiqh fatimide et histoire de l'Ifriqiya, Mélanges* d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman, Alger, 1957.
- **DACHRAOUI (Farhat),** , *Le Califat fatimide au Maghreb - 296 - 362,* STD, Tunis, 1981.
- **DAGHFOUS (Radhi),** *Recherches sur l'origine des tribus arabes (Hilal et Sulaym) et les conditions de leur immigration au Maghreb,* CAR, Université de Tunis, 1971.
- **FEKI (Habib),** *Les idées religieuses et philosophiques de l'ismailisme fatimide, Université de* Tunis, 1978.
- **IDRIS (H.R),** *La Berbérie orientale sous les Zirides (Xè - XIIè s),* Paris, Maisonneuve, 1962.
  - Contribution à la vie religieuse en Ifriqiya Ziride (X - XI Siècles), *Mélanges Louis Massignon, II, pp. 327 - 359.*
- **LAOUST (Henri),** *Les Schismes dans l'Islam,* Paris, Payot, 1965.
- **MARÇAIS (Georges),** *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age,* Paris, Aubier, 1946.
- **MU'NIS (Hossein),** Le malékisme et l'échec des Fatimides en Ifriqiya, *Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de E. Lévi Provençal,* Paris, 1962, T I, pp. 197 - 220.
- **PONCET (Jean),** Le mythe de la catastrophe hilalienne, *Annales ESC, n°5, année 22, octobre 1967, pp. 1099 - 1120.*
- **TALBI (Mohamed),** *Etudes d'histoire ifriqiyenne et de civilisation musulmane médiévale,* Université de Tunis, Tunis, 1982.



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان
لصاحبها : الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود
تلفون: Tel: 009611-350331 / خلوي: Cellulaire: 009613-638535
فاكس: Fax: 009611-742587 / ص.ب. 113-5787 بيروت ، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقـــــم : 2005/1/1000/439

التنضيد: مؤسسة علوم التفسير ـ بيروت ـ لبنان

الطباعة: مطبعـــة الصـــراط ـ بيـروت ـ لبنان

ETUDES D'HISTOIRE ARABO-ISLAMIQUE MEDIEVALE

Dr. RADHI DAGHFOUS

Professeur d'Histoire Islamique à l'Uninversité de Tunis

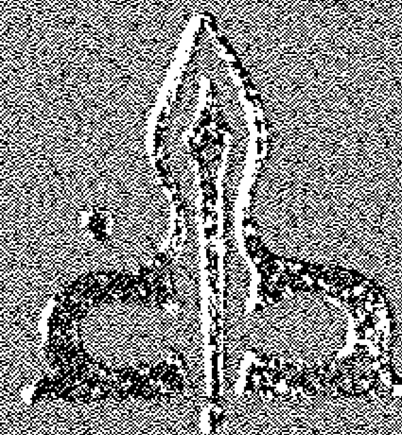


DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

ETUDES D'HISTOIRE ARABO-ISLAMIQUE MEDIEVALE

Dr. RADHI DAGHFOUS

Professeur d'Histoire Islamique à l'Uninversité de Tunis



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI